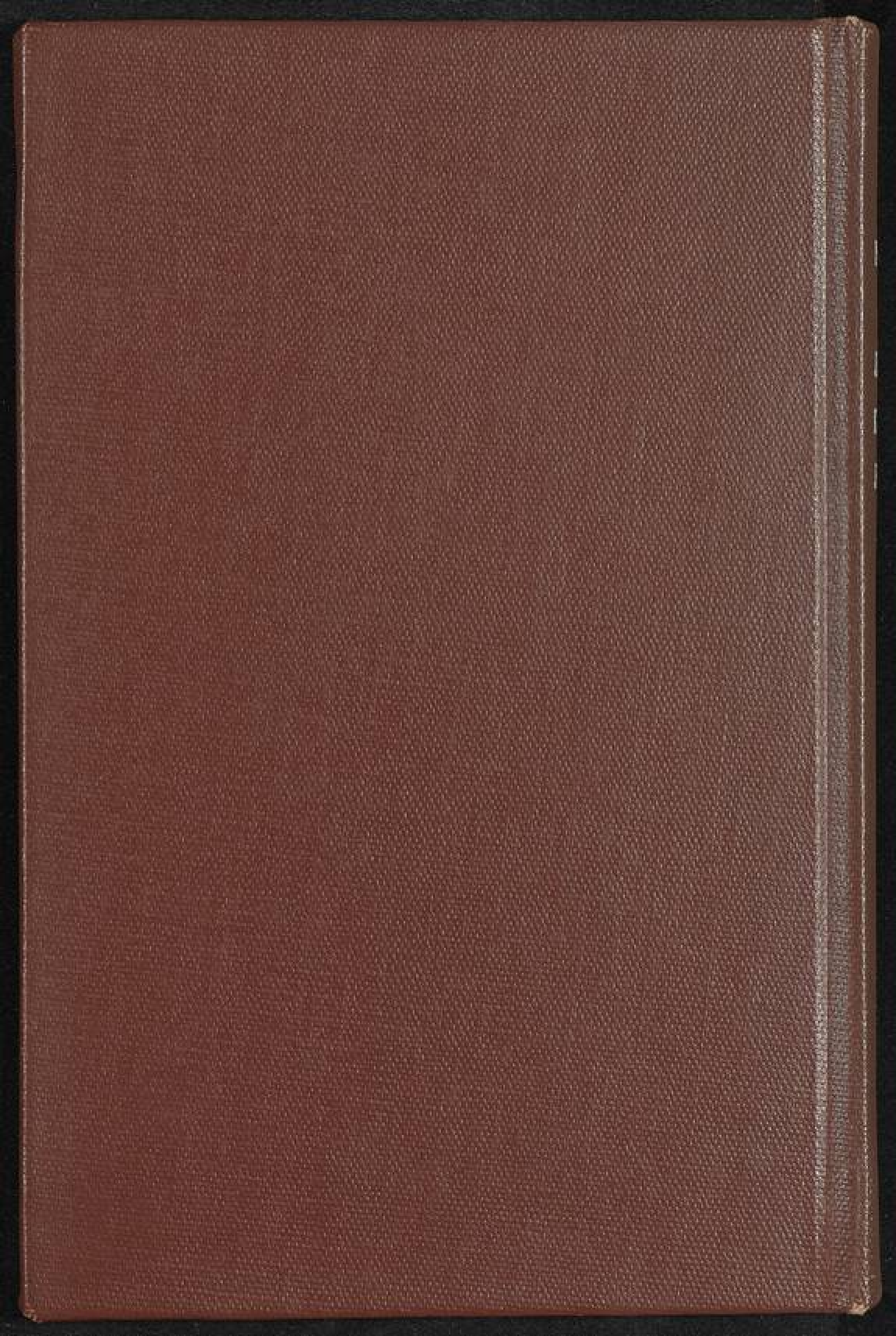
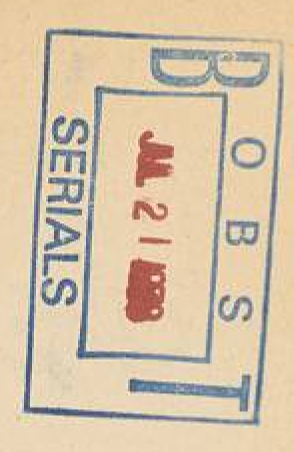




المجموعة الكاملة لمؤلفات

جبران خليل جبران

الجزء الثاني



الى التي تحدق الى الشمس باجفان جامدة، وتقبض على النار باصابع غير مرتعشة ، وتسمع نغمة الروح « الكلي » من وراء ضجيج العميان وصراخهم . الى M. E. H. ارفع هذا الكتاب .

جبران

الأجنحة المتكسرة

توطئة

كنت في الثامنة عشرة عندما فتح الحب عينيّ بأشعته السحرية ، ولمس نفسي لأول مرة بأصابعه النارية . وكانت سلمى كرامه المرأة الأولى التي أيقظت روحي بمحاسنها . ومشت أمامي الى جنة العواطف العلوية ، حيث تمر الأيام كالاحلام وتنقضي الليالي كالاعراس .

سلمى كرامه هي التي علمتني عبادة الجمال بجمالها ، وأرتني خفايا الحب بانعطافها ، وهي التي أنشدت على مسمعي اول بيت من قصيدة الحياة المعنوية .

أي فتىً لا يذكر الصبية الاولى التي أبدلت غفلة شبيبته بيقظة هائلة بلطفها ، جارحة بعذوبتها ، فتاكة بحلاوتها ؟ من منا لا يذوب حنيناً الى تلك الساعة الغريبة التي اذا انتبه فيها فجأةً رأى كليته قد انقلبت وتحوّلت ، واعماقه قد اتسعت وانبسطت وتبطنت بانفعالات لذيذة بكل ما فيها من مرارة الكتمان ، مستحبة بكل ما يكتنفها من الدموع والشوق والسهاد ؟

لكل فتىً سلمى تظهر على حين غفلة في ربيع حياته وتجعل لانفراده معنىً شعرياً وتبدل وحشة ايامه بالأنس وسكينة لياليه بالانغام .

كنت حائراً بين تأثيرات الطبيعة وموحيات الكتب والاسفار

عندما سمعت الحب يهمس بشفتي سلمى في آذان نفسي ، وكانت حياتي خالية مقفرة باردة شبيهة بسبات آدم في الفردوس عندما رأيت سلمى منتصبة امامي كعمود النور . فسلمى كرامه هي حواء هذا القلب المملوء بالأسرار والعجائب ، وهي التي افهمته كنه هذا الوجود واوقفته كالمرآة امام هذه الاشباح . حواء الاولى اخرجت آدم من الفردوس بارادتها وانقياده أما سلمى كرامه فأدخلتني الى جنة الحب والطهر بحلاوتها واستعدادي ، ولكن ما اصاب الانسان الاول قد اصابني ، والسيف الناري الذي طرده من الفردوس هو كالسيف الذي اخافني بلمعان حده وابعدني كرهاً عن جنة المحبة قبل ان اخالف وصية وقبل ان اذوق طعم ثمار الخير والشر .

واليوم ، وقد مرت الاعوام المظلمة طامسة بأقدامها رسوم تلك الأيام ، لم يبقَ لي من ذلك الحلم الجميل سوى تذكارات موجعة ترفرف كالاجنحة غير المنظورة حول رأسي مثيرة تنهدات الأسى في اعماق صدري مستقطرة دموع اليأس والأسف من أجفاني ... وسلمى - سلمى الجميلة العذبة قد ذهبت الى ما وراء الشفق الأزرق ولم يبقَ من آثارها في هذا العالم سوى غصات اليمة في قلبي وقبر رخامي منتصب في ظلال اشجار السرو . فذلك القبر وهذا القلب هما كل ما بقي ليحدث الوجود عن سلمى كرامه ، غير ان السكينة التي تخفر القبور لا تفشي ذلك السر المصون الذي اخفته الآلهة في ظلمات التابوت ، والأغصان التي امتصت عناصر الجسد لا تبيح بحفيفها مكنونات الحفرة . اما غصات هذا القلب وأوجاعه فهي التي تتكلم وهي التي

تنسكب الآن مع قطرات الحبر السوداء معلنة للنور اشباح تلك المأساة التي مثلها الحب والجمال والموت .

فيا اصدقاء شبيبتي المنتشرين في بيروت ، اذا مررتم بتلك المقبرة القريبة من غابة الصنوبر ادخلوها صامتين وسيروا ببطء كيلا تزعج اقدامكم رفات الراقدين تحت اطباق الثرى ، وقفوا متهيبين بجانب قبر سلمى وحيوا عني التراب الذي ضم جثمانها ثم اذكروني بتنهدة قائلين في نفوسكم : ههنا دفنت آمال ذلك الفتى الذي نفته صروف الدهر الى ما وراء البحار ، وههنا توارت امانيه وانزوت افراحه وغارت دموعه واضمحلت ابتساماته ، وبين هذه المدافن الخرساء تنمو كآبته مع اشجار السرو والصفصاف ، وفوق هذا القبر ترفرف روحه كل ليلة مستأنسة بالذكرى ، مرددة مع اشباح الوحشة ندبات الحزن والأسى ، نائحة مع الغصون على صبية كانت بالامس نغمة شجية بين شفتي الحياة فاصبحت اليوم سراً صامتاً في صدر الارض .

استحلفكم يا رفاق الصبا بالنساء اللواتي احببتهن قلوبكم ان تضعوا اكاليل الأزهار على قبر المرأة التي احبها قلبي – فربّ زهرة تلقونها على ضريح منسيّ تكون كقطرة الندى التي تسكبها اجفان الصباح بين اوراق الوردة الذابلة .

الكآبة الخرساء

أنتم ايها الناس تذكرون فجر الشبيبة فرحين باسترجاع رسومه متأسفين على انقضائه ، اما انا فأذكره مثلما يذكر الحر المعتَق جدران سجنه وثقل قيوده . انتم تدعون تلك السنين التي تجيء بين الطفولة والشباب عهداً ذهبياً يهزأ بمتاعب الدهر وهواجسه ويطير مرفرفاً فوق رؤوس المشاغل والهموم مثلما تجتاز النحلة فوق المستنقعات الخبيثة سائرة نحو البساتين المزهرة ؛ اما انا فلا استطيع ان ادعو سني الصبا سوى عهد آلام خفية خرساء كانت تقطن قلبي وتثور كالعواصف في جوانبه وتتكاثر نامية بنموه ، ولم تجد منفذاً تنصرف منه الى عالم المعرفة حتى دخل اليه الحب وفتح ابوابه وأنار زواياه . فالحب قد أعتق لساني فتكلمت ومزّق أجفاني فبكيت وفتح حنجرتي فتنهدت وشكوت .

انتم ايها الناس تذكرون الحقول والبساتين والساحات وجوانب الشوارع التي رأت العابكم وسمعت همس طهركم ، وأنا أيضاً اذكر تلك البقعة الجميلة من شمال لبنان ، فما اغمضت عينيَّ عن هذا المحيط الاّ رأيت تلك الاودية المملوءة سحراً وهيبة ، وتلك الجبال المتعالية بالمجد والعظمة نحو العلاء ، ولا صممت أذنيَّ عن ضجة هذا الاجتماع الاّ سمعت خرير تلك السواقي وحفيف تلك الغصون . ولكن هذه

المحاسن التي اذكرها الآن واتشوق اليها تشوق الرضيع الى ذراعي امه هي هي التي كانت تعذب روحي المسجونة في ظلمة الحداثة مثلما يتعذب البازي بين قضبان قفصه عندما يرى اسراب البزاة تسبح حرّة في الخلاء الوسيع – وهي التي كانت تملأ صدري بأوجاع التأمل ومرارة التفكير وتنسج بأصابع الحيرة والالتباس نقاباً من اليأس والقنوط حول قلبي – فلم اذهب الى البرية الا عدت منها كئيباً جاهلاً اسباب الكآبة، ولا نظرت مساء الى الغيوم المتلونة بأشعة الشمس الا شعرت بانقباض متلف ينمو لجهلي معاني الانقباض، ولا سمعت تغريدة الشحرور او اغنية الغدير الا وقفت حزيناً لجهلي موحيات الحزن.

يقولون ان الغباوة مهد الخلو والخلو مرقد الراحة – وقد يكون ذلك صحيحاً عند الذين يولدون امواتاً ويعيشون كالاجساد الهامدة الباردة فوق التراب، ولكن اذا كانت الغباوة العمياء قاطنة في جوار العواطف المستيقظة تكون الغباوة اقسى من الهاوية وامرّ من الموت. والصبي الحساس الذي يشعر كثيراً ويعرف قليلاً هو اتعس المخلوقات امام وجه الشمس لان نفسه تظل واقفة بين قوتين هائلتين متباينتين: قوة خفية تحلق به في السحاب وتريه محاسن الكائنات من وراء ضباب الاحلام، وقوة ظاهرة تقيده بالارض وتغمر بصيرته بالغبار وتتركه ضائعاً خائفاً في ظلمة حالكة.

للكآبة ايدٍ حريرية الملامس قوية الاعصاب تقبض على القلوب وتؤلمها بالوحدة، فالوحدة حليفة الكآبة كما انها اليفة كل حركة روحية. ونفس الصبي المنتصبة امام عوامل الوحدة وتأثيرات الكآبة شبيهة

بالزنبقة البيضاء عند خروجها من الكمام ترتعش امام النسيم وتفتح قلبها لاشعة الفجر وتضم اوراقها بمرور أخيلة المساء ، فان لم يكن للصبي من الملاهي ما يشغل فكرته ومن الرفاق من يشاركه في الميول كانت الحياة امامه كحبس ضيق لا يرى في جوانبه غير انوال العناكب ولا يسمع من زواياه سوى دبيب الحشرات .

اما تلك الكآبة التي اتبعت ايام حداثتي فلم تكن ناتجة عن حاجتي الى الملاهي لانها كانت متوفرة لدي ، ولا عن افتقاري الى الرفاق لانني كنت اجدهم اينما ذهبت ، بل هي من اعراض علة طبيعية في النفس كانت تحبب الي الوحدة والانفراد ، وتميت في روحي الميول الى الملاهي والالعاب ، وتخلع عن كتفي اجنحة الصبا ، وتجعلني امام الوجود كحوض مياه بين الجبال يعكس بهدوئه المحزن رسوم الاشباح والوان الغيوم وخطوط الاغصان ولكنه لا يجد ممراً يسير فيه جدولاً مترنماً الى البحر .

هكذا كانت حياتي قبل ان ابلغ الثامنة عشرة ، فتلك السنة هي من ماضيّ بمقام القمة من الجبل لانها اوقفتني متأملاً تجاه هذا العالم وأرتني سبل البشر ومروج ميولهم وعقبات متاعبهم وكهوف شرائعهم وتقاليدهم .

في تلك السنة ولدت ثانية ، والمرء ان لم تحبل به الكآبة ويتمخض به اليأس وتضعه المحبة في مهد الاحلام تظل حياته كصفحة خالية بيضاء في كتاب الكيان .

في تلك السنة شاهدت ملائكة السماء تنظر اليّ من وراء اجفان امرأة جميلة وفيها رأيت أبالسة الجحيم يضجون ويتراكضون في صدر رجل مجرم — ومن لا يشاهد الملائكة والشياطين في محاسن الحياة ومكروهاتها يظل قلبه بعيداً عن المعرفة ونفسه فارغة من العواطف .

يد القضاء

كنتُ في بيروت في ربيع تلك السنة المملوءة بالغرائب ، وكان نيسان قد انبت الازهار والاعشاب فظهرت في بساتين المدينة كأنها اسرار تعلنها الارض للسماء . وكانت اشجار اللوز والتفاح قد اكتست بحلل بيضاء معطرة فبانت بين المنازل كأنها حوريات بملابس ناصعة قد بعثت بهن الطبيعة عرائس وزوجات لابناء الشعر والخيال .

الربيع جميل في كل مكان ولكنه اكثر من جميل في سوريا ... الربيع روح اله غير معروف تطوف في الارض مسرعة وعندما تبلغ سوريا تسير ببطء متلفتة الى الوراء مستأنسة بارواح الملوك والأنبياء الحائمة في الفضاء ، مترنمة مع جداول اليهودية باناشيد سليمان الخالدة ، مرددة مع أرز لبنان تذكارات المجد القديم .

وبيروت في الربيع اجمل منها في ما بقي من الفصول لانها تخلو فيه من اوحال الشتاء وغبار الصيف وتصبح بين امطار الاول وحرارة الثاني كصبية حسناء قد اغتسلت بمياه الغدير ثم جلست على ضفته تجفف جسدها بأشعة الشمس .

ففي يوم من تلك الأيام المفعمة بأنفاس نيسان المسكرة وابتساماته المحيية ، ذهبت لزيارة صديق يسكن بيتاً بعيداً عن ضجة الاجتماع .وبينما نحن نتحدث راسمين بالكلام خطوط آمالنا واماننا دخل علينا شيخ

جليل في الخامسة والستين من عمره تدل ملابسه البسيطة وملامحه المتجعــدة على الهيبة والوقار ، فوقفت احتراماً ، وقبيل ان اصافحه مسلماً تقدّم صديقي وقال : حضرته فارس افندي كرامه . ثم لفظ اسمي مشفوعاً بكلمة ثناء ، فحدّق اليّ الشيخ هنيهة لامساً باطراف اصابعه جبهته العالية المكللة بشعر ابيض كالثلج كأنه يريد ان يسترجع الى ذاكرته صورة شيء قديم مفقود ثم ابتسم ابتسامة سرور وانعطاف واقترب مني قائلاً : انت ابن صديق حبيب قديم صرفت ربيع العمر برفقته ، فما اعظم فرحي بمرآك وكم انا مشتاق الى لقاء ابيك بشخصك !

فتأثرت لكلامه وشعرت بجاذبٍ خفي يدنيني اليه بطمأنينة مثلما تقود الغريزة العصفور الى وكره قبيل مجيء العاصفة . ولما جلسنا اخذ يقص علينا احاديث صداقته لوالدي متذكراً ايام الشباب التي صرفها بقربه تالياً على مسامعنا اخبار اعوام قضت فكفنها الدهر بقلبه وقبرها في صدره . . . ان الشيوخ يرجعون بالفكر الى ايام شبابهم رجوع الغريب المشتاق الى مسقط رأسه ، ويميلون الى سرد حكايات الصبا ميل الشاعر الى تنغيم ابلغ قصائده ، فهم يعيشون بالروح في زوايا الماضي الغابر لان الحاضر يمر بهم ولا يلتفت ، والمستقبل يبدو لأعينهم متشحاً بضباب الزوال وظلمة القبر .

وبعد ساعة مرت بين الاحاديث والتذكارات مرور ظل الاغصان على الاعشاب ، وقف فارس كرامه للانصراف ، ولما دنوت منه مودعاً اخذ يدي بيمينه ووضع شماله على كتفي قائلاً : انا لم ارَ والدك منذ عشرين سنة ولكنني ارجو ان استعيض عن بعاده الطويل بزياراتك الكثيرة .

فانحنيت شاكراً واعداً بتتميم ما يجب على الابن نحو صديق ابيه .

ولما خرج فارس كرامه استزدت صاحبي من اخباره فقال بلهجة يساورها التحذر : لا اعرف رجلاً سواه في بيروت قد جعلته الثروة فاضلاً والفضيلة مثرياً . هو واحد من القليلين الذين يجيئون هذا العالم ويغادرونه قبل ان يلامسوا بالأذى نفس مخلوق ، ولكن هؤلاء الرجال يكونون غالباً تعساء مظلومين ، لانهم يجهلون سبل الاحتيال التي تنقذهم من مكر الناس وخبثهم ... ولفارس كرامه ابنة وحيدة تسكن معه منزلاً فخماً في ضاحية المدينة ، وهي تشابهه بالاخلاق وليس بين النساء من يماثلها رقة وجمالاً ، وهي ايضاً ستكون تاعسة لان ثروة والدها الطائلة توقفها الآن على شفير هاوية مظلمة مخيفة .

لفظ صديقي الكلمات الاخيرة وظهرت على محياه لوائح الغم والاسف ثم زاد قائلاً : فارس كرامه شيخ شريف القلب كريم الصفات ولكنه ضعيف الارادة يقوده رياء الناس كالاعمى وتوقفه مطامعهم كالأخرس . اما ابنته فتخضع ممتثلة لارادته الواهنة على رغم كل ما في روحها الكبيرة من القوى والمواهب . وهذا هو السر الكامن وراء حياة الوالد وابنته . وقد فهم هذا السر رجل يأتلف في شخصه الطمع بالرياء والخبث بالدهاء ، وهذا الرجل هو مطران تسير قبائحه بظل الانجيل فتظهر للناس كالفضائل . هو رئيس دين في بلاد الاديان والمذاهب تخافه الأرواح والاجساد وتخر لديه ساجدة مثلما تنحني رقاب الانعام امام الجزار . ولهذا المطران ابن اخ تتصارع في نفسه عناصر المفاسد والمكاره مثلما تتقلب العقارب والافاعي على

جوانب الكهوف والمستنقعات . وليس بعيداً اليوم الذي ينتصب فيه المطران بملابسه الحبرية جاعلاً ابن اخيه عن يمينه وابنة فارس كرامه عن شماله رافعاً بيده الاثيمة اكليل الزواج فوق رأسيهما مقيداً بسلاسل التكهين والتعزيم جسداً طاهراً بجيفة منتنة ، جامعاً في قبضة الشريعة الفاسدة روحاً سماوية بذات ترابية ، واضعاً قلب النهار في صدر الليل . هذا كل ما استطيع ان اقوله لك الآن عن فارس كرامه وابنته فلا تسلني اكثر من ذلك لان ذكر المصيبة يدنيها مثلما يقرب الموت الخوف من الموت .

وحوّل صديقي وجهه ونظر من النافذة الى الفضاء كأنه يبحث عن اسرار الايام والليالي بين دقائق الاثير .

فقمت اذ ذاك من مكاني ، ولما اخذت يده مودعاً قلت له : غداً ازور فارس كرامه قياماً بوعدي له واحتراماً للتذكارات التي ابقتها صداقته لوالدي .

فبهت بي الشاب دقيقة وقد تغيرت ملامحه كأن كلماتي القليلة البسيطة قد اوحت اليه فكراً جديداً هائلاً ، ثم نظر في عينيّ نظرة طويلة غريبة — نظرة محبة وشفقة وخوف — نظرة نبي يرى في اعماق الارواح ما لا تعرفه الارواح ، ثم ارتعشت شفتاه قليلاً ولكنه لم يقل شيئاً ، فتركته وسرت نحو الباب بأفكار متضعضعة ، وقبيل ان يلتفت الى الوراء رأيت عينيه ما زالتا تتبعانني بتلك النظرة الغريبة — تلك النظرة التي لم افهم معانيها حتى عتقت نفسي من عالم المقاييس والكمية وطارت الى مسارح الملاءِ الأعلى حيث تتفاهم القلوب بالنظرات وتنمو الارواح بالتفاهم .

في باب الهيكل

وبعد ايام وقد مللت الوحدة وتعبت اجفاني من النظر الى اوجه الكتب العابسة علوت مركبة طالباً منزل فارس كرامه ، حتى اذا ما بلغت بي غابة الصنوبر حيث يذهب القوم للتنزه حوّل السائق وجهة فرسيه عن الطريق العمومية فسار خبباً على ممر تظلله اشجار الصفصاف وتتمايل على جانبيه الأعشاب والدوالي المتعرشة وازاهر نيسان المبتسمة بثغور حمراء كالياقوت وزرقاء كالزمرد وصفراء كالذهب .

وبعد دقيقة وقفت المركبة امام منزل منفرد تحيط بـه حديقة مترامية الأطراف تتعانق في جوانبها الاغصان وتعطر فضاءها رائحة الورد والفل والياسمين .

ما سرت بضع خطوات في تلك الحديقة حتى ظهر فارس كرامه في باب المنزل خارجاً للقائي كأن هدير المركبة في تلك البقعة المنفردة قد اعلن له قدومي ، فهش متأهلاً وقـادني مرحباً الى داخـل الدار ، ونظير والد مشتاق اجلسني بقربه يحدثني مستفسراً عن ماضيّ مستطلعاً مقاصدي في مستقبلي ، فكنت اجيبه بتلك اللهجة المفعمة بنغمة الأحلام والأماني التي يترنم بهـا الفتيان قبـل ان تقذفهم امواج الخيـال الى شاطىء العمل حيث الجهاد والنزاع ... للشبيبة اجنحة ذات ريش من الشعر واعصاب من الأوهام ترتفع بالفتيان الى ما وراء الغيوم فيرون

الكيان مغموراً باشعة متلونة بالوان قوس قزح ، ويسمعون الحياة مرتلة اغاني المجد والعظمة ، ولكن تلك الاجنحة الشعرية لا تلبث ان تمزقها عواصف الاختبار فيهبطون الى عالم الحقيقة ، وعالم الحقيقة مرآة غريبة يرى فيها المرء نفسه مصغرة مشوهة .

في تلك الدقيقة ظهرت من بين ستائر الباب المخملية صبية ترتدي اثواباً من الحرير الأبيض الناعم ومشت نحوي ببطء ، فوقفت ووقف الشيخ قائلاً : هذه ابنتي سلمى . وبعد ان لفظ اسمي شفعه بقوله : ان ذاك الصديق القديم الذي حجبته عني الايام قد عادت فأبانته لي بشخص ابنه ، فانا اراه الآن ولا اراه . فتقدمت الصبية اليّ وحدقت الى عينيّ كأنها تريد ان تستنطقهما عن حقيقة امري وتعلم منهما اسباب مجيئي الى ذلك المكان ، ثم أخذت يدي بيد تضارع زنبقة الحقل بياضاً ونعومة ، فاحسست عند ملامسة الأكف بعاطفة غريبة جديدة اشبه شيء بالفكر الشعري عند ابتداء تكوينه في مخيلة الكاتب .

جلسنا جميعاً ساكتين كأن سلمى قد ادخلت معها الى تلك الغرفة روحاً علوية توعز الصمت والتهيب ، وكأنها شعرت بذلك فالتفتت نحوي وقالت مبتسمة : كثيراً ما حدثني والدي عن أبيك معيداً على مسمعي حكايات شبابهما ، فان كان والدك قد اسمعك تلك الوقائع فلا يكون هذا اللقاء هو الأول بيننا .

فسرّ الشيخ بكلمات ابنته وانبسطت ملامحه ثم قال : ان سلمى روحية الميول والمذاهب ، فهي ترى جميع الأشياء سابحة في عالم النفس .

وهكذا عاد فارس كرامه الى محادثتي باهتمام كلي ورقة متناهية كأنه وجد فيّ سراً سحرياً يرجعه على اجنحة الذكرى الى ربيع ايامه الغابرة .

كان ذلك الشيخ يحدق اليّ مسترجعاً اشباح شبابه وانا اتأمله حالماً بمستقبلي . كان ينظر اليّ مثلما تخيم اغصان الشجرة العالية المملوءة بمآتي الفصول فوق غرسة صغيرة مفعمة بعزم هاجع وحياة عمياء . شجرة مسنة راسخة الاعراق قد اختبرت صيف العمر وشتاءه ووقفت امام عواصف الدهر وانوائه ، وغرسة ضعيفة لينة لم ترَ غير الربيع ولم ترتعش الاّ بمرور نسيم الفجر .

اما سلمى فكانت ساكتة تنظر اليّ تارة وطوراً الى ابيها كأنها تقرأ في وجهينا اول فصل من رواية الحياة وآخر فصل منها .

قضى ذلك النهار متنهداً انفاسه بين تلك الحدائق والبساتين وغابت الشمس تاركة خيال قبلة صفراء على قمم لبنان المتعالية قبالة ذلك المنزل وفارس كرامه يتلو عليّ اخباره فيذهلني وانا اترنم امامه بأغاني شبيبتي فاطربه ، وسلمى جالسة بقرب تلك النافذة تنظر الينا بعينيها الحزينتين ولا تتحرك وتسمع احاديثنا ولا تتكلم كأنها عرفت ان للجمال لغة سماوية تترفع عن الاصوات والمقاطع التي تحدثها الشفاه والالسنة ، لغة خالدة تضم اليها جميع انغام البشر وتجعلها شعوراً صامتاً مثلما تجتذب البحيرة الهادئة اغاني السواقي الى اعماقها وتجعلها سكوتاً ابدياً . ان الجمال سر تفهمه ارواحنا وتفرح به وتنمو بتأثيراته ، اما افكارنا فتقف امامه محتارة محاولة تحديده وتجسيده بالالفاظ ولكنها

لا تستطيع . هو سيال خافٍ عن العين يتموج بين عواطف الناظر وحقيقة المنظور . الجمال الحقيقي هو أشعة تنبعث من قدس اقداس النفس وتنير خارج الجسد مثلما تنبثق الحياة من اعماق النواة وتكسب الزهرة لوناً وعطراً - هو تفاهم كلي بين الرجل والمرأة يتم بلحظة ، وبلحظة يولد ذلك الميل المترفع عن جميع الميول - ذلك الانعطاف الروحي الذي ندعوه حباً ، فهل فهمت روحي روح سلمى في عشية ذلك النهار فجعلني التفاهم اراها اجمل امرأة امام الشمس ام هي سكرة الشبيبة التي تجعلنا نتخيل رسوماً واشباحاً لا حقيقة لها ؟ هل اعمتني الفتوة فتوهمت الاشعة في عيني سلمى والحلاوة في ثغرها والرقة في قدها ام هي تلك الأشعة وتلك الحلاوة وتلك الرقة التي فتحت عيني لتريني افراح الحب واحزانه ؟ لا ادري ولكنني اعلم أنني شعرت بعاطفة لم اشعر بها قبل تلك الساعة . عاطفة جديدة تمايلت حول قلبي بهدوء يشابه رفرفة الروح على وجه الغمر قبل ان تبتدىء الدهور . ومن تلك العاطفة قد تولدت سعادتي وتعاستي مثلما ظهرت وتناسخت الكائنات بارادة ذلك الروح .

هكذا انقضت تلك الساعة التي جمعتني بسلمى للمرة الاولى ، وهكذا شاءت السماء وأعتقتني على حين غفلة من عبودية الحيرة والحداثة لتسيرني حراً في موكب المحبة ، فالمحبة هي الحرية الوحيدة في هذا العالم لانها ترفع النفس الى مقامٍ سامٍ لا تبلغه شرائع البشر وتقاليدهم ولا تسوده نواميس الطبيعة واحكامها .

ولما وقفت للانصراف اقترب مني فارس كرامه وقال بصوت

تعانقه رنة الاخلاص : الآن وقد عرفت الطريق الى هـذا المنزل يجب ان تأتي اليه شاعراً بالثقة التي تقودك الى بيت ابيك وان تحسبني وسلمى كوالد واخت لك – أليس كذلك يا سلمى ؟

فحنت سلمى رأسها ايجاباً ثم نظرت اليّ نظرة غريب ضائع وجد رفيقاً يعرفه .

ان تلـك الكلمات التي قالهـا لي فارس كرامه هي النغمة الأولى التي اوقفتني بجانب ابنته امـام عرش المحبة . هي استهـلال الاغنية السماوية التي انتهت بالندب والرثاء . هي القوة التي شجعت روحينـا فاقتربنا من النور والنار . هي الاناء الذي شربنا فيه الكوثر والعلقم .

وخرجت فشيعني الشيخ الى اطراف الحديقة ، فودعتهما وقلبي يخفق في داخلي مثلما ترتعش شفتا العطشان بملامسة حافة الكأس .

الشعلة البيضاء

وانقضى نيسان وانا ازور منزل فارس كرامه والتقي سلمى وأجلس قبالتها في تلك الحديقة متأملاً محاسنها ، معجباً بمواهبها ، مصغياً لسكينة كآبتها ، شاعراً بوجود أيد خفية تجتذبني اليها . فكل زيارة كانت تبين لي معنى جديداً من معاني جمالها وسرّاً علويّاً من اسرار روحها حتى أصبحت أمام عينيّ كتاباً أقرأ سطوره واستظهر آياته وأترنم بنغمته ولا استطيع الوصول الى نهايته .

ان المرأة التي تمنحها الآلهة جمال النفس مشفوعاً بجمال الجسد هي حقيقة ظاهرة غامضة نفهمها بالمحبة ونلمسها بالطهر ، وعندما نحاول وصفها بالكلام تختفي عن بصائرنا وراء ضباب الحيرة والالتباس .

وسلمى كرامه كانت جميلة النفس والجسد ، فكيف اصفها لمن لا يعرفها ؟ هل يستطيع الجالس في ظل اجنحة الموت أن يستحضر تغريدة البلبل ، وهمس الوردة ، وتنهدة الغدير ؟ أيقدر الأسير المثقل بالقيود أن يلاحق هبوب نسمات الفجر ؟ ولكن أليس السكوت أصعب من الكلام ؟ وهل يمنعني التهيب عن اظهار خيالٍ من أخيلة سلمى بالألفاظ الواهية اذا كنت لا استطيع ان ارسم حقيقتها بخطوط من الذهب ؟ ان الجائع السائر في الصحراء لا يأبى أكل الخبز اليابس اذا كانت السماء لا تمطره المنّ والسلوى .

كانت سلمى نحيلة الجسم تظهر بملابسها البيضاء الحريرية كأشعة قمر دخلت من النافذة . وكانت حركاتها بطيئة متوازنة اشبه شيء بمقاطيع الالحان الاصفهانية ، وصوتها منخفضاً حلواً تقطعه التنهدات ، فينسكب من بين شفتيها القرمزيتين مثلما تتساقط قطرات الندى عن تيجان الزهور بمرور تموجات الهواء . ووجهها – ومن يا ترى يستطيع ان يصف وجه سلمى كرامه ؟ بأية الفاظ نقدر ان نصور وجهاً حزيناً هادئاً محجوباً وليس محجوباً بنقاب من الاصفرار الشفاف ؟ بأية لغة نقدر ان نتكلم عن ملامح تعلن في كل دقيقة سراً من اسرار النفس وتذكر الناظرين اليها بعالم روحي بعيد عن هذا العالم !

ان الجمال في وجه سلمى لم يكن منطبقاً على المقاييس التي وضعها البشر للجمال ، بل كان غريباً كالحلم او كالرؤيا او كفكر علوي لا يقاس ولا يحد ولا ينسخ بريشة المصور ، ولا يتجسم برخام الحفّار . جمال سلمى لم يكن في شعرها الذهبي بل في هالة الطهر المحيطة به . ولم يكن في عينيها الكبيرتين بل في النور المنبعث منهما . ولا في شفتيها الورديتين بل في الحلاوة السائلة عليهما . ولا في عنقها العاجي بل في كيفية انحنائه قليلاً الى الامام . جمال سلمى لم يكن في كمال جسدها بل في نبالة روحها الشبيهة بشعلة بيضاء متقدة سابحة بين الارض واللانهاية. جمال سلمى كان نوعاً من ذلك النبوغ الشعري الذي نشاهد اشباحه في القصائد السامية والرسوم والانغام الخالدة . واصحاب النبوغ تعساء مهما تسامت أرواحهم تظل مكتنفة بغلاف من الدموع .

وكانت سلمى كثيرة التفكير قليلة الكلام ، لكن سكوتها كان

موسيقياً ينتقل بجليسها الى مسارح الاحلام البعيدة ، ويجعله يصغي لنبضات قلبه ، ويرى أخيلة افكاره وعواطفه منتصبة أمام عينيه .

أمـا الصفة التي كانت تعـانق مزايا سلمى وتساور أخلاقهـا فهي الكآبة العميقة الجارحة ، فالكآبة كانت وشاحاً معنوياً ترتـديه فتزيد محاسن جسدها هيبـة وغرابة ، وتظهر أشعة نفسها من خـلال خيوطه كخطوط شجرة مزهرة من وراء ضباب الصباح . وقد اوجدت الكآبة بين روحي وروح سلمى صلة المشابهة ، فكان كلانا يرى في وجه الثاني ما يشعر به قلبه ، ويسمع بصوته صدى مخبآت صدره ، فكأن الآلهـة قد جعلت كل واحد منا نصفاً للآخر يلتصق به بالطهر فيصـير انساناً كاملاً ، وينفصل عنه فيشعر بنقص موجع في روحه .

ان النفس الحزينة المتألمة تجد راحة بانضمامها الى نفس اخرى تماثلها بالشعور وتشاركها بالاحساس مثلما يستأنس الغريب بالغريب في ارض بعيدة عن وطنيهما — فالقلوب التي تدنيها أوجـاع الكآبة بعضهـا من بعض لا تفرقها بهجة الافراح وبهرجتها . فرابطة الحزن أقوى في النفوس من روابط الغبطـة والسرور . والحب الذي تغسله العيون بدموعهـا يظل طاهراً وجميلاً وخالداً .

العاصفة

وبعد ايام دعاني فارس كرامه الى تناول العشاء في منزله ، فذهبت ونفسي جائعة الى ذلك الخبز العلوي الذي وضعته السماء بين يدي سلمى ، ذلك الخبز الروحي الذي نلتهمه بافواه افئدتنا فنزداد جوعاً ، ذلك الخبز السحري الذي ذاق طعمه قيس العربي ودانتي الطلياني وسافو اليونانيـة فالتهبت احشاؤهم وذابت قلوبهم ، ذلك الخبز الذي عجنته الآلهة بحلاوة القبـل ومرارة الدموع واعدتـه مأكلاً للنفوس الحساسة المستيقظة لتفرحها بطعمه وتعذبها بتأثيره .

ولما بلغت المنزل وجدت سلمى جالسة على مقعد خشبي في زاوية من الحديقة وقد اسندت رأسها الى عمد شجرة فبانت بثوبها الابيض كواحدة من عرائس الخيال تخفر ذلك المكان ، فدنوت منها صامتاً وجلست بقربها جلوس مجوسي متهيب امام النار المقدسة ، ولما حاولت الكلام وجدت لساني منعقداً وشفتيّ جامدتين فاستأنست بالسكوت ، لان الشعور العميق غير المتناهي يفقد شيئاً من خاصته المعنويـة عندمـا يتجسم بالالفـاظ المحدودة ، ولكنني شعرت بان سلمى كانت تسمع في السكينة مناجاة قلبي المتواصلة وتشاهد في عينيّ اشباح نفسي المرتعشة .

وبعد هنيهة خرج فارس كرامه الى الحديقة ومشى نحونا مرحباً بي كعادته باسطاً يده اليّ كأنه يريد ان يبارك بها ذلك السر الخفي الذي

يربط روحي بروح ابنته ، ثم قال مبتسماً : هلمّا يا ولديّ الى العشاء فالطعام ينتظرنا . فقمنا وتبعناه وسلمى تنظر اليّ من وراء اجفان مكحولة بالرقة والانعطاف كأن لفظة « يا ولديّ » قد ايقظت في داخلها شعوراً جديداً عذباً يكتنف محبتها لي مثلما تحتضن الام طفلها .

جلسنا الى المائدة نأكل ونشرب ونتحدث — جلسنا في تلك الغرفة نتلذذ بالوان الطعام الشهية وانواع الخمور المعتقة وارواحنا تسبح على غير معرفة منا في عالم بعيد عن هذا العالم وتحلم بمآتي المستقبل وتتأهب للوقوف امام مخاوفه واهواله . ثلاثة اشخاص تختلف افكارهم باختلاف مقاصدهم من الحياة وتتفق سرائرهم باتفاق قلوبهم بالمودة والمحبة . ثلاثة من الضعفاء الابرياء يشعرون كثيراً ويعرفون قليلاً ، وهذه هي المأساة المستتبة على مسرح النفس . شيخ جليل شريف يحب ابنته ولا يحفل بغير سعادتها — وصبية في العشرين من عمرها ترى المستقبل قريباً بعيداً وتحدق اليه لترى ما يخبىء لها من الغبطة والشقاء — وفتى كثير الاحلام والهواجس لم يذق بعد خمر الحياة ولا خلها يحرك جناحيه ليطير سابحاً في فضاء المحبة والمعرفة ولكنه لا يستطيع النهوض لضعفه . ثلاثة جالسون حول مائدة أنيقة في منزل منفرد عن المدينة تخيم عليه سكينة الدجى وتحدق اليه عيون السماء . ثلاثة يأكلون ويشربون وفي اعماق صحونهم وكؤوسهم قد اخفى القدر المرارة والاشواك .

ولم ننته من العشاء حتى دخلت علينا احدى الخادمات وخاطبت فارس كرامه قائلة : في الباب رجل يطلب مقابلتك يا سيدي .

فسألها : من هو هذا الرجل ؟ فاجابت : اظنه خادم المطران يا

سيدي . فسكت دقيقة وحدق الى عيني ابنته نظير نبي ينظر الى وجه السماء ليرى ما تخبئه من الاسرار ، ثم التفت نحو الخادمة وقال : دعيه يدخل .

فعادت الخادمة ، وبعد هنيهة ظهر رجل باثواب مزركشة وشارب معكوف الطرفين ، فسلم منحنياً وخاطب فارس كرامه قائلاً : قد بعثني سيادة المطران بمركبته الخصوصية لاطلب اليك ان تتكرم بالذهاب اليه ، فهو يريد ان يباحثك بامور ذات اهمية .

فانتصب الشيخ وقد تغيرت ملامحه وانحجبت بشاشة وجهه وراء نقاب من التأمل والتفكير ، ثم اقترب مني وقال بصوت تساوره الرقة والحلاوة : ارجو ان اعود والقاك هنا ، فسلمى ستجد بك مؤنساً يبعد باحاديثه وحشة الليل ، ويزيل بانغام نفسه تأثير الوحدة والانفراد. ثم التفت نحو ابنته وزاد مبتسماً : اليس كذلك يا سلمى ؟

فحنت الصبية رأسها وقد توردت وجنتاها قليلاً ، وبصوت يضارع نغمة الناي رقة قالت : سوف اجهد النفس لكي اجعل ضيفنا مسروراً يا والدي .

وخرج الشيخ مصحوباً بخادم المطران وظلت سلمى واقفة تنظر من النافذة نحو الطريق حتى اختفت المركبة عن بصرها وراء ستائر الظلام واضمحل ارتجاج الدواليب بتباعد المسافة وتشرب السكون حرتقة سنابك الخيل ، ثم جلست قبالتي على مقعد موشى بنسيج من الحرير الاخضر فبانت بأثوابها الناصعة كزنبقة لوت قامتها نسمات الصباح على بساط من الاعشاب .

كذا شاءت السماء فخلوت بسلمى ليلاً في منزل منفرد تخفره الأشجار ، وتغمره السكينة ، وتسير في جوانبه أخيلة الحب والطهر والجمال .

ومرّت دقائق وكلانا صامت حائر مفكر يترقب الآخر ليبدأ بالكلام . ولكن هل هو الكلام الذي يحدث التفاهم بين الأرواح المتحابة ؟ هل هي الأصوات والمقاطع الخارجة من الشفاه والألسنة التي تقرب بين القلوب والعقول ؟ أفلا يوجد شيء أسمى مما تلده الأفواه واطهر مما تهتز به أوتار الحناجر ؟ أليست هي السكينة التي تحمل شعاع النفس الى النفس ، وتنقل همس القلب الى القلب ؟ أليست هي السكينة التي تفصلنا عن ذواتنا فنسبح في فضاء الروح غير المحدود ، مقتربين من الملأ الأعلى ، شاعرين بأن أجسادنا لا تفوق السجون الضيقة ، وهذا العالم لا يمتاز عن المنفى البعيد ؟

ونظرت سلمى إليّ وقد باحت اجفانها بسرائر نفسها ثم قالت بهدوء سحري : تعال نخرج الى الحديقة ونجلس بين الأشجار لنرى القمر طالعاً من وراء الجبل .

فوقفت مطيعاً وقلت ممانعاً : أليس الأفضل أن نبقى ههنا يا سلمى حتى يطلع القمر وينير الحديقة ؟ أمّا الآن فالظلام يحجب الأشجار والأزهار فلا نستطيع ان نرى شيئاً . فاجابت : اذا حجب الظلام الأشجار والرياحين عن العين فالظلام لا يحجب الحب عن النفس .

قالت هذه الكلمات بلهجة غريبة ، ثم حوّلت عينيها ونظرت نحو النافذة ، فبقيت انا صامتاً مفكراً بكلماتها مصوراً لكل مقطع معنى ،

راسماً لكل معنى حقيقة ، ثم عادت فحدقت اليّ كأنها ندمت على ما قالت فحاولت استرجاع كلماتها من اذنيّ بسحر اجفانها . ولكن سحر تلك الاجفان لم يسترجع تلك الالفاظ الا ليعيدهـا الى اعماق صدري أكثر وضوحاً وأشد تأثيراً وليبقيها هنـاك ملتصقة بقلبي متموجـة مع عواطفي الى آخر الحياة .

كل شيء عظيم وجميل في هذا العالم يتولد من فكر واحد او من حاسة واحدة في داخل الانسان . كل ما نراه اليوم من اعمال الاجيال الغابرة كان قبل ظهوره فكراً خفياً في عاقلة رجل او عاطفة لطيفة في صدر امرأة ... الثورات الهائلة التي اجرت الدماء كالسواقي وجعلت الحرية تُعبد كالآلهة كانت فكراً خيالياً مرتعشاً بين تلافيف دماغ رجل فرد عائش بين الوف من الرجال . والحروب الموجعة التي ثلت العروش وخربت الممالك كانت خاطراً يتمايل في رأس رجل واحد . والتعاليم السامية التي غيرت مسير الحياة البشرية كانت ميلاً شعرياً في نفس رجل واحد منفصل بنبوغه عن محيطه . فكر واحد اقـام الاهرام وعاطفة واحدة خربت تروادة وخاطر واحد أوجد مجد الاسلام وكلمة واحدة أحرقت مكتبة الاسكندرية .

فكر واحد يجيئك في سكينة الليل يسير بـك الى المجد أو الى الجنون . نظرة واحدة من أطراف اجفان امرأة تجعلك اسعد النـاس أو أتعسهم . كلمة واحدة تخرج من بين شفتي رجـل تصيرك غنياً بعد الفقر أو فقيراً بعد الغنى ... كلمة واحدة لفظتها سلمى كرامه في تلك الليلة الهادئة اوقفتني بين ماضيّ ومستقبلي وقوف سفينة بين لجة البحار

وطبقات الفضاء . كلمة واحدة معنوية قد أيقظتني من سبات الحداثة والخلو وسارت بايامي على طريق جديدة الى مسارح الحب حيث الحياة والموت .

خرجنا الى الحديقة وسرنا بين الاشجار شاعرين باصابع النسيم الخفية تلامس وجهينا وقامات الازهار والاعشاب اللدنة تتمايل بين اقدامنا ، حتى اذا ما بلغنا شجرة الياسمين جلسنا صامتين على ذلك المقعد الخشبي نسمع تنفس الطبيعة النائمة ونكشف بحلاوة التنهد خفايا صدرينا أمام عيون السماء الناظرة الينا من وراء ازرقاق السماء .

وطلع القمر اذ ذاك من وراء صنين وغمر بنوره تلك الروابي والشواطىء ، فظهرت القرى على اكتاف الاودية كأنها قد انبثقت من اللاشيء ، وبان لبنان جميعه من تحت تلك الاشعة الفضية كأنه فتى متكىء على ساعده تحت نقاب لطيف يخفي اعضاءه ولا يخفيها .

لبنان عند شعراء الغرب مكان خيالي قد اضمحلت حقيقته بذهاب داود وسليمان والأنبياء مثلما انحجبت جنة عدن بسقوط آدم وحواء . هو لفظة شعرية لا اسم جبل — لفظة ترمز عن عاطفة في النفس وتستحضر الى الفكر رسوم غاباتٍ من الأرز يفوح منها العطر والبخور ، وأبراج من النحاس والرخام تتعالى بالمجد والعظمة ، وأسراب من الغزلان تتهادى بين الطلول والأودية . وانا قد رأيت لبنان في تلك الليلة مثل فكر شعري خيالي منتصب كالحلم بين اليقظة واليقظة . كذا تتغير الأشياء أمام اعيننا بتغير عواطفنا ، وهكذا نتوهم الأشياء متشحة بالسحر والجمال عندما لا يكون السحر والجمال الا في نفوسنا .

والتفتت إليّ سلمى وقد غمر نور القمر وجهها وعنقها ومعصميها فبانت كتمثال من العاج نحتته اصابع متعبد لعشتروت ربة الحسن والمحبة: لماذا لا تتكلم ؟ لماذا لا تحدثني عن ماضي حياتك ؟

فنظرت الى عينيها المنيرتين ، ومثل اخرس فاجأ النطق شفتيه اجبتها قائلاً : ألم تسمعيني متكلماً مذ جئت الى هذا المكان ؟ اولم تسمعي كل ما قلته مذ خرجنا الى هذه الحديقة ؟ ان نفسك التي تسمع همس الازهار واغاني السكينة تستطيع ان تسمع صراخ روحي وضجيج قلبي .

فحَجَبَتْ وجهها بيديها ثم قالت بصوت متقطع : قد سمعتك ... نعم سمعتك . سمعت صوتاً صارخاً خارجاً من احشاء الليل وضجة هائلة منبثقة من قلب النهار .

فقلت بسرعة وقد نسيت ماضي حياتي ونسيت كياني ونسيت كل شيء ولم أعد أعرف سوى سلمى ولا اشعر بغير وجودها : وانا قد سمعتك يا سلمى — سمعت نغمة عظيمة محيية جارحة تتموج لها دقائق الفضاء وتهتز بارتعاشها اسس الارض .

فاغمضت سلمى اجفانها وظهر على شفتيها القرمزيتين خيال ابتسامة محزنة ثم همست قائلة : قد عرفت الآن أنه يوجد شيء أعلى من السماء وأعمق من البحر واقوى من الحياة والموت والزمن . وقد عرفت الآن ما لم أكن اعرفه بالأمس ولا احلم به .

منذ تلك الدقيقة صارت سلمى كرامه اعزّ من الصديق وأقرب من الأخت وأحب من الحبيبة . صارت فكراً سامياً يتبع عاقلتي وعاطفة رقيقة تكتنف قلبي وحلماً جميلاً يجاور نفسي .

ما اجهل الناس الذين يتوهمون ان المحبة تتولد بالمعاشرة الطويلة والمرافقة المستمرة . ان المحبة الحقيقية هي ابنة التفاهم الروحي وان لم يتم هذا التفاهم بلحظة واحدة لا يتم بعام ولا بجيل كامل .

ورفعت سلمى رأسها ونظرت نحو الافق البعيد حيث تلتقي خطوط صنين بأذيال الفضاء ، ثم قالت : لقد كنت لي بالأمس مثل اخ اقترب منه مطمئنة واجلس بجانبه في ظلال والدي ، اما الآن فقد شعرت بوجود شيء أقوى وأعذب من العلاقة الأخوية . قد شعرت بعاطفة غريبة مجردة عن كل علاقة . عاطفة قوية مخيفة لذيذة تملأ قلبي حزناً وفرحاً .

فأجبتها : أليست هذه العاطفة التي نخافها ونرتجف لمرورها في صدورنا جزءاً من الناموس الكلي الذي يسيّر القمر حول الارض ، والارض حول الشمس ، والشمس وما يحيط بها حول الله ؟

فوضعت يدها على رأسي وغرست اصابعها بشعري وقد تهلل وجهها وترقرقت الدموع في عينيها مثلما تلمع قطرات الندى على اطراف اوراق النرجس ، ثم قالت : مَنْ من البشر يصدق حكايتنا ؟ من منهم يصدق أننا في الساعة التي تجيء بين غروب الشمس وطلوع القمر قد قطعنا العقبات واجتزنا المعابر الكائنة بين الشك واليقين ؟ من منهم يعتقد أن نيسان الذي جمعنا لأول مرة هو الشهر الذي اوقفنا في قدس اقداس الحياة ؟

قالت هذه الكلمات ويدها ما برحت على رأسي المنحني ، ولو تخيرت في تلك الدقيقة لما فضلت تيجان الملوك واكاليل الغار على تلك اليد

الحريرية المتلاعبة بشعري . ثم اجبتها قائلاً : ان البشر لا يصدقون حكايتنا لأنهم لا يعلمون بأن المحبة هي الزهرة الوحيدة التي تنبت وتنمو بغير معاونة الفصول ، ولكن هل هو نيسان الذي جمعنا لأول مرة ، وهل هي هذه الساعة التي اوقفتنا في قدس اقداس الحياة ؟ اما جمعت روحينا قبضة الله قبل ان تصيرنا الولادة اسيري الايام والليالي ؟ ان حياة الانسان يا سلمى لا تبتدىء في الرحم كما انها لا تنتهي امام القبر ، وهذا الفضاء الوسيع المملوء بأشعة القمر والكواكب لا يخلو من الارواح المتعانقة بالمحبة والنفوس المتضامنة بالتفاهم .

ورفعت سلمى يدها بلطف عن رأسي تاركة بين مغارس الشعر تموجات كهربائية يتلاعب بها نسيم الليل فيزيدها نمواً وحراكاً ، فأخذت تلك اليد براحتي نظير متعبد يتبرك بلثم المذبح ووضعتها على شفتيّ الملتهبتين وقبلتها قبلة طويلة عميقة خرساء تذيب بحرارتها كل ما في القلب البشري من الاحساس وتنبه بعذوبتها كل ما في النفس الالهية من الطهر .

ومرت علينا ساعة كل دقيقة منها عام شغف ومحبة ، تساورنا سكينة الليل وتغمرنا اشعة القمر وتحيط بنا الاشجار والرياحين ، حتى اذا ما بلغنا تلك الحالة التي ينسى فيها الانسان كل شيء سوى حقيقة الحب سمعنا وقع حوافر وهدير مركبة تقترب منا مسرعة ، فانتبهنا من تلك الغيبوبة اللذيذة وهبطت بنا اليقظة من عالم الاحلام الى هذا العالم الواقف بمسيره بين الحيرة والشقاء ، فعرفنا ان الوالد الشيخ قد عاد من دار المطران فسرنا بين الاشجار ننتظر وصوله . وبلغت المركبة مدخل

الحديقة فترجل فارس كرامه وسار نحونا منحني الرأس بطيء الحركة ، ونظير متعب رازح تحت حمل ثقيل تقدم نحو سلمى ووضع كلتا يديه على كتفيها وحدق الى وجهها طويلاً كأنه يخاف ان تغيب صورتها عن عينيه الضئيلتين ، ثم انسكبت دموعه على وجنتيه المتجعدتين وارتجفت شفتاه بابتسامة محزنة وقال بصوت مخنوق : عما قريب يا سلمى ، عما قريب تخرجين من بين ذراعي والدك الى ذراعي رجل آخر . عما قريب تسير بك سنّة الله من هذا المنزل المنفرد الى ساحة العالم الوسيعة فتصبح هذه الحديقة مشتاقة الى وطء قدميك ويصير والدك غريباً عنك . لقد لفظ القدر كلمته ياسلمى ، فلتبارك السماء وتحرسك!

سمعت سلمى هذه الكلمات فتغيرت ملامحها وجمدت عيناها كأنها رأت شبح الموت منتصباً امامها ، ثم شهقت وتململت متوجعة كعصفور رماه الصياد فهبط على الحضيض مرتجفاً بآلامه ، وبصوت تقطعه الغصات العميقة صرخت قائلة : ماذا تقول ؟ ماذا تعني ؟ الى اين تريد ان تبعث بي ؟

ثم شخصت به كأنها تريد ان تزيل بنظراتها الغلاف عن مخبآت صدره . وبعد دقيقة مثقلة بعوامل ذلك السكون الشبيه بصراخ القبور قالت متأوهة : قد فهمت الآن ... قد عرفت كل شيء ... ان المطران قد فرغ من حبك قضبان القفص الذي أعده لهذا الطائر المكسور الجناحين ، فهل هذه هي ارادتك يا والدي ؟

فلم يجبها بغير التنهدات العميقة ، ثم ادخلها الدار وأشعة الحنو تنسكب من ملامحه المضطربة ، فبقيت انا واقفاً بين الاشجار والحيرة

تتلاعب بعواطفي مثلما تتلاعب العواصف بأوراق الخريف ، ثم تبعتهما الى القاعة . وكيلا اظهر بمظهر طفيلي يميل الى استطلاع الخصوصيات اخذت يد الشيخ مودعاً ونظرت الى سلمى نظرة غريق تلف نحو نجم لامع في قبة الفلك ، ثم خرجت دون ان يشعرا بخروجي ، ولكنني ما بلغت اطراف الحديقة حتى سمعت صوت الشيخ منادياً ، فالتفتُ واذا به يتبعني ، فعدت الى لقائه ، ولما دنوت منه امسك بيدي وقال بصوت مرتعش : سامحني يا ابني فقد جعلت ختام ليلتك مكتنفاً بالدموع ، ولكنك سوف تجيء اليّ دائماً ، اليس كذلك ؟ الا تزورني عندما يصير هذا المكان خالياً الا من الشيخوخة المحزنة ؟ ان الشباب الغض لا يستأنس بالشيخوخة الذابلة كما ان الصباح لا يلتقي بالمساء ، اما انت فسوف تجيء اليّ لتذكرني بأيام الصبا التي صرفتها بقرب ابيك وتعيد على مسمعي اخبار الحياة التي لم تعد تحسبني من ابنائها ، أليس كذلك؟ ألا تزورني عندما تذهب سلمى واصبح وحيداً منفرداً في هذا المنزل البعيد عن المنازل ؟

لفظ الكلمات الاخيرة بصوت منخفض متقطع ، ولما اخذت يده وهززتها صامتاً احسست بقطرات من الدموع السخينة قد تساقطت على يدي من اجفانه ، فارتعشت نفسي في داخلي وشعرت نحوه بعاطفة بنوية عذبة محزنة تتمايل بين ضلوعي وتتصاعد كاللهاث الى شفتيّ ثم تعود كالغصات الى اعماق قلبي . ولما رفعت رأسي ورأى ان دموعه قد استدرت الدموع من اجفاني انحنى قليلاً ولمس بشفتيه المرتجفتين اعلى جبهتي ثم قال محولاً وجهه نحو باب المنزل : مساء الخير ... مساء الخير يا ابني .

ان دمعة واحدة تتلمع على وجنة شيخ متجعدة لهي اشد تأثيراً في النفس من كل ما تهرقه اجفان الفتيان .

ان دموع الشباب الغزيرة هي مما يفيض من جوانب القلوب المترعة ، اما دموع الشيوخ فهي فضلات العمر تنسكب من الاحداق ، هي بقية الحياة في الاجساد الواهنة . الدموع في اجفان الشبيبة كقطرات الندى على اوراق الوردة ، اما الدموع على وجنة الشيخوخة فأشبه بأوراق الخريف المصفرة التي تنثرها الرياح وتذريها عندما يقترب شتاء الحياة .

واختفى فارس كرامه وراء مصراعي الباب وخرجت انا من تلك الحديقة وصوت سلمى يتموج في اذني ، وجمالها يسير كالخيال امام عيني ، ودموع والدها تجف ببطء على يدي . خرجت من ذلك المكان خروج آدم من الفردوس ، ولكن حواء هذا القلب لم تكن بجانبي لتجعل العالم كله فردوساً ... خرجت شاعراً بان تلك الليلة التي ولدت فيها ثانية هي الليلة التي لمحت فيها وجه الموت لأول مرة .

كذا تحيي الشمس الحقول بحرارتها ، وبحرارتها تميتها .

بحيرة النار

كل ما يفعله الانسان سرّاً في ظلمة الليل يظهره الانسان علناً في نور النهار . الكلمات التي تهمسها شفاهنا في السكينة تصير على غير معرفة منا حديثاً عمومياً ، والاعمال التي نحاول اليوم اخفاءها في زوايا المنازل تتجسم غداً وتنتصب في منعطفات الشوارع .

كذا اعلنت اشباح الدجى مقاصد المطران بولس غالب من اجتماعه بفارس كرامه ، وهكذا حملت دقائق الاثير اقواله واحاديثه الى احياء المدينة حتى بلغت مسمعي .

ما طلب المطران بولس غالب مقابلة فارس كرامه في تلك الليلة المقمرة ليفاوضه بشؤون الفقراء والمعوزين او يخابره بأمور الارامل والايتام ، بل أحضره بمركبته الخصوصية الفخمة ليطلب منه ابنته سلمى عروساً لابن اخيه منصور بك غالب .

كان فارس كرامه رجلاً غنياً ولم يكن له وارث سوى ابنته سلمى ، وقد اختارها المطران زوجة لابن اخيه ، لا لجمال وجهها ونبالة روحها بل لأنها غنية موسرة تكفل بأموالها الطائلة مستقبل منصور بك وتساعده بأملاكها الوسيعة على ايجاد مقام رفيع بين الخاصة والاشراف .

ان رؤساء الدين في الشرق لا يكتفون بما يحصلون عليه أنفسهم

من المجد والسؤدد بل يفعلون كل ما في وسعهم ليجعلوا انسباءهم في مقدمة الشعب ومن المستبدين به والمستدرين قواه وأمواله . ان مجد الامير ينتقل بالارث الى ابنه البكر بعد موته ، اما مجد الرئيس الديني فينتقل بالعدوى الى الاخوة وابناء الاخوة في حياته . وهكذا يصبح الاسقف المسيحي والامام المسلم والكاهن البرهمي كأفاعي البحر التي تقبض على الفريسة بمقابض كثيرة وتمتص دماءها بأفواه عديدة .

عندما طلب المطران بولس يد سلمى من والدها لم يجبه ذلك الشيخ بغير السكوت العميق والدموع السخينة . وأي والد لا يشق عليه فراق ابنته حتى ولو كانت ذاهبة الى بيت جاره او الى قصر ملك ؟ اي رجل لا ترتعش اعماق نفسه بالغصّات عندما يفصله ناموس الطبيعة عن الابنة التي لاعبها طفلة وهذبها صبية ورافقها امرأة ؟ ان كآبة الوالدين لزواج الابنة يضارع فرحهما بزواج الابن ، لان هذا يكسب العائلة عضواً جديداً اما ذاك فيسلبها عضواً قديماً عزيزاً — اجاب الشيخ طلب المطران مضطراً وانحنى امام مشيئته قهراً عما في داخل نفسه من الممانعة ، وكان قد اجتمع بابن اخيه منصور بك وسمع الناس يتحدثون عنه فعرف خشونته وطمعه وانحطاط اخلاقه ، ولكن اي مسيحي يقدر ان يقاوم اسقفاً في سوريا ويبقى محسوباً بين المؤمنين ؟ اي رجل يخرج عن طاعة رئيس دينه في الشرق ويظل كريماً بين الناس ؟ أتعاند العين سهماً ولا تفقر او تناضل اليد سيفاً ولا تقطع ؟ وهب ان ذلك الشيخ كان قادراً على مخالفة المطران بولس والوقوف امام مطامعه فهل تكون سمعة ابنته في مأمن من

الظنون والتآويل ، وهل يظل اسمها نقياً من اوساخ الشفاه والألسنة؟ أو ليست جميع العناقيد العالية حامضة في شرع بنات آوى ؟

هكذا قبض القدر على سلمى كرامه وقادها عبدةً ذليلة في موكب النساء الشرقيات التاعسات ، وهكذا سقطت تلك الروح النبيلة بالحبائل بينما كانت تسبح لأول مرة على اجنحة الحب البيضاء في فضاء تملأه اشعة القمر وتعطره رائحة الازاهر .

ان اموال الآباء تكون في اكثر المواطن مجلبةً لشقاء البنين . تلك الخزائن الوسيعة التي يملأها نشاط الوالد وحرص الأم تنقلب حبوساً ضيقة مظلمة لنفوس الورثة . ذلك الاله العظيم الذي يعبده الناس بشكل الدينار ينقلب شيطاناً مخيفاً يعذب النفوس ويميت القلوب . وسلمى كرامه هي كالكثيرات من بنات جنسها اللواتي يذهبن ضحية ثروة الوالد واماني العريس . فلو لم يكن فارس كرامه رجلاً غنياً لكانت سلمى اليوم حية تفرح مثلنا بنور الشمس .

مرّ اسبوع وحب سلمى يجالسني في المساء منشداً على مسمعي اغاني السعادة وينبهني عند الفجر ليريني معاني الحياة واسرار الكيان . حبّ علويّ لا يعرف الحسد لأنه غني ، ولا يوجع الجسد لأنه في داخل الروح . ميل قوي يغمر النفس بالقناعة . مجاعة عميقة تملأ القلب بالاكتفاء . عاطفة تولد الشوق ولكنها لا تثيره . فتون جعلني أرى الارض نعيماً والعمر حلماً جميلاً . فكنت اسير صباحاً في الحقول وأرى في يقظة الطبيعة رمز الخلود ، واجلس على شاطىء البحر واسمع من امواجه اغاني الابدية وامشي في شوارع المدينة وأجد في طلعات العابرين وحركات المشتغلين محاسن الحياة وبهجة العمران .

تلك ايام مضت كالاشباح واضمحلت كالضباب ولم يبقَ لي منها سوى الذكرى الأليمة ، فالعين التي كنت ارى بها جمال الربيع ويقظة الحقول لم تعد تحدق الى غير غضب العواصف ويأس الشتاء . والأذن التي كنت اسمع بها اغنية الامواج لم تعد تصغي لغير أنة الاعماق وعويل الهاوية . والنفس التي كانت تقف متهيبة امام نشاط البشر ومجد العمران لم تعد تشعر بغير شقاء الفقر وتعاسة الساقطين . فما احلى ايام الحب وما اعذب احلامها وما امرّ ليالي الحزن وما اكثر مخاوفها !

وفي نهاية الاسبوع وقد سكرت نفسي بخمرة عواطفي سرت مساء الى منزل سلمى كرامه ، ذلك الهيكل الذي اقامه الجمال وقدسه الحب لتسجد فيه النفس مصلية ويركع القلب خاشعاً ، ولما بلغته ودخلت الى تلك الحديقة الهادئة احسستُ بوجود قوة تستهويني وتستميلني وتبعدني عن هذا العالم وتدنيني ببطء الى عالم سحري خالٍ من العراك والجهاد ، ومثل متصوف جذبته السماء الى مسارح الرؤيا وجدتني سائراً بين تلك الاشجار المحتبكة والزهور المتعانقة ، حتى اذا ما اقتربت من باب الدار التفتُ واذا بسلمى جالسة على ذلك المقعد بظلال شجرة الياسمين حيث جلسنا منذ اسبوع في تلك الليلة التي اختارتها الآلهة من بين الليالي وجعلتها بدء سعادتي وشقائي ، فدنوت منها صامتاً فلم تتحرك ولم تتكلم كأنها علمت بقدومي قبل قدومي . ولما جلست بجانبها حدقت الى عينيَّ دقيقة وتنهدت تنهدة طويلة عميقة ثم عادت فنظرت الى الشفق البعيد حيث تعبث اوائل الليل بأواخر النهار . وبعد هنيهة

مملوءة بتلك السكينــة السحرية التي تضم نفوسنا الى مواكب الأرواح غير المنظورة ، حوّلت سلمى وجهها نحوي واخذت يدي بيد مرتعشة باردة ، وبصوت يشابه تأوّه جائع لا يقوى على الكلام قالت :

انظر الى وجهي يا صديقي ، انظر الى وجهي جيداً وتأملـه طويلاً واقرأ فيه كل ما تريد ان تفهمه مني بالكـلام ... انظر الى وجهي يا حبيبي .. انظر جيداً يا اخي .

فنظرت الى وجهها ، نظرت طويلاً ، فرأيت تلك الأجفان التي كانت منذ ايام قليلة تبتسم كالشفاه وتتحرك كأجنحة الشحرور قد غارت وجمدت واكتحلت بخيالات التوجع والألم . رأيت تلك البشرة التي كانت بالأمس مثل ثنايا الزنبقة البيضاء الفرحة بقبلات الشمس ، قـد اصفرت وذبلت وتبرقعت بنقـاب القنوط . رأيت الشفتين اللتين كانتا كزهرة اقاح تسيل عليها الحلاوة قـد يبستا وصارتا كوردتين مرتجفتين أبقاهما الخريف على طرف الغصن . رأيت العنق الذي كان مرفوعاً كعمود العاج قد انحنى الى الأمام كأنه لم يعد قادراً على حمل مـا يجول في تلافيف الرأس .

رأيت هـذه الانقلابات الموجعة في ملامح سلمى ، رأيتها جميعهـا ولكنها لم تكن في نظري إلا كسحابة رقيقة توشح القمر فتزيد منظره حسناً وهيبـةً . إن الملامح التي تبيح اسرار الذات المعنوية تكسب الوجه جمالاً وملاحة مهمـا كانت تلك الاسرار موجعة وأليمة . أمـا الوجوه التي لا تتكلم بصمتها عن غوامض النفس وخفايـاهـا فلا تكون جميلة مهما كانت متناسقة الخطوط متناسبة الأعضاء . إن الكؤوس لا

تستميل شفاهنا حتى يشف بلورها عن لون الخمر . فسلمى كرامه كانت في عشية ذلك النهار مثل كأس طافحة من خمرة علوية تمتزج بدقائقها مرارة العيش بحلاوة النفس . كانت تمثل على غير معرفة منها حياة المرأة الشرقية التي لا تغادر منزل والدها المحبوب الا لتضع عنقها تحت نير زوجها الخشن ... ولا تترك ذراعي امها الرؤوف الا لتعيش في عبودية والدة زوجها القاسية .

وبقيت محدقاً الى وجه سلمى مصغياً لأنفاسها المتقطعة صامتاً مفكراً شاعراً متألماً معها ولها ، حتى أحسست ان الزمن قد وقف عن مسيره والوجود قد انحجب واضمحل ولم اعد أرى سوى عينين كبيرتين محدقتين الى أعماقي ، ولا اشعر بغير يدٍ باردة مرتعشة تضم يدي . ولم افق من هذه الغيبوبة حتى سمعت سلمى تقول بهدوء : تعالَ نتحدث الآن يا صديقي . تعال نحاول تصوير المستقبل قبل ان يحمل علينا بمخاوفه واهواله . لقد ذهب والدي الى منزل الرجل الذي سيكون رفيقاً لي حتى القبر . قد ذهب الرجل الذي اختارته السماء سبباً لوجودي ليلتقي الرجل الذي انتقته الارض سيداً على ايامي الآتية . ففي قلب هذه المدينة يجتمع الآن الشيخ الذي رافق شبيبتي بالشاب الذي سيرافق ما بقي لي من السنين ، وفي هذه الليلة يتفق الوالد والخطيب على يوم القران الذي سيكون قريباً مهما جعلاه بعيداً ، فما أغرب هذه الساعة وما اشد تأثيرها ! في مثل هذه الليلة من الاسبوع الغابر ، وفي ظلال هذه الياسمينة قد عانق الحب روحي لأول مرة ، بينما كان القدر يخط اول كلمة من حكاية مستقبلي في دار المطران بولس غالب . وفي هذه

الساعة وقد جلس والدي وخطيبي ليضفرا اكليل زواجي ، اراك جالساً بجانبي واشعر بنفسك متموجة حولي كطائر ظامىء يحوم مرفرفاً فوق ينبوع ماء يخفره ثعبان جائع مخيف ، فما اعظم هذه الليلة وما اعمق اسرارها !

فاجبتها وقد تخيلت القنوط شبحاً مظلماً قابضاً على عنق حبنا ليميته في طفوليته : سيظل هذا الطائر حائماً مرفرفاً فوق الينبوع حتى يضنيه العطش فيرديه او يقبض عليه الثعبان المخيف فيمزقه ويلتهمه .

فقالت متأثرة وصوتها يرتجف كالأوتار الفضية : لا ، لا يا صديقي ، فليبقَ هذا الطائر حياً ، ليبقَ هذا البلبل مغرداً حتى المساء ، حتى ينتهي الربيع ، حتى ينتهي العالم ، حتى تنتهي الدهور . لا تخرسه لان صوته يحييني ، ولا توقف جناحيه لأن حفيفهما يزيل الضباب عن قلبي .

فهمست متنهداً : الظمأ يقتله يا سلمى والخوف يميته .

فأجابت والكلام يتدفق بسرعة من بين شفتيها المرتعشتين : ان ظمأ الروح اعظم من ارتواء المادة ، وخوف النفس أحب من طمأنينة الجسد ... ولكن اسمع يا حبيبي ، اسمعني جيداً ، انا واقفة الآن في باب حياة جديدة لا اعرف عنها شيئاً . انا مثل عمياء تتلمس بيدها الجدران مخافة السقوط . انا جارية انزلني مال والدي الى ساحة النخاسين فابتاعني رجل من بين الرجال . انا لا احب هذا الرجل لأنني اجهله ، وانت تعلم ان المحبة والجهالة لا تلتقيان، ولكنني سوف اتعلم محبته . سوف اطيعه واخدمه واجعله سعيداً . سوف اهبه كل ما تقدر المرأة الضعيفة ان تهب الرجل القوي . اما أنت فلم تزل في

ربيع العمر ، امامك الحياة طريقاً وسيعة مفروشة بالأزهار والرياحين . سوف تخرج الى ساحة العالم حاملاً قلبك مشعلاً متقداً . سوف تفكر بحرية وبحرية تتكلم وتفعل . سوف تكتب اسمك على وجه الحياة لأنك رجل سوف تعيش سيداً ، لأن فاقة والدك لا تجعلك عبداً ، وامواله لا تنزل بك الى سوق النخاسين حيث تباع البنات وتشرى . سوف تقترن بالصبية التي تختارها نفسك من بين الصبايا فتسكنها صدرك قبل ان تسكنها منزلك، وتشاركها بأفكارك قبل ان تساهمها الأيام والليالي .

وسكتت دقيقة كيما تسترجع انفاسها ، ثم زادت بصوت تتابعه الغصات : ولكن اههنا تفرقنا سبل الحياة لتذهب بك الى امجاد الرجل وتسير بي الى واجبات المرأة ؟ اهكذا ينقضي الحلم الجميل وتندثر الحقيقة العذبة ؟ اهكذا تبتلع اللجة نغمة الشحرور وتنثر الرياح اوراق الوردة وتسحق الأقدام كأس الخمر ؟ أباطلاً اوقفتنا تلك الليلة أمام وجه القمر وباطلاً ضمنا الروح في ظلال هذه الياسمينة ؟ هل تسرعنا بالصعود نحو الكواكب فكلت اجنحتنا وهبطت بنا الى الهاوية ؟ هل فاجأنا الحب نائماً فاستيقظ غاضباً ليعاقبنا ، ام هيجت انفاسنا نسمات الليل فانقلبت ريحاً شديدة لتمزقنا وتجرفنا كالغبار الى اعماق الوادي ؟ لم نخالف وصية ولم نذق ثمراً فكيف نخرج من هذه الجنة ؟ لم نتآمر ولم نتمرد فلماذا نهبط الى الجحيم ! لا لا والف لا ولا . ان الدقائق التي جمعتنا هي أعظم من الاجيال ، والشعاع الذي انار نفسينا هو اقوى من الظلام ، فان فرقتنا العاصفة على وجه هذا البحر الغضوب

فالامواج تجمعنا على ذلك الشاطئ الهادىء ، وان قتلتنا هذه الحياة فذاك الموت يحيينا .

ان قلب المرأة لا يتغير مع الزمن ولا يتحول مع الفصول . قلب المرأة ينازع طويلاً ولكنه لا يموت . قلب المرأة يشابه البرية التي يتخذها الانسان ساحة لحروبه ومذابحه ، فهو يقتلع أشجارها ويحرق أعشابها ويلطخ صخورها بالدماء ويغرس تربتها بالعظام والجماجم ، ولكنها تبقى هادئة ساكنة مطمئنة ويظل فيها الربيع ربيعاً والخريف خريفاً الى نهاية الدهور ... والآن قضي الامر فماذا نفعل ؟ قل لي ماذا نفعل وكيف نفترق ومتى نلتقي ؟ هل نحسب الحب ضيفاً غريباً أتى به المساء وأبعده الصباح ؟ أنحسب هذه العاطفة النفسية حلماً أبانه الكرى ثم أخفته اليقظة ؟ أنحسب هذا الاسبوع ساعة سكر ما لبثت أن قضت بالصحو والانتباه ؟ ... ارفع رأسك لأرى عينيك يا حبيبي . افتح شفتيك لأسمع صوتك . تكلم ، اخبرني ، حدثني ، هل تذكرني بعد ان تغرق العاصفة سفينة ايامنا ؟ هل تسمع حفيف اجنحتي في سكينة الليل ؟ هل تشعر بأنفاسي متموجة على وجهك وعنقك ؟ هل تصغي لتنهداتي متصاعدة بالتوجع منخفضة بالغصات ؟ وهل ترى خيالي قادماً مع خيالات الظلام مضمحلاً مع ضباب الصباح ؟ قل لي يا حبيبي ، قل لي ماذا تكون لي بعد ان كنت نوراً لعيني ونغمة لأذني وجناحاً لروحي ، ماذا تكون ؟

فاجبتها وحبات قلبي تذوب في عينيَّ : سأكون لك يا سلمى مثلما تريدينني ان اكون .

فقالت : اريدك ان تحبني . اريدك ان تحبني الى نهاية ايامي . اريدك ان تحبني مثلما يحب الشاعر افكاره المحزنة . اريدك ان تذكرني مثلما يذكر المسافر حوض ماء هادىء رأى فيه خيال وجهه قبل ان يشرب من مائه . واريدك ان تذكرني مثلما تذكر الأم جنيناً مات في احشائها قبل ان يرى النور . واريدك ان تفكر بي مثلما يفكر الملك الرؤوف بسجين مات قبل ان يبلغه عفوه . اريدك ان تكون لي اخاً وصديقاً ورفيقاً . اريدك ان تزور والدي في وحدته وتعزيه في انفراده ، لأنني عما قريب سأتركه واصير غريبة عنه .

فأجبتها : سأفعل كل ذلك يا سلمى . سوف اجعل روحي غلافاً لروحك ، وقلبي بيتاً لجمالك ، وصدري قبراً لأحزانك . سوف احبك يا سلمى محبة الحقول للربيع . سوف احيا بك حياة الازاهر بحرارة الشمس . سوف اترنم باسمك مثلما يترنم الوادي بصدى رنين الاجراس المتمايلة فوق كنائس القرى . سوف اصغي لأحاديث نفسك مثلما تصغي الشواطىء لحكاية الأمواج . . . سأذكرك يا سلمى مثلما يذكر الغريب المستوحش وطنه المحبوب ، والفقير الجائع مائدة الطعام الشهية ، والملك المخلوع ايام عزه ومجده ، والاسير الكئيب ساعات الحرية والطمأنينة . سوف افكر بك مثلما يفكر الزارع بأغمار السنابل وغلة البيادر ، والراعي الصالح بالمروج الخضراء والمناهل العذبة .

كنتُ اتكلم وسلمى تنظر الى اعماق الليل وتتأوه بين الآونة والأخرى ، ونبضات قلبها تتسارع وتتماهل كأنها امواج بحر بين

صعود وهبوط . ثم قالت : غداً تصير الحقيقة خيالاً واليقظة حلماً ، فهل يكتفي المشتاق بعناق الخيال ويرتوي الظمآن من جداول الاحلام ؟

فأجبتها قائلاً : غداً يسير بك القدر الى أحضان العائلة المملوءة بالراحة والهدوء ، ويسير بي الى ساحة العالم حيث الجهاد والقتال . أنتِ الى منزل رجل يسعد بجمالك وطهر نفسك ، وانا الى مكامن أيام تعذبني بأحزانها وتخيفني بأشباحها . أنتِ الى الحياة وأنا الى النزاع . أنتِ الى الأنس والالفة وأنا الى الوحشة والانفراد . ولكنني سأرفع في وادي ظل الموت تمثالاً للحب وأعبده . سأتخذ الحب سميراً وأسمعه منشداً وأشربه خمراً وألبسه ثوباً . عند الفجر سينبهني الحب من رقادي ويسير امامي الى البرية البعيدة . وعند الظهيرة سيقودني الى ظل الاشجار فأربض مع العصافير المحتمية من حرارة الشمس . وفي المساء سيوقفني امام المغرب ويسمعني نغمة وداع الطبيعة للنور ويريني اشباح السكينة سابحة في الفضاء . وفي الليل سيعانقني فأنام حالماً بالعوالم العلوية حيث تقطن ارواح العشاق والشعراء . في الربيع سأمشي والحب جنباً لجنب ، مترنمين بين التلول والمنحدرات متبعين آثار اقدام الحياة المخططة بالبنفسج والأقحوان ، شاربين بقايا الامطار بكؤوس النرجس والزنبق . وفي الصيف سأتكىء والحب ساندين رأسينا الى اغمار القش مفترشين الأعشاب ملتحفين السماء ساهرين مع القمر والنجوم . وفي الخريف سأذهب والحب الى الكروم فنجلس بقرب المعاصر ناظرين الى الأشجار وهي تخلع اثوابها المذهبة متأملين بأسراب الطيور الراحلة الى الساحل . وفي الشتاء سأجلس والحب

بقرب الموقد تالين حكايات الأجيال مرددين اخبار الأمم والشعوب وفي ايام الشبيبة سيكون لي الحب مهذباً وفي الكهولة عضداً وفي الشيخوخة مؤنساً . سيظل الحب معي يا سلمى الى نهاية العمر ، الى ان يجيء الموت ، الى ان تجمعني بك قبضة الله .

كانت الالفاظ تتصاعد مسرعةً من أعماق نفسي كأنها شعلات من نار تنمو وتتطاير ثم تتبدد وتضمحل في زوايا تلك الحديقة ، وكانت سلمى مصغية والدموع تنهمر من عينيها كأن أجفانها شفاه تجيبني بالدموع على الكلام .

ان الذين لم يهبهم الحب أجنحة لا يستطيعون أن يطيروا الى ما وراء الغيوم ليروا ذلك العالم السحري الذي طافت فيه روحي وروح سلمى في تلك الساعة المحزنة بأفراحها المفرحة بأوجاعها . ان الذين لم يتخذهم الحب اتباعاً لا يسمعون الحب متكلماً ، فهذه الحكاية لم تكتب لهم ؛ فهم وان فهموا معاني هذه الصفحات الضئيلة لا يمكنهم ان يروا ما يسيل بين سطورها من الاشباح والأخيلة التي لا تلبس الحبر ثوباً ولا تتخذ الورق مسكناً . لكن أي بشري لم يرشف من خمرة الحب في احدى كاساته ؟ أية نفس لم تقف متهيبة في ذلك الهيكل المنير المرصوف بحبات القلوب المسقوف بالاسرار والاحلام والعواطف ؟ أي زهرة لم يسكب الصباح قطرة من الندى بين أوراقها ؟ واي ساقية تضلّ طريقها ولا تذهب الى البحر ؟

ورفعت سلمى اذ ذاك رأسها نحو السماء المزينة بالكواكب ومدت يديها الى الأمام وكبرت عيناها وارتجفت شفتاها وظهر على

وجهها المصفر كل ما في نفس المرأة المظلومة من الشكوى والقنوط والألم، ثم صرخت قائلة: ماذا فعلت المرأة يا رب فاستحقت غضبك؟ ماذا أتت من الذنوب ليتبعها سخطك الى آخر الدهور؟ هل اقترفت جرماً لا نهاية لفظاعته ليكون عقابك لها بغير نهاية؟ انت قوي يا رب وهي ضعيفة فلماذا تبيدها بالأوجاع؟ انت عظيم وهي تدب حول عرشك فلماذا تسحقها بقدميك؟ انت عاصفة شديدة وهي كالغبار امام وجهك فلماذا تذريها على الثلوج؟ انت جبّار وهي بائسة فلماذا تحاربها؟ انت بصير عليم وهي تائهة عمياء فلماذا تهلكها؟ انت توجدها بالمحبة فكيف بالمحبة تفنيها؟ بيمينك ترفعها اليك وبشمالك تدفعها الى الهاوية وهي جاهلة لا تدري انّى ترفعها وكيف تدفعها؟ في فمها تنفخ نسمة الحياة وفي قلبها تزرع بزور الموت. على سبل السعادة تسيّرها راجلة ثم تبعث الشقاء فارساً ليصطادها. في حنجرتها تبث نغمة الفرح ثم تغلق شفتيها بالحزن وتربط لسانها بالكآبة. باصابعك الخفية تمنطق باللذة اوجاعها وبأصابعك الظاهرة ترسم هالات الاوجاع حول ملذاتها. في مضجعها تخفي الراحة والسلامة وبجانب مضجعها تقيم المخاوف والمتاعب. بارادتك تحيي ميولها ومن ميولها تتولد عيوبها وزلاتها. بمشيئتك تريها محاسن مخلوقاتك وبمشيئتك تنقلب محبتها للحسن مجاعة مهلكة. بشريعتك تزوج روحها من جسد جميل وبقضائك تجعل جسدها بعلاً للضعف والهوان. انت تسقيها الحياة بكأس الموت والموت بكأس الحياة. انت تطهرها بدموعها وبدموعها تذيبها. انت تملأ جوفها من خبز الرجل ثم تملأ حفنة الرجل من حبات صدرها. انت انت يا رب

قد فتحت عينيَّ بالمحبة وبالمحبة اعميتني . انت قبلتني بشفتيك وبيدك القوية صفعتني . انت زرعت في قلبي وردة بيضاء وحول هذه الوردة انبتَّ الأشواك والحسك . انت اوثقت حاضري بروح فتى احبه وبجسد رجل لا أعرفه . قيدت ايامي فساعدني لأكون قوية في هذا الصراع المميت واسعفني لأبقى امينة وطاهرة حتى الموت . . . لتكن مشيئتك يا رب . ليكن اسمك مباركاً الى النهاية .

وسكتت سلمى وظلت ملامحها تتكلم ، ثم حنت رأسها وأرخت ذراعيها وانخفض هيكلها كأن القوى الحيوية قد تركتها فبانت لناظري كغصن قصفته العاصفة وألقته الى الحضيض ليجف ويندثر تحت اقدام الدهر . فأخذت يدها المثلجة بيدي الملتهبة وقبلت اصابعها بأجفاني وشفتيَّ ، ولما حاولت تعزيتها بالكلام وجدتني أحرى منها بالتعزية والشفقة ، فبقيت صامتاً حائراً متأملاً شاعراً بتلاعب الدقائق بعواطفي ، مصغياً لأنّة قلبي في داخلي ، خائفاً من نفسي على نفسي .

ولم ينبس احدنا ببنت شفة في ما بقي من تلك الليلة ، لان اللوعة اذا عظمت تصير خرساء ، فبقينا ساكتين جامدين كعمودي رخام قبرهما الزلزال في التراب . ولم يعد احدنا يريد ان يسمع الآخر متكلماً ، لأن خيوط قلبينا قد وهت حتى صار التنهد دون الكلام يقطعها .

انتصف الليل ونمت رهبة السكوت وطلع القمر ناقصاً من وراء صنين وبان بين النجوم كوجه ميت شاحب غارق في المساند السوداء بين شموع ضئيلة تحيط بنعشه . وظهر لبنان كشيخ لوت ظهره

الاعوام واناخت هيكله الاحزان وهجر اجفانه الرقاد فبات يساهر الدجى ويترقب الفجر كملك مخلوع جالس على رماد عرشه بين خرائب قصره . ان الجبال والاشجار والانهار تتبدل هيئاتها ومظاهرها بتقلب الحالات والازمنة مثلما تتغير ملامح وجه الانسان بتغيير افكاره وعواطفه ، فشجرة الحور التي تتعالى في النهار كعروس جميلة يلاعب النسيم اثوابها تظهر في المساء كعمود دخان يتصاعد نحو اللاشيء. والصخر الكبير الذي يجلس عند الظهيرة كجبّار قوي يهزأ بعاديات الزمن يبدو في الليل كفقير بائس يفترش الثرى ويلتحف الفضاء . والساقية التي نراها عند الصباح متلمعة كذوب اللجين ونسمعها مترنمة باغنية الخلود نخالها في المساء مجرى دموع يتفجر من بين اضلع الوادي ونسمعها تندب وتنوح كالثكلى . ولبنان الذي ظهر منذ اسبوع بكل مظاهر الجلال والرونق عندما كان القمر بدراً والنفس راضية قد بان في تلك الليلة كئيباً منهوكاً مستوحشاً امام قمر ضئيل ناقص هائم في عرض السماء وقلب خافق معتل في داخل الصدر .

وقفنا للوداع وقد وقف بيننا الحب واليأس شبحين هائلين ، هذا باسط جناحيه فوق رأسينا وذاك قابض بأظافره على عنقينا . هذا يبكي مرتاعاً وذاك يضحك ساخراً . ولما اخذت يد سلمى ووضعتها على شفتيّ متبركاً دنت مني ولثمت مفرق شعري ، ثم عادت فارتمت على المقعد الخشبي واطبقت اجفانها وهمست ببطء : اشفق يا رب وشدد جميع الاجنحة المتكسرة .

انفصلتُ عن سلمى وخرجت من تلك الحديقة شاعراً بنقاب

كثيف يوشي مداركي الحسية مثلما يغمر الضباب وجه البحيرة . وسرت وأخيلة الاشجار القائمة على جانبي الطريق تتحرك امامي كأنها اشباح قد انبثقت من شقوق الارض لتخيفني ، واشعة القمر الضعيفة ترتعش بين الغصون كأنها سهام دقيقة ترشها ارواح الجان السابحة بالفضاء نحو صدري ، والسكينة العميقة تخيم عليّ كأنها اكف سوداء ثقيلة ألقتها الظلمة على جسدي .

كل ما في الوجود وكل معنى في الحياة وكل سر في النفس قد صار قبيحاً رهيباً هائلاً ، فالنور المعنوي الذي اراني جمال العالم وبهجة الكائنات قد انقلب ناراً تحرق كبدي بلهيبها وتستر نفسي بدخانها . والنغمة التي كانت تضم اليها اصوات المخلوقات وتجعلها نشيداً علوياً قد استحالت في تلك الساعة الى ضجيج اروع من زمجرة الاسد واعمق من صراخ الهاوية .

بلغتُ غرفتي وارتميت على فراشي كطائر رماه الصياد فسقط بين السياج والسهم في قلبه ، وظلت عاقلتي تراوح بين يقظة مخيفة ونوم مزعج ، وروحي في داخلي تردد في الحالتين كلمات سلمى : اشفق يا رب وشدد جميع الاجنحة المتكسرة .

امام عرش الموت

انما الزيجة في ايامنا هذه تجارة مضحكة مبكية يتولى امورها الفتيان وآباء الصبايا ، الفتيان يربحون في اكثر المواطن والآباء يخسرون دائماً ، أما الصبايا المنتقلات كالسلع من منزل الى آخر فتزول بهجتهن ، ونظير الامتعة العتيقة يصير نصيبهن زوايا المنازل حيث الظلمة والفناء البطيء.

ان المدنية الحاضرة قد انمت مدارك المرأة قليلاً ولكنها اكثرت اوجاعها بتعميم مطامع الرجل . كانت المرأة بالأمس خادمة سعيدة فصارت اليوم سيدة تعسة . كانت بالأمس عمياء تسير في نور النهار فأصبحت مبصرة تسير في ظلمة الليل . كانت جميلة بجهلها فاضلة ببساطتها قوية بضعفها فصارت قبيحة بتفننها سطحية بمداركها بعيدة عن القلب بمعارفها . فهل يجيء يوم يجتمع في المرأة الجمال بالمعرفة ، والتفنن بالفضيلة ، وضعف الجسد بقوة النفس ؟ انا من القائلين ان الارتقاء الروحي سنّة في البشر ، والتقرب من الكمال شريعة بطيئة لكنها فعّالة ، فاذا كانت المرأة قد ارتقت بشيء وتأخرت بشيء آخر فلأن العقبات التي تبلغنا قمة الجبل لا تخلو من مكامن اللصوص وكهوف الذئاب . ففي هذا الجبل الشبيه بالغيبوبة التي تتقدم اليقظة – في هذا الجبل القابض بكفيه على تراب الاجيال الغابره وبزور الاجيال الآتية – في هذا الجبل الغريب بميوله وأمانيه لا تخلو مدينة من

امرأة ترمز بوجودها عن ابنة المستقبل . وسلمى كرامه كانت في بيروت رمز المرأة الشرقية العتيدة ، ولكنها كالكثيرين الذين يعيشون قبل زمانهم قد ذهبت ضحية الزمن الحاضر ، ونظير زهرة اختطفها تيار النهر قد صارت قهراً في موكب الحياة نحو الشقاء .

وتزوج منصور بك غالب من سلمى فسكنا معاً في منزل فخم قائم على شاطىء البحر في رأس بيروت حيث يقطن وجهاء القوم والأغنياء ، وبقي فارس كرامه وحده في ذلك البيت المنفرد بين الحدائق والبساتين انفراد الراعي بين اغنامه . ومضت ايام العرس وانقضت ليالي الأفراح ، ومرّ الشهر الذي يدعوه الناس عسلاً تاركاً وراءه شهور الخل والعلقم مثلما تترك امجاد الحروب جماجم القتلى في البرية البعيدة ... ان بهرجة الاعراس الشرقية تصعد بنفوس الفتيان والصبايا صعود النسر الى ما وراء الغيوم ثم تهبط بهم هبوط حجر الرحى الى اعماق اليمّ ، بل هي مثل آثار الأقدام على رمال الشاطىء لا تلبث ان تمحوها الامواج .

وذهب الربيع وتلاه الصيف وجاء الخريف ومحبتي لسلمى تتدرج من شغف فتىً في صباح العمر بامرأة حسناء الى نوع من تلك العبادة الخرساء التي يشعر بها الصبي اليتيم نحو روح امه الساكنة في الأبدية ، فالصبابة التي كانت تمتلك كليتي قد تحوّلت الى كآبة عمياء لا ترى غير نفسها ، والولع الذي كان يستدر الدموع من عينيّ قد انقلب ولهاً يستقطر الدم من قلبي ، وأنّة الحنين التي كانت تملأ ضلوعي اصبحت صلاة عميقة تقدمها روحي في السكينة امام السماء مستمدة السعادة لسلمى والغبطة لبعلها والطمأنينة لوالدها ، ولكن باطلاً كنت اشفق وابتهل واصلي لان

تعاسة سلمى كانت علة في داخل النفس لا يشفيها سوى الموت . اما بعلها فكان من اولئك الرجال الذين يحصلون بغير تعب على كل ما يجعل الحياة هنيئة ولا يقنعون بل يطمحون دائماً الى ما ليس لهم ، وهكذا يظلون معذبين بمطامعهم الى نهاية ايامهم . وباطلاً كنت ارجو الطمأنينة لفارس كرامه لان صهره لم يستلم يد ابنته ويحصل على اموالها الطائلة حتى نسيه وهجره بل صار يطلب حتفه توصلاً الى ما بقي من ثروته .

كان منصور بك شبيهاً بعمه المطران بولس غالب ، وكانت اخلاقه كأخلاقه ، ونفسه صورة مصغرة لنفسه ، ولم يكن الفرق بينهما الا بما يفرق الرياء عن الانحطاط . كان المطران يبلغ امانيه مستتراً بأثوابه البنفسجية ويشبع مطامعه محتمياً بالصليب الذهبي المعلق على صدره ، اما ابن اخيه فكان يفعل كل ذلك جهاراً وعنوة . كان المطران يذهب الى الكنيسة في الصباح ويصرف ما بقي من النهار منتزعاً الأموال من الأرامل واليتامى وبسطاء القلب ، اما منصور بك فكان يقضي النهار كله متبعاً ملذاته ملاحقاً شهواته في تلك الازقة المظلمة حيث يختمر الهواء بأنفاس الفساد .

كان المطران يقف يوم الاحد امام المذبح ويعظ المؤمنين بما لا يتعظ به ويصرف ايام الاسبوع مشتغلاً بسياسة البلاد ، اما ابن اخيه فكان يصرف جميع ايامه متاجراً بنفوذ عمه بين طالبي الوظائف ومريدي الوجاهة . كان المطران لصاً يسير محتبئاً بستائر الليل ، اما منصور بك فكان محتالاً يمشي بشجاعة في نور النهار .

كذا تبيد الشعوب بين اللصوص والمحتالين مثلما تفنى القطعان بين انياب الذئاب وقواطع الجزارين ، وهكذا تستسلم الامم الشرقية الى ذوي النفوس المعوجة والاخلاق الفاسدة فتتراجع الى الوراء ثم تهبط الى الحضيض فيمر الدهر ويسحقها بأقدامه مثلما تسحق مطارق الحديد آنية الفخار ...

وماذا يا ترى يجعلني الآن اشغل هذه الصفحات بالكلام عن امم بائسة يائسة وانا قد خصصتها لتدوين حكاية امرأة تاعسة وتصوير خيالات قلب وجيع لم يلمسه الحب بأفراحه حتى صفعه بأحزانه ؟ .. لماذا تراود الدموع اجفاني لذكر شعوب خاملة مظلومة وانا قد وقفت دموعي على ذكرى ايام امرأة ضعيفة لم تعانق الحياة حتى احتضنها الموت ، ولكن أليست المرأة الضعيفة هي رمز الأمة المظلومة ؟ أليست المرأة المتوجعة بين ميول نفسها وقيود جسدها هي كالأمة المتعذبة بين حكامها وكهانها؟ اوليست العواطف الخفية التي تذهب بالصبية الجميلة الى ظلمة القبر هي كالعواصف الشديدة التي تغمر حياة الشعوب بالتراب ؟ ان المرأة من الأمة بمنزلة الشعاع من السراج ، وهل يكون شعاع السراج ضئيلاً اذا لم يكن زيته شحيحاً ؟

*

مضت ايام الخريف وعرّت الرياح الاشجار متلاعبة بأوراقها الصفراء مثلما تداعب الأنواء زبد البحر ، وجاء الشتاء باكياً منتحباً وانا في بيروت ولا رفيق لي سوى أحلام تتصاعد بنفسي تارة فتبلغها الكواكب ، وتنخفض بقلبي طوراً فتلحده بجوف الارض .

ان النفس الكئيبة تجد راحة بالعزلة والانفراد فتهجر الناس مثلما يبتعد الغزال الجريح عن سربه ويتوارى في كهفه حتى يبرأ او يموت .

فذات يوم سمعت باعتلال فارس كرامه ، فتركت وحدتي وذهبت لعيادته ماشياً على ممر منفرد بين اشجار الزيتون المتلمعة اوراقها الرصاصية بقطرات المطر ، متنحياً عن الطريق العمومية حيث تزعج ضجة المركبات سكينة الفضاء .

بلغت منزل الشيخ ودخلت عليه فوجدته ملقى على فراشه مضنى الجسم ، شاحب الوجه ، أصفر اللون ، قد غرقت عيناه تحت حاجبيه فباتتا كهوتين عميقتين مظلمتين تجول فيهما أشباح السقم والألم ، فالملامح التي كانت بالأمس عنوان البشاشة والانبساط قد تقلصت واكفهرت واصبحت كصحيفة رمادية متجعدة تكتب عليها العلة سطوراً غريبة ملتبسة . واليدان اللتان كانتا مغلفتين باللطف واللدانة قد نحلتا حتى بدت عظام اصابعهما من تحت الجلد كقضبان عارية ترتعش امام العاصفة .

ولما دنوت منه سائلاً عن حاله حوّل وجهه المهزول نحوي وظهر على شفتيه المرتجفتين خيال ابتسامة محزنة ، وبصوت ضعيف خافت خلته آتياً من وراء الجدران قال : اذهب ، اذهب يا ابني الى تلك الغرفة وامسح دموع سلمى وسكّن روعها ثم عد بها اليّ لتجلس بجانب فراشي ...

دخلت الغرفة المحاذية فوجدت سلمى منطرحة على مقعد وقد غمرت رأسها بزنديها وغرّقت وجهها بالمساند وامسكت انفاسها كيلا يسمع والدها نحيبها . فاقتربتُ منها ببطء ولفظت اسمها بصوت أقرب الى

التنهد منه الى الهمس ، فتحركت مضطربة كنائم تراوده الاحلام المخيفة ثم استوت على مقعدها ونظرت اليَّ بعينين شاخصتين جامدتين كأنها ترى شبحاً في عالم الرؤيا ولا تصدّق حقيقة وجودي في ذلك المكان .

وبعد سكوت عميق أرجعنا بتأثيراته السحرية الى تلك الساعات التي سكرنا فيها من خمرة الآلهة مسحت سلمى دموعها بأطراف أناملها وقالت متحسرة : أرأيت كيف تبدلت الايام ؟ أرأيت كيف أضلنا الدهر فسرنا مسرعين الى هذه الكهوف المفزعة ؟ في هذا المكان جمعنا الربيع في قبضة الحب ، وفي هذا المكان يجمعنا الآن الشتاء امام عرش الموت ، فما ابهى ذلك النهار وما أشد ظلمة هذا الليل !

قالت هذه الكلمات وقد ابتلعت الغصات اواخرها ثم عادت فسترت وجهها بيديها كأن ذكرى الماضي قد تجسدت ووقفت امامها فلم تشأ ان تراها . فوضعت يدي على شعرها قائلاً : تعالي يا سلمى ، تعالي ننتصب كالابراج امام الزوبعة . هلمي نقف كالجنود امام الاعداء متلقين شفار السيوف بصدورنا لا بظهورنا ، فان صرعنا نموت كالشهداء وان تغلبنا نعيش كالابطال ... ان عذاب النفس بثباتها امام المصاعب والمتاعب لهو اشرف من تقهقرها الى حيث الامن والطمأنينة . فالفراشة التي تظل مرفرفة حول السراج حتى تحترق هي اسمى من الخلد الذي يعيش براحة وسلامة في نفقه المظلم . والنواة التي لا تحتمل برد الشتاء وثورات العناصر لا تقوى على شق الارض ولن تفرح بجمال نيسان .. هلمي نسر يا سلمى بقدم ثابتة على هذه الطريق الوعرة رافعين اعيننا

نحو الشمس كيلا نرى الجماجم المطروحة بين الصخور ، والافاعي المنسابة بين الاشواك ، فان اوقفنا الخوف في منتصف الطريق اسمعتنا اشباح الليل صراخ الاستهزاء والسخرية ، وان بلغنا قمة الجبل بشجاعة تترنم معنا ارواح الفضاء بانشودة النصر والاستظهار ... خففي عنك يا سلمى وجففي دموعك واخفي هذه الكآبة الظاهرة على محياك وقومي نجلس بجانب فراش والدك لان حياته من حياتك وشفاءه بابتسامك .

فنظرت الي نظرة ملؤها الحنان والرأفة والانعطاف ثم قالت : اتطلب مني الصبر والتجلد وفي عينيك معنى اليأس والقنوط ؟ ايعطي الفقير الجائع خبزه للجائع الفقير ؟ او يصف العليل دواء لعليل آخر وهو احرى بالدواء ؟

ثم وقفت وسارت امامي منحنية الرأس الى غرفة والدها . جلسنا بقرب مضجع الشيخ العليل وسلمى تتكلف الابتسام وهدوء البال وهو يتكلف الراحة والقوة ، وكل منهما شاعر بلوعة الآخر ، عالم بضعفه ، سامع غصات قلبه ، فكانا مثل قوتين متضارعتين يفني بعضهما بعضاً في السكينة . والد دنف يذوب ضنى لتعاسة ابنته ، وابنة مُحبة تذبل متوجعة بعلّة والدها . نفس راحلة ونفس يائسة تتعانقان امام الحب والموت ، وانا بينهما اتحمل ما بي واقاسي ما بهما . ثلاثة جمعتهم يد القضاء ثم قبضت عليهم بشدة حتى سحقتهم : شيخ يمثل بيتاً قديماً هدمه الطوفان ، وصبية تحاكي زنبقة قطع عنقها حد المنجل ، وفتى يشابه غرسة ضعيفة لوت قامتها الثلوج ، وجميعنا مثل ألعوبة بين اصابع الدهر .

وتحرك الشيخ اذ ذاك بين اللحف ومد يده النحيلة نحو سلمى ،

وبصوت أودعه كل ما في قلب الأب من الرقة والرأفة وكل ما في صدر العليل من السقم والألم قال : ضعي يدك في يدي يا سلمى .

فمدت يدها وألقتها بين اصابعه فضمها بلطف ثم زاد قائلاً : لقد شبعت من السنين يا ولدي ، قد عشت طويلاً وتلذذت بكل ما تثمره الفصول وتمتعتُ بكل ما تبرزه الأيام والليالي ، قد لاحقت الفراش صبياً وعانقت الحب فتى وجمعت المال كهلاً ، وكنت في جميع هذه الادوار سعيداً مغتبطاً . فقدت امك يا سلمى قبل ان تبلغي الثالثة ولكنها ابقتك لي كنزاً ثميناً ، فكنت تنمين بسرعة نمو الهلال ، وتنعكس على وجهك ملامح امك مثلما تنعكس اشعة النجوم في حوض ماء هادىء ، وتظهر اخلاقها ومزاياها بأعمالك وأقوالك ظهور الحلى الذهبية من وراء النقاب الرقيق ، فتعزيت بك يا ولدي لانك كنت مثلها جميلة وحكيمة ... والآن قد صرت شيخاً طاعناً وراحة الشيوخ بين اجنحة الموت الناعمة ، فتعزي يا ولدي لانني بقيت لاراك امرأة كاملة ، وافرحي لانني سأبقى بك حياً بعد موتي . ان ذهابي الآن هو مثل ذهابي غداً او بعده ، لان ايامنا مثل اوراق الخريف تتساقط وتتبدد امام وجه الشمس فان اسرعت بي الساعات الى الابدية فلأنها علمت ان روحي قد اشتاقت الى لقاء امك ...

لفظ الكلمات الاخيرة بنغمة مفعمة بحلاوة الحنين والرجاء ، ولاحت على وجهه المنقبض اشعة شبيهة بذلك النور الذي ينبثق من اجفان الاطفال ، ثم مد يده بين المساند المحيطة برأسه وانتشل صورة صغيرة قديمة يمنطقها اطار من الذهب قد نعّمت حدوده ملامس الايدي ومحت

نقوشة قُبل الشفاه ، ثم قال دون ان يحوّل عينيه عن الرسم : اقتربي يا سلمى ، اقتربي مني يا ولدي لأريك خيال امك . تعالي وانظري ظلها على صفحة من الورق .

فدنت سلمى ماسحة الدموع من مقلتيها كيلا تحول بين ناظريها والرسم الضئيل، وبعد ان حدقت اليه طويلاً كأنه مرآة تعكس معانيها وشكل وجهها قربته من شفتيها وقبلته بلهفة مراراً متوالية ثم صرخت قائلة : يا أماه . يا اماه . يا اماه ! ولم تزد على هذه الكلمة بل عادت فوضعت الرسم على شفتيها المرتعشتين كأنها تريد ان تبث فيه الحياة بأنفاسها الحارّة ...

ان اعذب ما تحدثه الشفاه البشرية هو لفظة « الأم » ، واجمل مناداة هي : يا امي . كلمة صغيرة كبيرة مملوءة بالأمل والحب والانعطاف وكل ما في القلب البشري من الرقة والحلاوة والعذوبة . الأم هي كل شيء في هذه الحياة ، هي التعزية في الحزن ، والرجاء في اليأس ، والقوة في الضعف ، هي ينبوع الحنو والرأفة والشفقة والغفران ، فالذي يفقد أمه يفقد صدراً يسند اليه رأسه ويداً تباركه وعيناً تحرسه ...

كل شيء في الطبيعة يرمز ويتكلم عن الأمومة ، فالشمس هي ام هذه الارض ترضعها حرارتها وتحتضنها بنورها ولا تغادرها عند المساء الا بعد ان تنومها على نغمة امواج البحر وترنيمة العصافير والسواقي ، وهذه الارض هي ام للاشجار والازهار تلدها وترضعها ثم تفطمها . والاشجار والازهار تصير بدورها امهات حنونات للاثمار الشهية والبزور الحية . وام كل شيء في الكيان هي الروح الكلية الازلية الابدية المملوءة بالجمال والمحبة .

وسلمى كرامه لم تكن تعرف امها لانها ماتت وهي طفلة ، وقد شهقت متأثرة عندما رأت رسمها وناديتها : يا اماه ، قسر ارادتها ،لان لفظة الأم تختبيء في قلوبنا مثلما تختبيء النواة في قلب الارض، وتنبثق من بين شفاهنا في ساعات الحزن والفرح كما يتصاعد العطر من قلب الوردة في الفضاء الصافي والممطر .

كانت سلمى تحدق الى رسم امها ثم تقبله بلهفة ثم تلزه الى صدرها الخفوق ثم تتأوه متنهدة ومع كل تنهدة تفقد جزءاً من قواها ، حتى اذا ما وهت الحياة في جسدها النحيل هوت وسقطت بجانب سرير ابيها ، فوضع كلتا يديه على رأسها قائلا : قد أريتك يا ولدي شبح امك على صفحة من الورق ، فاصغي اليّ لأسمعك اقوالها .

فرفعت سلمى رأسها مثلما تفعل الفراخ في العش عندما تسمع حفيف اجنحة العصفورة بين القضبان ، ونظرت اليه مصغية صاغرة كأن ذاتها المعنوية قد استحالت الى اعين محدقة وآذان واعية .

فقال والدها : كنتِ طفلة رضيعة عندما فقدت امك والدها الشيخ فحزنت لفقده وبكت بكاء حكيمٍ متجلد، ولكنها لم تعد من جانب قبره حتى جلست بجانبي في هذه الغرفة واخذت يدي براحتيها وقالت : قد مات والدي يا فارس وانت باق لي وهذه هي تعزيتي . ان القلب بعواطفه المتشعبة يماثل الارزة بأغصانها المتفرقة ، فاذا ما فقدت شجرة الارز غصناً قوياً تتألم ولكنها لا تموت بل تحوّل قواها الحيوية الى الغصن المجاور لينمو ويتعالى ويملأ بفروعه الغضة مكان الغصن المقطوع . هذا ما قالته والدتك يا سلمى عندما مات ابوها وهذا ما يجب عليك ان

تقوليه عندما يأخذ الموت جسدي الى راحة القبر وروحي الى ظل الله.

فأجابت سلمى متفجعة : فقدت امي والدها فبقيت انت لها ، فمن يبقى لي اذا فقدتك يا والدي ؟ مات والدها وهي في ظلال زوج محب فاضل امين ، مات والدها فبقي لها طفلة تغمر رأسها الصغير بثدييها وتطوق عنقها بذراعيها ، فمن يبقى لي اذا فقدتك يا والدي ؟ انت أبي وامي ورفيق حداثتي ومهذب شبيبتي ، فبمن استعيض اذا ما ذهبت عني؟

قالت هذا وحوّلت عينيها الدامعتين نحوي وامسكت بيمينها طرف ثوبي ثم قالت : ليس لي غير هذا الصديق يا والدي ولن يبقى لي سواه اذا ما تركتني ، فهل اتعزى به وهو متعذب مثلي ؟ هل يتعزى كسير القلب بالقلب الكسير ؟ ان الحزينة لا تتصبر بحزن جارتها كما ان الحمامة لا تطير باجنحة مكسورة . هو رفيق لنفسي ولكنني قد اثقلت عاتقه بأشجاني حتى لويت ظهره وسملت عينيه بعبراتي فلم يعد يرى غير الظلمة . هو اخ احبه ويحبني ولكنه مثل جميع الاخوة يشترك بالمصيبة ولا يخففها ، ويساعد بالبكاء فيزيد الدمع مرارة والقلب احتراقاً .

كنت اسمع سلمى متكلمة وعواطفي تنمو وصدري يضيق حتى شعرت بان اضلعي تكاد تنفجر حناجر وفوهات ، اما الشيخ فكان ينظر اليها وجسده المهزول يهبط ببطء بين الوسائد والمساند ، ونفسه المتعبة ترتجف كشعلة السراج امام الريح ، ثم بسط ذراعيه وقال بهدوء: دعيني اذهب بسلام يا ولدي ، لقد لمحت عيناي ما وراء الغيوم فلن احولهما نحو هذه الكهوف . دعيني اطير فقد كسرت بأجنحتي قضبان هذا القفص ... قد نادتني امك يا سلمى فلا توقفيني ... ها قد طابت

الريح وتبدد الضباب عن وجه البحر فرفعت السفينة شراعها وتأهبت للسير فلا توقفيها ولا تنزعي دفتها . دعي جسدي يرقد مع الذين رقدوا ودعي روحي تستيقظ لان الفجر قد لاح والحلم قد انتهى ... قبّلي روحي بروحك ... قبليني قبلة رجاء وأمل ولا تسكبي قطرة من مرارة الحزن على جسدي لئلا تمتنع الاعشاب والازهار عن امتصاص عناصره . ولا تذرفي دموع اليأس على يديّ لانها تنبت شوكاً على قبري . ولا ترسمي بزفرات الاسى سطراً على جبهتي لان نسيم السحر يمر ويقرأه فلا يحمل غبار عظامي الى المروج الخضراء ... قد احببتك بالحياة يا ولدي وسوف احبك بالموت فتظل روحي قريبة منك لتحميك وترعاك .

والتفت الشيخ اليّ وقد انطبقت اجفانه قليلاً فلم أعد أرى سوى خطين رماديين مكان عينيه ، ثم قال وسكينة الفناء تسترق ألفاظه : اما انت يا ابني فكن اخاً لسلمى مثلما كان والدك لي . كن قريباً منها في ساعات الشدة ، وكن صديقاً لها حتى النهاية ، ولا تدعها تحزن لان الحزن على الاموات غلطة من اغلاط الاجيال الغابرة ، بل اتلُ على مسمعها احاديث الفرح وانشدها اغاني الحياة فتسلو وتتناسى ... قل لأبيك ان يذكرني . سله فيخبرك عن مآتي ايامي عندما كان الشباب يحلق بنا الى الغيوم ... قل له انني احببته بشخص ابنه في آخر ساعة من حياتي ...

وسكت دقيقةً وظلت أشباح ألفاظه تدبّ على جدران الغرفة ، ثم عاد فنظر اليّ والى سلمى بوقت واحد وقال همساً : لا تدعوا طبيباً

ليطيل بمساحيقه ساعات سجني لان ايام العبودية قد مضت فطلبت روحي حرية الفضاء . ولا تدعوا كاهناً الى جانب فراشي لان تعازيه لا تكفّر عن ذنوبي ان كنت خاطئاً ، ولا تسرع بي الى الجنة ان كنت باراً . ان ارادة البشر لا تغير مشيئة الله كما ان المنجمين لا يحولون مسير النجوم . اما بعد موتي فليفعل الاطباء والكهان ما شاؤوا ، فاللجة تنادي اللجة اما السفينة فتظل سائرة حتى تبلغ الساحل ...

*

عندما انتصف ذلك الليل المخيف فتح فارس كرامه عينيه الغارقتين في ظلمة النزاع ، فتحهما لآخر مرة ، وحولهما نحو ابنته الجاثية بجانب مضجعه ، ثم حاول الكلام فلم يستطع لأن الموت كان قد تشرب صوته فخرجت هذه الألفاظ لهاثاً عميقاً من بين شفتيه : ها قد ذهب الليل ... وجاء الصباح ... يا سلمى ... يا ... يا سلمى ...

ثم نكس رأسه وابيض وجهه وابتسمت شفتاه وأسلم الروح .

ومدت سلمى يدها ولمست يد والدها فوجدتها باردة كالثلج ، فرفعت رأسها ونظرت اليه فرأت وجهه مبرقعاً بنقاب الموت ، فجمدت الحياة في جسدها وجفت الدموع في محاجرها ، فلم تتحرك ولم تصرخ ولم تتأوه ، بل بقيت محدقة اليه بعينين جامدتين كعيني التمثال ، ثم تراخت اعضاؤها مثلما تتراخى طيات الثوب البليل ، وهبطت حتى لمست جبهتها الارض ، ثم قالت بهدوء : اشفق يا رب وشدد جميع الأجنحة المتكسرة .

*

مات فارس كرامه وعانقت الابدية روحه واسترجع التراب جسده ، واستولى منصور بك على امواله وظلت ابنته أسيرة تعاستها ترى الحياة مأساة هائلة تمثلها المخاوف امام عينيها .

اما أنا فكنت ضائعاً بين أحلامي وهواجسي ، تنتابني الايام والليالي مثلما تنتاب النسور والعقبان لحمان الفريسة . فكم حاولت ان افقد ذاتي بين صفحات الكتب لعلني أستأنس بأخيلة الذين طواهم الدهر ، وكم جربت ان انسى حاضري لاعود بقراءة الاسفار الى مسارح الاجيال الغابرة ، فلم يجدني كل ذلك نفعاً بل كنت كمن يحاول اخماد النار بالزيت ، لأنني لم أكن أرى من مواكب الاجيال سوى اشباحها السوداء ، ولا اسمع من انغام الامم غير الندب والنواح ، فسفر ايوب كان عندي اجمل من مزامير داود ، ومراثي ارميا كانت أحب لديّ من نشيد سليمان ، ونكبة البرامكة أشد وقعاً في نفسي من عظمة العباسيين ، وقصيدة ابن زريق أكثر تأثيراً من رباعيات الخيام ، ورواية هملت أقرب الى قلبي من كل ما كتبه الافرنج .

كذا يضعف القنوط بصيرتنا فلا نرى غير أشباحنا الرهيبة ، وهكذا يصمّ اليأس آذاننا فلا نسمع غير طرقات قلوبنا المضطربة .

بين عشتروت والمسيح

بين تلك البساتين والتلول التي تصل اطراف بيروت بأذيال لبنان يوجد معبد صغير قديم العهد محفور في قلب صخرة بيضاء قائمة بين اشجار الزيتون واللوز والصفصاف. ومع ان هذا المعبد لا يبعد اكثر من نصف ميل عن طريق المركبات، فقد قلّ من عرفه من محبي الآثار والخرائب القديمة، فهو مثل أشياء كثيرة خطيرة في سوريا مختبئ وراء ستائر الاهمال، فكأن الاهمال قد ابقاه محجوباً عن عيون الأثريين ليجعله خلوة لنفوس المتعبين ومزاراً للمحبين المستوحشين.

والداخل الى هذا المعبد العجيب يرى على الجدار الشرقي منه صورة فينيقية الشواهد والبينات محفورة في الصخر قد محت اصابع الدهر بعض خطوطها ولوّنت الفصول معالمها، وهي تمثل عشتروت ربّة الحب والجمال جالسة على عرش فخم ومن حولها سبع عذارى عاريات واقفات بهيئات مختلفة، فالواحدة منهن تحمل مشعلاً والثانية قيثارة والثالثة مبخرة والرابعة جرة من الخمر والخامسة غصناً من الورد والسادسة اكليلاً من الغار والسابعة قوساً وسهاماً، وجميعهن ناظرات الى عشتروت وعلى وجوههنّ سيماء الخضوع والامتثال.

وعلى الجدار الثاني صورة اخرى احدث عهداً وأكثر ظهوراً تمثل يسوع الناصري مصلوباً والى جانبه امه الحزينة ومريم المجدلية وامرأتان

ثابتتان تنتحبان . وهذه الصورة البيزنطية الاسلوب والقرائن تدل على كونها حفرت في القرن الخامس او السادس للمسيح .

وفي الجدار الغربي كوتان مستديرتان يدخل منهما شعاع الشمس عند اصيل النهار وينسكب على الصورتين فتظهران كأنهما قد طليتا بماء الذهب .

وفي وسط المعبد حجر من الرخام مربع الشكل على جوانبه نقوش ووسامات قديمة الطراز قد انحجب بعضها تحت كتلات متحجرة من الدماء تدل على ان الاقدمين كانوا ينحرون ذبائحهم على هذا الحجر ويصبون فوقه قرابين الخمر والعطر والزيت .

ولم يكن في هذا المعبد الصغير شيء آخر سوى سكينة عميقة تعانق النفس وهيبة سحرية تبيح بتموجاتها اسرار الآلهة وتتكلم بلا نطق عن مآتي الاجيال الغابرة ومسير الشعوب من حالة الى حالة ومن دين الى دين ، وتستميل الشاعر الى عالم بعيد عن هذا العالم ، وتقنع الفيلسوف بأن الانسان مخلوق دين يشعر بما لا يراه ويتخيل ما لا تقع عليه حواسه ، فيرسم لشعوره رموزاً تدل بمعانيها على خفايا نفسه ويجسم خياله بالكلام والانغام والصور والتماثيل التي تظهر بأشكالها أقدس ميوله في الحياة واجمل مشتهياته بعد الموت .

في هذا الهيكل المجهول كنت ألتقي سلمى كرامه مرة في الشهر فنصرف الساعات الطوال ناظرين الى الصورتين الغريبتين مفكرين بفتى الاجيال المصلوب فوق الجلجلة مستحضرين الى مخيلتينا اشباح الفتيان والصبايا الفينيقيين الذين عاشوا وعشقوا وعبدوا الجمال بشخص عشتروت

فحرقوا البخور امام تماثيلها وهرقوا الطيوب على مذابحها ثم طوتهم الارض فلم يبقَ منهم سوى اسم تردده الايام امام وجه الابدية .

كم يصعب عليّ الآن ان ادوّن بالكلام ذكرى تلك الساعات التي كانت تجمعني بسلمى ، تلك الساعات العلوية المكتنفة باللذة والألم ، والفرح والحزن ، والامل واليأس ، وكل ما يجعل الانسان انساناً والحياة لغزاً ابدياً . ولكن كم يصعب عليّ ان اذكرها ولا أرسم بالكلام الضئيل خيالاً من أخيلتها ليبقى مثلاً لأبناء الحب والكآبة .

كنا نختلي في ذلك الهيكل القديم فنجلس في بابه ساندين ظهرينا الى جداره مرددين صدى ماضينا مستقصيين مآتي حاضرنا خائفين مستقبلنا . ثم نتدرج الى اظهار ما في اعماق نفسينا فيشكو كل منا لوعته وحرقة قلبه وما يقاسيه من الجزع والحسرة ، ثم يصبّر واحدنا الآخر باسطاً امامه كل ما في جيوب الامل من الاوهام المفرحة والاحلام العذبة ، فيهدأ روعنا وتجف دموعنا وتنفرج ملامحنا ، ثم نبتسم متناسيين كل شيء سوى الحب وافراحه ، منصرفين عن كل امر الا النفس وميولها ، ثم نتعانق فنذوب شغفاً وهياماً ، ثم تقبّل سلمى مفرق شعري بطهر وانعطاف فتملأ قلبي شعاعاً ، واقبّل أطراف اصابعها البيضاء فتغمض عينيها وتلوي عنقها العاجي وتتورد وجنتاها باحمرار لطيف يشابه الاشعة الاولى التي يلقيها الفجر على جباه الروابي . ثم نسكت وننظر طويلاً نحو الشفق البعيد حيث الغيوم المتلونة بأنوار المغرب البرتقالية .

ولم تكن اجتماعاتنا مقتصرة على مبادلة العواطف وبث الشكوى ، بل كنا ننتقل على غير معرفة منا الى العموميات فنتبادل الآراء

والأفكار في شؤون هذا العالم الغريب ونتباحث في مرامي الكتب التي كنا نقرأها ذاكرين حسناتها وسيئاتها وما تنطوي عليه من الصور الخيالية والمبادىء الاجتماعية ، فتتكلم سلمى عن منزلة المرأة في الجامعة البشرية وعن تأثير الاجيال الغابرة في اخلاقها وميولها وعن العلاقة الزوجية في ايامنا هذه وما يحيط بها من الامراض والمفاسد . واني اذكر قولها مرة : ان الكتّاب والشعراء يحاولون ادراك حقيقة المرأة ولكنهم للآن لم يفهموا اسرار قلبها ومخبآت صدرها لانهم ينظرون اليها من وراء نقاب الشهوات فلا يرون غير خطوط جسدها ، أو يضعونها تحت مكبرات الكره فلا يجدون فيها غير الضعف والاستسلام .

وقولها لي مرة اخرى وقد اشارت بيدها الى الرسمين المحفورين على جدران الهيكل : في قلب هذه الصخرة قد نقشت الاجيال رمزين يظهران خلاصة ميول المرأة ويستجليان غوامض نفسها المراوحة بين الحب والحزن ، بين الانعطاف والتضحية ، بين عشتروت الجالسة على العرش ومريم الواقفة امام الصليب . . . ان الرجل يشتري المجد والعظمة والشهرة ولكن هي المرأة التي تدفع الثمن .

ولم يدرِ باجتماعاتنا السرية أحد سوى الله واسراب العصافير المتطايرة بين تلك البساتين ، فسلمى كانت تجيء بمركبتها الى المكان المدعو بحديقة الباشا ثم تسير الهويناء على الممرات المنفردة حتى تبلغ المعبد الصغير فتدخله مستندة الى مظلتها وعلى وجهها لوائح الأمن والطمأنينة فتجدني منتظراً مترقباً مشتاقاً بكل ما في الشوق من الجوع والعطش .

ولم نخف قط عين الرقيب ولا شعرنا بوخز الضمير ، لان النفس اذا

تطهرت بالنار واغتسلت بالدموع تترفع عما يدعوه الناس عيباً وعاراً وتتحرر من عبودية الشرائع والنواميس التي سنتها التقاليد لعواطف القلب البشري وتقف برأس مرفوع امام عروش الآلهة .

ان الجامعة البشرية قد استسلمت سبعين قرناً الى الشرائع الفاسدة فلم تعد قادرة على ادراك معاني النواميس العلوية الاولية الخالدة . وقد تعودت بصيرة الانسان النظر الى ضوء الشموع الضئيلة فلم تعد تستطيع ان تحدق الى نور الشمس . لقد توارثت الاجيال الامراض والعاهات النفسية بعضها عن بعض حتى اصبحت عمومية ، بل صارت من الصفات الملازمة للانسان فلم يعد الناس ينظرون اليها كعاهات وامراض بل يعتبرونها كخلال طبيعية نبيلة انزلها الله على آدم ، فاذا ما ظهر بينهم فرد خالٍ منها ظنوه ناقصاً محروماً من الكمالات الروحية .

اما الذين سيعيبون سلمى كرامه محاولين تلويث اسمها لانها كانت تترك منزل زوجها الشرعي لتختلي برجل آخر فهم من السقماء الضعفاء الذين يحسبون الاصحاء مجرمين وكبار النفوس متمردين . بل هم كالحشرات التي تدب في الظلمة وتخشى الخروج الى نور النهار كيلا تدوسها اقدام العابرين .

ان السجين المظلوم الذي يستطيع ان يهدم جدران سجنه ولا يفعل يكون جباناً . وسلمى كرامه كانت سجينة مظلومة ولم تستطع الانعتاق ، فهل تلام لانها كانت تنظر من وراء نافذة السجن الى الحقول الخضراء والفضاء الوسيع ؟ هل يحسبها الناس خائنة لانها كانت تجيء من منزل منصور بك غالب لتجلس بجانبي بين عشتروت المقدسة والجبار

المصلوب ؟ ليقل الناس ما شاؤوا ، فسلمى قد اجتازت المستنقعات التي تغمر أرواحهم وبلغت ذلك العالم الذي لا يبلغه عواء الذئاب وفحيح الافاعي . وليقل الناس ما ارادوا عني ، فالنفس التي شاهدت وجه الموت لا تذعرها وجوه اللصوص ، والجنـدي الذي رأى السيوف محتبكة فوق رأسه وسواقي الدماء تجري تحت قدميه لا يحفـل بالحجارة التي يرشقه بها صبيان الازقة .

التضحية

ففي يوم من اواخر حزيران وقد ثقلت وطأة الحر في السواحل وطلب الناس أعالي الجبال ، سرت كعادتي نحو ذلك المعبد واعداً نفسي بلقاء سلمى كرامه حاملاً بيدي كتاباً صغيراً من الموشحات الاندلسية التي كانت في ذلك العهد ولم تزل الى الآن تستميل روحي .

بلغت المعبد عند الاصيل فجلست ارقب الطريق المنسابة بين اشجار الليمون والصفصاف ، وانظر من وقت الى آخر الى وجه كتابي هامساً في مسامع الاثير ابيـــات تلك الموشحات التي تستهوي القلب برشاقة تراكيبها ورنة اوزانها ، وتعيد الى النفس ذكرى أمجاد الملوك والشعراء والفرسان الذين ودعوا غرناطة وقرطبة واشبيلية تاركين في قصورها ومعاهدها وحدائقها كل ما في ارواحهم من الآمال والأميال ثم تواروا وراء حجب الدهور والدمع في اجفانهم والحسرة في أكبادهم .

وبعد ساعة التفتُ فاذا بسلمى تميس بقدهـــا النحيل بين الاشجار المحتبكة وتقترب نحوي مستندة الى مظلتها كأنها تحمل كل ما في العالم من الهموم والمتاعب . ولما بلغت باب الهيكل وجلست بقربي نظرت الى عينيها الكبيرتين فرأيت فيهما معاني وأسراراً جديدة غريبة توحي التحذر والانتباه وتثير حب الاستطلاع والاستقصاء .

وشعرت سلمى بما يجول في خاطري فـلم تشأ ان يطول الصراع

بين ظنوني وهواجسي ، فوضعت يدها على شعري وقالت : اقترب مني ، اقترب مني يا حبيبي ، اقترب ودعني ازود نفسي منك، فقد دنت الساعة التي تفرقنا الى الابد .

فصرخت قائلاً : ماذا تعنين يا سلمى ، وأية قوة تستطيع ان تفرقنا الى الابد ؟

فأجابت : ان القوة العمياء التي فرقتنا بالأمس ستفرقنا اليوم . القوة الخرساء التي تتخذ الشرائع البشرية ترجماناً عنها قد بنت بأيدي عبيد الحياة حاجزاً منيعاً بيني وبينك. القوة التي أوجدت الشياطين وأقامتهم اولياء على ارواح الناس قد حتمت عليَّ ان لا اخرج من ذلك المنزل المبني من العظام والجماجم .

فسألتها قائلاً : هل علم زوجك باجتماعاتنا فصرت تخشين غضبه وانتقامه ؟

فأجابت : ان زوجي لا يحفل بي ولا يدري كيف أصرف ايامي ، فهو مشغول عني باولئك الصبايا المسكينات اللواتي تقودهنَّ الفاقة الى اسواق النخاسين فيتعطرن ويكتحلن ليبعنَ اجسادهنَّ بالخبز المعجون بالدماء والدموع .

فقلت : اذاً ماذا يصدك عن المجيء الى هذا المعبد والجلوس بجانبي امام هيبة الله واشباح الأجيال ؟ هل مللت النظر الى خفايا نفسي فطلبت روحك الوداع والتفريق ؟

فأجابت والدمع يراود اجفانها : لا يا حبيبي . إن روحي لم تطلب فراقك لانك شطرها ، ولا ملت عيناي النظر اليك لانك نورهما .

ولكن اذا كان القضاء قد حكم عليَّ ان أسير على عقبات الحياة مثقلة بالقيود وبالسلاسل فهل أرضى ان يكون نصيبك من القضاء مثل نصيبي؟

فقلت : تكلمي ياسلمى واخبريني عن كل شيء ولا تتركيني ضائعاً بين هذه المعميات .

فأجابت : لا أقدر ان اقول كل شيء ، لان اللسان الذي أخرسته الاوجاع لا يتكلم ، والشفاه التي ختم عليها اليأس لا تتحرك ، وكل ما اقدر ان اقوله لك هو اني اخاف عليك من الوقوع في شرك الذين نصبوا لي الحبائل واصطادوني .

فقلت : ماذا تعنين ياسلمى ومن هم الذين تخافين عليَّ منهم ؟

فسترت وجهها بيديها وتأوهت ملتاعة ثم قالت مترددة : ان المطران بولس غالب قد صار يعلم بأنني أخرج مرةً في الشهر من القبر الذي وضعني فيه .

فقلت : وهل علم المطران بأنك تلتقين بي في هذا المكان ؟

فأجابت : لو علم بذلك لما رأيتني الآن جالسة بقربك ، ولكن الشكوك تخامره والظنون تتلاعب بأفكاره ، وقد بث عليَّ العيون لترقبني وأوعز الى خدمه ليتجسسوا حركاتي حتى صرت أشعر بأن للمنزل الذي أسكنه والطرقات التي اسير عليها نواظر تحدق بي واصابع تشير اليَّ وآذاناً تسمع همس افكاري .

وأطرقت هنيهة ثم زادت والدمع ينسكب على وجنتيها : انا لا اخاف على نفسي من المطران لان الغريق لا يخشى البلل ، ولكنني اخاف عليك وانت حرٌ كنور الشمس ان تقع مثلي في اشراكه

فيقبض عليك بأظافره وينهشك بأنيابه . انا لا أخاف من الدهر لانه أفرغ جميع سهامه في صدري ، ولكنني أخاف عليك وأنت في ربيع العمر ان تلسع الافعى قدميك وتوقفك عن المسير نحو قمة الجبل حيث ينتظرك المستقبل بأفراحه وأمجاده .

فقلت : ان من لا تلسعه أفاعي الايام وتنهشه ذئاب الليالي يظل مغروراً بالايام والليالي . ولكن اسمعي يا سلمى ، اسمعيني جيداً ، أليس امامنا غير الفراق لنتقي صغارة الناس وشرورهم ؟ هل سُدّت امامنا سبل الحب والحياة والحرية فلم يبقَ غير الاستسلام الى مشيئة عبيد الموت ؟

فأجابت بلهجة يساورها القنوط والحسرة : لم يبقَ أمامنا غير الوداع والتفرق .

فأخذت يدها وقد تمردت روحي في داخلي وتبدد الدخان عن شعلة فتوتي ، فقلت متهيجاً : قد استسلمنا طويلاً الى أهواء الناس يا سلمى ... منذ تلك الساعة التي جمعتنا حتى الآن ونحن ننقاد الى العميان ونركع أمام اصنامهم . مذ عرفتك ونحن في يد المطران بولس غالب مثل كرتين يلعب بنا كيفما أراد ويقذفنا حيثما شاء ، فهل نبقى خاضعين لديه محدقين الى ظلمة نفسه حتى يلوكنا القبر وتبتلعنا الارض؟ هل وهبنا الله نسمة الحياة لنضعها تحت اقدام الموت ، وأعطانا الحرية لنجعلها ظلاً للاستعباد؟ ان من يخمد نار نفسه بيده يكون كافراً بالسماء التي اوقدتها . ومن يصبر على الضيم ولا يتمرد على الظلم يكون حليف البُطل على الحق وشريك السفاحين بقتل الابرياء . قد احببتك يا سلمى واحببتني ،

والحب كنز ثمين يودعه الله النفوس الكبيرة الحساسة ، فهل نرمي بكنزنا الى حظائر الخنازير لتبعثره بأنوفها وتذريه بأرجلها ؟ امامنا العالم مسرحاً وسيعاً مملوءاً بالمحاسن والغرائب ، فلماذا نسكن في هذا النفق الضيق الذي حفره المطران واعوانه ؟ امامنا الحياة وما في الحياة من الحرية وما في الحرية من الغبطة والسعادة ، فلماذا لا نخلع النير الثقيل عن عاتقينا ونكسر القيود الموثقة بارجلنا ونسير الى حيث الراحة والطمأنينة ؟ قومي يا سلمى نذهب من هـذا المعبد الصغير الى هيكل الله الاعظم . هلمي نرحل من هذه البلاد وما فيها من العبودية والغباوة الى بلاد بعيدة لا تطالها أيدي اللصوص ولا يبلغها لهاث الأبالسة . تعالي نسرع الى الشاطىء مستترين بوشاح الليل فنعتلي سفينة تقلنا الى ما وراء البحار وهناك نحيا حياة جديدة مكتنفة بالطهر والتفاهم ، فلا تنفثنا الثعابين بأنفاسها ، ولا تدوسنا الضواري بأقدامها . لا تترددي ياسلمى ، فهذه الدقائق اثمن مـن تيجان الملوك واسمى من سرائر الملائكة . قومي نتبع عمود النور فيقودنا من هــذه الصحراء القاحلة الى حقول تنبت الأزاهر والرياحين .

فهزت رأسها وقد شخصت عيناها بشيء غير منظور في فضاء ذلك الهيكل ، وسالت على شفتيها ابتسامة محزنة تعلن ما في داخل نفسها من الشدة والألم ، ثم قالت بهدوء : لا ، لا يا حبيبي ، ان السماء قد وضعت في يدي كأساً مفعمة بالخل والعلقم وقد تجرعتها صرفاً ولم يبقَ فيها غير قطرات قليلة سوف اشربها متجلدة لأرى ما في قعر الكأس من الاسرار والخفايا . اما تلك الحياة الجديدة العلوية المكتنفة بالمحبة

والراحة والطمأنينة فأنا لا أستحقها ولا أقوى على احتمال افراحها وملذاتها، لان الطائر المكسور الجناحين يدب متنقلاً بين الصخور ولكنه لا يستطيع ان يسبح محلقاً في الفضاء، والعيون الرمداء تحدق الى الاشياء الضئيلة ولكنها لا تقوى على النظر الى الانوار الساطعة ، فلا تحدثني عن السعادة لان ذكرها يؤلمني كالتعاسة ، ولا تصوّر لي الهناء لان ظله يخيفني كالشقاء ... ولكن انظر اليّ لأريك الشعلة المقدسة التي أوقدتها السماء بين رماد صدري ... أنت تعلم بأنني أحبك محبة الأم وحيدها، وهي المحبة التي علمتني ان احميك حتى ومن نفسي . هي المحبة المطهرة بالنار التي توقفني الآن عن اتباعك الى اقاصي الأرض وتجعلني اميت عواطفي وميولي لكي تحيا أنت حراً نزيهاً وتظل في مأمن من لوم الناس وتقولاتهم الفاسدة. ان المحبة المحدودة تطلب امتلاك المحبوب ، اما المحبة غير المتناهية فلا تطلب غير ذاتها . المحبة التي تجيء بين يقظة الشباب وغفلته تستكفي باللقاء وتقنع بالوصل وتنمو بالقبل والعناق ، اما المحبة التي تولد في احضان اللانهاية وتهبط مع اسرار الليل فلا تقنع بغير الابدية ولا تستكفي بغير الخلود ولا تقف متهيبة امام شيء سوى الألوهية ... عندما عرفت بالأمس أن المطران بولس غالب يريد ان يمنعني عن الخروج من منزل ابن اخيه ويسلبني اللذة الوحيدة التي عرفتها مذ تزوجت ، وقفت امام نافذة غرفتي ونظرت نحو البحر مفكرة بما وراءه من البلاد الوسيعة والحرية المعنوية والاستقلال الشخصي، وتخيلت نفسي عائشة بقربك ، محاطة بأخيلة روحك ، مغمورة بانعطافك ، ولكن هذه الاحلام التي تنير صدور النساء المظلومات وتجعلهن

يتمردن على التقاليد الباطلة ليعشن في ظل الحق والحرية ، لم تمر في خاطري حتى جعلتني استصغر نفسي واستضعفها وأرى محبتنا واهية محدودة لا تستطيع الوقوف امام وجه الشمس . فبكيت بكاء ملك أضاع ملكه وغني فقد كنوزه ، ولكنني ما لبثت أن رأيت وجهك من خلال دموعي وأبصرت عينيك محدقتين اليّ ، فتذكرت ما قلته لي مرة وهو : هلمي يا سلمى نقف امام الأعداء متلقين شفار السيوف بصدورنا ، فان صرعنا نمت كالشهداء وان تغلبنا نعش كالابطال ، لأن عذاب النفس بثباتها امام المصاعب والمتاعب هو أشرف من تقهقرها الى حيث الأمن والطمأنينة ... هذه الكلمات قلتها لي يا حبيبي عندما كانت أجنحة الموت ترفرف حول مضجع والدي ، وقد ذكرتها بالامس وقد كانت أجنحة اليأس تصفق حول رأسي ، فتقويت وتشجعت وشعرت وأنا في ظلمة السجن بنوع من الحرية النفسية التي تستهون الشدائد وتستصغر الاحزان ؛ ورأيت حبنا عميقاً كالبحر عالياً كالنجوم متسعاً كالفضاء . وقد جئت اليوم اليك وفي نفسي المتوجعة المنهوكة قوة جديدة وهي المقدرة على تضحية الأمر العظيم للحصول على امر اعظم ، تضحية سعادتي بقربك لكي تبقى أنت شريفاً بعرف الناس بعيداً عن غدرهم واضطهادهم ... كنت اجيء بالامس الى هذا المكان والقيود الثقيلة تغل قدميّ الضعيفتين ، اما اليوم فقد جئت شاعرة بعزم يهزأ بثقل القيود ويستقصر الطريق . كنت اجيء مثل طيف طارق خائف ، اما اليوم فقد جئت مثل امرأة حية تشعر بوجوب التضحية وتعرف قيمة الاوجاع وتريد ان تحمي من تحبه من الناس الأغبياء ومن نفسها الجائعة .

كنت أجلس حذاءك مثل ظل مرتجف وقد اتيت اليوم لأريك حقيقتي أمام عشتروت المقدسة ويسوع المصلوب . انا شجرة نابتة في الظل وقد مددت اغصاني اليوم لكي ترتعش ساعة في نور النهار . . . قد جئت لأودعك يا حبيبي فليكن وداعنا عظيماً وهائلاً مثل حبنا ، ليكن وداعنا كالنار التي تصهر الذهب لتجعله اشد لمعاناً .

ولم تترك لي سلمى مجالاً للكلام والاحتجاج بل نظرت اليَّ وقد برقت عيناها فأحاطت أشعتهما بوجداني واتشحت ملامح وجهها بنقاب من الهيبة والجلال فبانت كمليكة توحي الصمت والتخشع ، ثم ارتمت على صدري بانعطاف كلي ما عهدته فيها قبل تلك الساعة ، وطوّقت عنقي بزندها الاملس وقبلت شفتي قبلة طويلة عميقة محرقة ايقظت الحياة في جسدي ، وأثارت الأسرار الخفية في نفسي ، وجعلت الذات الوضعية التي أدعوها « أنا » تتمرد على العالم باسره لتخضع صامتة امام الناموس العلوي الذي اتخذ صدر سلمى هيكلاً ونفسها مذبحاً .

*

ولما غربت الشمس وامحت اشعتها الأخيرة عن تلك الحدائق والبساتين انتفضت سلمى ووقفت في وسط الهيكل ونظرت طويلاً الى جدرانه وزواياه كأنها تريد أن تسكب نور عينيها على رسومه ورموزه ، ثم تقدمت قليلاً وجثت خاشعة امام صورة يسوع المصلوب وقبلت قدميه المكلومتين مرات متوالية ثم همست قائلة :

ها قد اخترت صليبك يا يسوع الناصري وتركت مسرات عشتروت

وأفراحها . قد كللت راسي بالأشواك بدلاً من الغار، واغتسلت بدمي ودموعي بدلاً من العطور والطيوب ، وتجرعت الخلّ والعلقم بالكأس التي صنعت للخمر والكوثر ، فاقبلني بين تابعيك الأقوياء بضعفهم وسيرني نحو الجلجلة برفقة مختاريك المستكفين بأوجاعهم المغبوطين على كآبة قلوبهم .

ثم انتصبت والتفتت نحوي قائلة :

سأعود الآن فرحة الى الكهف المظلم حيث تتراكض الأشباح المخيفة، فلا تشفق عليّ يا حبيبي ولا تحزن من أجلي ، لان النفس التي ترى ظلّ الله مرّة لا تخشى بعد ذلك أشباح الابالسة ، والعين التي تكتحل بلمحة واحدة من الملأ الأعلى لا تغمضها اوجاع هذا العالم .

وخرجت سلمى من ذاك المعبد ملتفة بملابسها الحريرية وتركتني حائراً ضائعاً مفكراً مجذوباً الى مسارح الرؤيا حيث تجلس الآلهة على العروش وتدون الملائكة اعمال البشر وتتلو الأرواح مأساة الحياة وتترنم عرائس الخيال بأناشيد الحب والحزن والخلود .

ولما صحوت من هذه السكرة، وكان الليل قد غمر الوجود بأمواجه القاتمة ، وجدتني هائماً بين تلك البساتين مسترجعاً الى حافظتي صدى كل كلمة لفظتها سلمى، معيداً الى نفسي حركاتها وسكناتها وملامح وجهها وملامس يديها ، حتى اذا ما اتضحت لي حقيقة الوداع وما سيجيء بعده من ألم الوحشة ومرارة الشوق جمدت فكرتي وتراخت خيوط قلبي وعلمت للمرة الاولى ان الانسان وان ولد حرّاً يظل عبداً لقساوة الشرائع التي سنها آباؤه وأجداده ، وان القضاء الذي نتوهمه سرّاً

علوياً هو استسلام اليوم الى مآتي الأمس، وخضوع الغد الى ميول اليوم.
وكم مرة فكرت منذ تلك الليلة الى هذه الساعة بالنواميس النفسية التي جعلت سلمى تختار الموت بدلاً من الحياة ، وكم مرة وضعت نبالة التضحية بجانب سعادة المتمردين لأرى ايهما اجلّ واجمل، ولكنني للآن لم افهم سوى حقيقة واحدة وهي ان الاخلاص يجعل جميع الأعمال حسنة وشريفة ؛ وسلمى كرامه كانت الاخلاص متأنساً وصحة الاعتقاد متجسدة .

المنقذ

ومرّت خمسة أعوام على زواج سلمى ولم ترزق ولداً ليوجد بكيانه العلاقة الروحية بينها وبين بعلها ويقرب بابتسامته نفسيهما المتنافرتين مثلما يجمع الفجر اواخر الليل واوائل النهار .

والمرأة العاقر مكروهة في كل مكان لان الانانية تصور لأكثر الرجال دوام الحياة في اجساد الأبناء فيطلبون النسل ليظلوا خالدين على الارض .

ان الرجل المادي ينظر الى زوجته العاقر بالعين التي يرى بها الانتحار البطيء فيمقتها ويهجرها ويطلب حتفها كأنها عدو غدّار يريد الفتك به . ومنصور بك غالب كان مادياً كالتراب وقاسياً كالفولاذ وطامعاً كالمقبرة ، وكانت رغبته بابن يرث اسمه وسؤدده تكرهه بسلمى المسكينة وتحوّل محاسنها في عينيه الى عيوب جهنمية .

ان الشجرة التي تنبت في الكهف لا تعطي ثمراً ، وسلمى كرامه كانت في ظل الحياة فلم تثمر اطفالاً . ان البلبل لا يحوك عشاً في القفص كيلا يورث العبودية لفراخه ، وسلمى كرامه كانت سجينة الشقاء فلم تقسم السماء حياتها الى اسيرين . ان ازاهر الاودية هي اطفال يلدها انعطاف الشمس وشغف الطبيعة ، وأطفال البشر ازاهر يلدها الحب والحنو ، فسلمى كرامه لم تشعر قط بأنفاس الحنو وملامس

الانعطاف في ذلك المنزل الفخم القائم على شاطىء البحر في رأس بيروت ، ولكنها كانت تصلي في سكينة الليالي ضارعة امام السماء لتبعث اليها بطفل يجفف بأصابعه الوردية دموعها ويزيل بنور عينيه خيال الموت عن قلبها .

وقد صلت سلمى متوجعة حتى ملأت الفضاء صلاةً وابتهالاً ، وتضرعت مستغيثة حتى بدد صراخها الغيوم ، فسمعت السماء نداءها وبثت في احشائها نغمة مختمرة بالحلاوة والعذوبة واعدتها بعد خمسة اعوام من زواجها لتصيرها اماً وتمحو ذلها وعارها .

الشجرة النابتة في الكهف قد ازهرت لتثمر .

البلبل المسجون في القفص قد همّ ليحوك عشاً من ريش جناحيه .

القيثارة التي طرحت تحت الأقدام قد وضعت في مهب نسيم المشرق ليحرك بأمواجه ما بقي من أوتارها .

سلمى كرامه المسكينة قد مدّت ذراعيها المكبلتين بالسلاسل لتقبل موهبة السماء .

وليس بين افراح الحياة ما يضارع فرح المرأة العاقر عندما تهيئها النواميس الأزلية لتصيّرها اماً . كل ما في يقظة الربيع من الجمال ، وكل ما في مجيء الفجر من المسرة ، يجتمع بين أضلع المرأة التي حرمها الله ثم اعطاها .

لا يوجد نور اشد سطوعاً واكثر لمعاناً من الاشعة التي يبعثها الجنين السجين في ظلمة الاحشاء .

وكان نيسان قد جاء متنقلاً بين الروابي والمنحدرات عندما تمت ايام

سلمى لتلد بكرها ، وكأن الطبيعة قد وافقتها وعاهدتها فأخذت تضع حمل ازاهرها وتلف بأقمطة الحرارة اطفال الأعشاب والرياحين .

مضت شهور الانتظار وسلمى تترقب الخلاص مثلما يترقب المسافر طلوع كوكب الصباح ، وتنظر الى المستقبل من وراء دموعها فتراه مشعشعاً ؛ وقد طالما ظهرت الاشياء القاتمة متلمعة من خلال الدموع .

ففي ليلة وقد طافت اشباح الظلام بين تلك المنـــازل في رأس بيروت ، انطرحت سلمى على مضجع المخاض والاوجاع ، فانتصب الموت والحياة يتصارعان بجانب فراشها ، ووقف الطبيب والقابلة ليقدما الى هذا العالم ضيفاً جديداً ، وسكنت حركة عابري الطريق وانخفضت نغمة امواج البحر ولم يعد يسمع في ذلك الحي سوى صراخ هائـل يتصاعد من نوافذ منزل منصور بك غالب . . . صراخ انفصال الحياة عن الحياة . . . صراخ محبة البقاء في فضاء اللاشيء والعدم . . . صراخ قوة الانسان المحدودة امام سكينة القوى غير المتناهية . . . صراخ سلمى الضعيفة المنطرحة تحت اقدام جبارين : الموت والحياة .

عندما لاح الفجر ولدت سلمى ابناً ، ولما سمعت اهلاله فتحت عينيها المغلقتين بالألم ونظرت حواليها فرأت الأوجه متهللة في جوانب تلك الغرفة . . . ولما نظرت ثانيةً رأت الحياة والموت ما زالا يتصارعان بقرب مضجعها ، فعادت واغمضت عينيها وصرخت لأول مرة : يا ولدي .

ولفّت القـابلة الطفل بالاقمطة الحريرية ووضعته حذاء امه ؛ امـا الطبيب فظل ينظر بعينين حزينتين نحو سلمى ويهز رأسه صامتـاً بين الدقيقة والاخرى .

وأيقظت نغمة الفرح بعض الجيران فجاؤوا بملابس النوم ليهنئوا الوالد بولده ، اما الطبيب فبقي ينظر بعينين كئيبتين نحو الوالدة وطفلها .

وأسرع الخدم نحو منصور بك ليبشروه بقدوم وارثه ويملأوا ايديهم من عطاياه ، اما الطبيب فلبث واقفاً ينظر بعينين يائستين الى سلمى وابنها .

ولما طلعت الشمس قربت سلمى ولدها من ثديها ففتح عينيه لأول مرة ونظر في عينيها واختلج واغمضهما لآخر مرة ، فدنا الطبيب وأخذه من بين ذراعيها وانسكبت على وجنتيه دمعتان كبيرتان ثم همس في سره قائلاً : هو زائر راحل !

مات الطفل وسكان الحي يفرحون مع الوالد في القاعة الكبرى ويشربون نخبه ليعيش طويلاً ، وسلمى المسكينة تحدق الى الطبيب وتصرخ قائلة : اعطني ولدي لأضمه . ثم تحدق ثانية فترى الموت والحياة يتصارعان بجانب سريرها .

مات الطفل ورنات الكؤوس تنمو وتتكاثر بين أيدي الفرحين بمجيئه .

ولد مع الفجر ، ومات عند طلوع الشمس ، فاي بشري يستطيع ان يقيس الزمن ليخبرنا ما إذا كانت الساعة التي تمرّ بين مجيء الفجر وطلوع الشمس هي أقصر من الدهر الذي يمر بين ظهور الأمم وتواريها ؟

ولد كالفكر ، ومات كالتنهدة ، واختفى كالظل ، فأذاق سلمى كرامه طعم الأمومة ، ولكنه لم يبقَ ليسعدها ويزيل يد الموت عن قلبها .

حياة قصيرة ابتدأت بنهاية الليل وانقضت بابتداء النهار ، فكانت مثل قطرة الندى التي تسكبها اجفان الظلام ثم تجففها ملامس النور .

كلمة لفظتها النواميس الأزلية ، ثم ندمت عليها وأعادتها الى سكينة الأبدية ...

لؤلؤة قذفها المد الى الشاطىء ، ثم جرفها الجزر الى الأعماق ...

زنبقة ما انبثقت من أكمام الحياة حتى انسحقت تحت أقدام الموت...

ضيف عزيز ترقبت سلمى قدومه ، ولكنه ما حلَّ حتى ارتحل ، وما فتح مصراعي الباب حتى اختفى ...

جنينٌ ما صار طفلاً حتى صار تراباً – وهذه حياة الانسان بل حياة الشعوب ، بل حياة الشموس والأقمار والكواكب . وحوّلت سلمى عينيها نحو الطبيب وتنهدت بشوق جارح ثم صرخت قائلة :

أعطني ابني لاضمه بذراعي ... أعطني ولدي لأرضعه ...

فنكس الطبيب رأسه وقال والغصات تخرسه :

قد مات طفلك يا سيدتي فتجلدي وتصبري لكي تعيشي بعده .

فصرخت سلمى بصوت هائل ثم سكتت هنيهة، ثم ابتسمت ابتسامة فرح ومسرّة ، ثم تهلل وجهها كأنها عرفت شيئاً لم تكن تعرفه وقالت بهدوء : اعطني جثة ولدي . قربه مني ميتاً .

فحمل الطبيب الطفل الميت ووضعه بين ذراعيها فضمته الى صدرها وحوّلت وجهها نحو الحائط وقالت تخاطبه :

قد جئت لتأخذني يا ولدي . جئت لتدلني على الطريق المؤدية الى الساحل . ها انذا يا ولدي فسر امامي لنذهب من هذا الكهف المظلم.

وبعد دقيقة دخلت أشعة الشمس من بين ستائر النافذة وانسكبت على جسدين هامدين منطرحين على مضجع تخفره هيبة الأمومة وتظلله أجنحة الموت .

فخرج الطبيب باكياً من تلك الغرفة ، ولما بلغ القاعة الكبرى تبدلت تهاليل المهنئين بالصراخ والعويل ؛ اما منصور بك غالب فلم يصرخ ولم يتنهد ولم يذرف دمعة ولم يفه بكلمة بل لبث جامداً منتصباً كالصنم قابضاً بيمينه على كأس الشراب .

*

في اليوم التالي كفنت سلمى بأثواب عرسها البيضاء ووضعت في تابوت موشى بالمخمل الناصع ، أما طفلها فكانت أكفانه أقمطته وتابوته ذراعي أمه وقبره صدرها الهادىء .

حملوا الجثتين في نعش واحد ومشوا ببطء متلف يشابه طرقات القلوب في صدور المنازعين، فسار المشيعون وسرت بينهم وهم لا يعرفونني ولا يدرون ما بي .

بلغوا المقبرة فانتصب المطران بولس غالب يرتل ويعزم ، ووقف الكهان حوله ينغمون ويسبحون وعلى وجوههم الكالحة نقاب من الخلو والغفول .

ولما انزلوا التابوت الى اعماق الحفرة همس أحد الواقفين قائلا :

هذه اول مرة رأيت جسدين يضمهما تابوت واحد ...

وقال آخر :

كأن طفلها قد جاء ليأخذها وينقذها من مظالم زوجها وقساوته .

وقال آخر :

تأملوا بوجه منصور بك فهو ينظر الى الفضاء بعينين زجاجيتين كأنه لم يفقد زوجته وطفله في يوم واحد .

وقال آخر :

غداً يزوجه عمه المطران ثانية من امرأة أخرى أوفر ثروة واقوى جسماً .

وظل الكهان يرتلون ويسبحون حتى فرغ حفار القبور من ردم الحفرة فأخذ المشيعون إذ ذاك يقتربون واحداً واحداً من المطران وابن أخيه يصبرونهما ويؤاسونهما بمستعذبات الكلام ، أما أنا فبقيت واقفاً منفرداً وحدي وليس من يعزّيني على مصيبتي ، كأن سلمى وطفلها لم يكونا أقرب الناس اليّ .

عاد المشيعون وبقي حفار القبور منتصباً بجانب القبر الجديد ، وفي يده رفشه ومحفره ، فدنوت منه وسألته قائلاً :

أتذكر أين قبر فارس كرامه ؟

فنظر الي طويلاً ثم أشار نحو قبر سلمى وقال :

في هذه الحفرة قد مددت ابنته على صدره ، وعلى صدر ابنته قد مددت طفلها ، وفوق الجميع قد وضعت التراب بهذا الرفش .

فأجبته : وفي هذه الحفرة ايضاً قد دفنت قلبي أيها الرجل ، فما أقوى ساعديك !

ولما توارى حفار القبور وراء أشجار السرو خانني الصبر والتجلد فارتميت على قبر سلمى أبكيها وأرثيها .

دَمعَة وابتِسَامَة

الى

M. E. H.

اقدم هذا الكتاب ، وهو اول نسمة من عاصفة حياتي ،
الى الروح النبيلة التي تحب النسمات وتسير مع العواصف

جبران

دمعة وابتسامة

توطئة

انا لا أبدل احزان قلبي بافراح الناس ولا أرضى أن تنقلب الدموع التي تستدرها الكآبة من جوارحي وتصير ضحكاً . اتمنى ان تبقى حياتي دمعة وابتسامة: دمعة تطهر قلبي وتفهمني اسرار الحياة وغوامضها، وابتسامة تدنيني من ابناء بجدتي وتكون رمز تمجيدي الآلهة. دمعة أشارك بها منسحقي القلب ، وابتسامة تكون عنوان فرحي بوجودي .

اريد ان اموت شوقاً ولا أحيا مللاً. اريد أن تكون في أعماق نفسي مجاعة للحب والجمال لاني نظرت فرأيت المستكفين أشقى الناس وأقربهم من المادة ، واصغيت فسمعت تنهدات المشتاق المتمني اعذب من رنات المثاني والمثالث .

يأتي المساء فتضم الزهرة أوراقها وتنام معانقة شوقها ، وعندما يأتي الصباح تفتح شفتيها لاقتبال قبلة الشمس، فحياة الازهار شوق ووصال، دمعة وابتسامة .

تتبخر مياه البحر وتتصاعد ثم تجتمع وتصير غيمة وتسير فوق الطلول والأودية حتى اذا ما لاقت نسيمات لطيفة تساقطت باكية نحو الحقول وانضمت الى الجداول ورجعت الى البحر موطنها . حياة الغيوم فراق ولقاء ، دمعة وابتسامة . كذا النفس تنفصل عن الروح العام وتسير في عالم المادة وتمر كغيمة فوق جبال الأحزان وسهول الافراح فتلتقي بنسيمات الموت فترجع الى حيث كانت : الى بحر المحبة والجمال ، الى الله ...

حياة الحب

الربيع

هلمي يا محبوبتي نمشِ بين الطلول ، فقد ذابت الثلوج ، وهبت الحياة من مراقدها وتمايلت في الاودية والمنحدرات. سيري معي لنتتبع آثار اقدام الربيع في الحقل البعيد . تعالي لنصعد الى اعالي الربى ونتأمل تموجات اخضرار السهول حولها .

ها قد نشر فجر الربيع ثوباً طواه ليل الشتاء فاكتست به اشجار الخوخ والتفاح فظهرت كالعرائس في ليلة القدر ، واستيقظت الكروم وتعانقت قضبانها كمعاشر العشاق ، وجرت الجداول راقصة بين الصخور مرددة أغنية الفرح ، وانبثقت الأزهار من قلب الطبيعة انبثاق الزبد من البحر .

تعالي لنشرب بقايا دموع المطر من كؤوس النرجس ونملأ نفسينا باغاني العصافير المسرورة ونغتنم استنشاق عطر النسمات .

لنجلس بقرب تلك الصخرة حيث يختبيء البنفسج ونتبادل قبلات المحبة .

الصيف

هيا بنا الى الحقل يا حبيبتي فقد جاءت ايام الحصاد وبلغ الزرع مبلغه وانضجته حرارة محبة الشمس للطبيعة . تعالي قبل ان تسبقنا الطيور

فتستغل اتعابنا ، وجماعة النمل فتأخذ ارضنا . هلمي نجن ثمار الارض مثلما جنت النفس حبوب السعادة من بذور الوفاء التي زرعتها المحبة في اعماق قلبينا ، ونملأ المخازن من نتاج العناصر كما ملأت الحياة اهراء عواطفنا .

هلمي يا رفيقتي نفترش الأعشاب ونلتحف السماء ونوسد رأسينا بضغث من القش الناعم فنرتاح من عمل النهار ونسمع مسامرة غدير الوادي .

الخريف

لنذهب الى الكرمة يا محبوبتي ونعصر العنب ونوعه في الاجران مثلما تعي النفس حكمة الاجيال ونجمع الأثمار اليابسة ونستقطر الازهار ونستعض عن العين بالاثر .

لنرجع نحو المساكن فقد اصفرّت اوراق الأشجار ونثرها الهواء كأنه يريد أن يكفن بها أزهاراً قضت لوعة عندما ودعها الصيف . تعالي فقد رحلت الطيور نحو الساحل وحملت معها انس الرياض وخلفت الوحشة للياسمين والسيسبان فبكى باقي الدموع على اديم التراب .

لنرجع ! فالجداول قد وقفت عن مسيرها ، والعيون نشفت دموع فرحها ، والطلول خلعت باهي اثوابها . تعالي يا محبوبتي ، فالطبيعة قد راودها النعاس فامست تودع اليقظة باغنية نهاوندية مؤثرة .

الشتاء

اقتربي يا شريكة حياتي ، اقتربي مني ولا تدعي انفاس الثلوج تفصل جسمينا . اجلسي بجانبي امام هذا الموقد، فالنار فاكهة الشتاء الشهية . حدثيني بآتي الأجيال، فأذناي قد تعبتا من تأوه الرياح وندب العناصر . اوصدي الابواب والنوافذ ، فمرأى وجه الجو الغضوب يحزن نفسي ، والنظر الى المدينة الجالسة كالثكلى تحت أطباق الثلوج يدمي قلبي ... اسقي السراج زيتاً ، يا رفيقة عمري ، فقد اوشك ان ينطفىء ، وضعيه بالقرب منك لارى ما كتبته الليالي على وجهك . . . تي بجرة الخمر لنشرب ونذكر ايام العصر .

اقتربي ! اقتربي مني يا حبيبة نفسي ، فقد خمدت النار وكاد الرماد يخفيها . . . ضميني ، فقد انطفأ السراج وتغلبت عليه الظلمة . . . ها قد اثقلت اعيننا خمرة السنين . . . ارمقيني بعين كحلها النعاس . . . عانقيني قبل أن يعانقني الكرى . . . قبليني فالثلج قد تغلب على كل شيء الا قبلتك . . . آه يا حبيبتي ما اعمق بحر النوم ! آه ما ابعد الصباح . . . في هذا العالم !

حكاية

على ضفة ذلك النهر، في ظل اشجار الجوز والصفصاف ، جلس ابن زرّاع يتأمل المياه الجارية بسكينة وهدوء . فتى ربي بين الحقول حيث يتكلم كل شيء عن الحب . حيث الاغصان تتعانق ، والأزهار تتمايل ، والطيور تتشبب . حيث الطبيعة باسرها تكرز بالروح . ابن عشرين رأى بالامس على الينبوع صبية جالسة بين الصبايا فاحبها ثم علم انها ابنة الامير فلام قلبه وشكا نفسه الى نفسه ، لكن الملامة لا تميل بالقلب عن الحب ، والعذل لا يصرف النفس عن الحقيقة ، والانسان بين قلبه ونفسه كغصن لين في مهب ريح الجنوب وريح الشمال .

نظر الفتى فرأى زهرة البنفسج قد نبتت بقرب زهرة الاقحوان ، ثم سمع الهزار يناجي الشحرور ، فبكى لوحدته وانفراده ، ثم مرت ساعات حبه امام عينيه مرور الأشباح فقال وعواطفه تسيل مع كلماته ودموعه :

– هوذا الحب يستهزىء بي . ها قد جعلني سخرية وقادني الى حيث الآمال تعد عيوباً والأماني مذلة . الحب الذي عبدته قد رفع قلبي الى قصر الأمير وخفض منزلتي الى كوخ الزراع وسار بنفسي الى جمال حورية تحيط بها الرجال ويحميها الشرف الرفيع . . . انا طائع ايها الحب فماذا تريد ؟ قد اتبعتك على سبل نارية فلذعني اللهيب . قد

فتحت عيني فلم أرَ غير الظلمة ، واطلقت لساني فلم اتكلم بغير الاسى. قد عانقني الشوق ايها الحب بمجاعة روحية لن تزول بغير قبل الحبيب. انا ضعيف ايها الحب فلمَ تخاصمني وانت القوي ؟ لماذا تظلمني وأنت العادل وأنا البريء ؟ لماذا تذلني ولم يكن غيرك ناصري ؟ لماذا تتخلى عني وانت موجدي ؟ ان جرى دمي بغير مشيئتك فاهرقه ، وان تحركت قدماي على غير طرقك فشلهما . افعل مشيئتك بهذا الجسد وخلّ نفسي تفرح بهذه الحقول المستأمنة بظل جناحيك . . . الجداول تسير الى حبيبها البحر ، والازهار تبتسم لعشيقها النور ، والغيوم تهبط نحو مريدها الوادي ، وانا وبي ما لا تعرفه الجداول ولا تسمع به الأزهار ولا تدركه الغيوم قد رأيتني وحيداً في محنتي منفرداً في غرامي بعيداً عن التي لا تريدني جندياً في كتائب أبيهـــا ، ولا ترضاني خادماً في قصرها .

وسكت الفتى هنيهـة كأنه يريد أن يتعلم الكلام من خرير النهر وحفيف اوراق الغصون ، ثم عاد فقال :

— وأنت يا من اخاف من اسمها ان ادعوها باسمها ، ايتها المحجوبة عني بستائر العظمة وجدران الجلال ، ايتها الحورية التي لا اطمع بلقائها الا في الابدية حيث المساواة ، يا من تطيعها الصوارم وتنحني امامها الرقاب وتنفتح لهـا الخزائن والمساجد ، قد ملكت قلباً قدسه الحب واستعبدت نفساً شرّفها الله وخلبت عقلاً كان بالامس حراً بحرية هذه الحقول فصار اليوم اسيراً بقيود هذا الغرام . رأيتـك ايتهـا الجميلة فعرفت سبب مجيئي الى هذا العالم ، ولما عرفت رفعة منزلتك ونظرت

الى حقارتي علمت ان للآلهة اسراراً لا يعرفها الانسان ، وسبلاً تذهب بالارواح الى حيث المحبة تقضي بغير الشرائع البشرية . ايقنت لما نظرت الى عينيك ان هذه الحياة فردوس بابه القلب البشري ، ولما رأيت شرفك وذلي يتصارعان صراع مارد ورئبال علمت ان هذه الارض لم تعد وطناً لي . ظننت لما وجدتك جالسة بين نسائك ، كالوردة بين الرياحين ، ان عروس احلامي قد تجسدت وصارت بشراً مثلي ، ولما تخبرت مجد أبيك وجدت ان دون اجتناء الورد اشواكاً تدمي الاصابع ، وان ما تجمعه الاحلام تفرقه اليقظة ...

وقام اذ ذاك ومشى نحو الينبوع منخفض الجناح ، كسير القلب ، مجسماً الاسى والقنوط بهذه الكلمات :

– تعال يا موت وانقذني، فالارض التي تخنق اشواكها ازهارها لا تصلح للسكن . هلم وخلصني من ايام تخلع الحب عن كرسي مجده وتقيم الشرف العالي مكانه . خلصني يا موت فالابدية اجدر بلقاء المحبين من هذا العالم. هناك يا موت انتظر حبيبتي وهناك اجتمع بها.

بلغ الينبوع وقد جاء المساء واخذت الشمس تلم وشاحها الذهبي عن الحقل ، فجلس يذرف الدموع على حضيض وطئته قدما ابنة الأمير وقد حنى رأسه على صدره كأنه يمنع قلبه من الخروج .

في تلك الدقيقة ظهرت من وراء اشجار الصفصاف صبية تجر اذيالها على الاعشاب ووقفت بجانب الفتى ووضعت يدها الحريرية على رأسه ، فنظر اليها نظرة نائم ايقظه شعاع الشمس ، فرأى ابنة الامير واقفة حذاءه فجثا على ركبتيه مثلما فعل موسى عندما رأى العليقة مشتعلة

امامه ، ولما اراد الكلام ارتج عليه فنابت عيناه الطافحتان بالدمع عن لسانه .

ثم عانقته الصبية وقبلت شفتيه ، وقبلت عينيـــه واشفة المدامع السخينة ، وقالت بصوت الطف من نغمة الناي :

– قد رأيتك يا حبيبي في احلامي ونظرت وجهـك في وحـدتي وانقطاعي، فانت رفيق نفسي الذي فقدته ونصفي الجميل الذي انفصلت عنـه عندما حكم عليَّ بالمجيء الى هذا العالم . قـد جئت سراً يا حبيبي لالتقيك وهـا انت الآن بين ذراعي ، فلا تجزع ! قـد تركت مجد والدي لاتبعك الى اقاصي الارض وأشرب معك كأس الحياة والموت. قم يا حبيبي فنذهب الى البرية البعيدة عن الانسان .

ومشى الحبيبان بين الاشجار تخفيهما ستائر الليل ولا يخيفهما بطش الأمير ولا اشباح الظلمة .

هناك في اطراف البلاد عثر رواد الأمير عـلى هيكلين بشريين في عنق احدهما قلادة ذهبية وبقربهما حجر كتبت عليه هذه الكلمات :

قد جمعنا الحب فمن يفرقنا ، وأخذنا الموت فمن يرجعنا ؟

في مدينة الاموات

تملصت بالأمس من غوغاء المدينة وخرجت امشي في الحقول الساكنة حتى بلغت اكمة عالية ألبستها الطبيعة اجمل حلاها ، فوقفت وقد بانت المدينة بكل ما فيها من البنايات الشاهقة والقصور الفخمة تحت غيمة كثيفة من دخان المعامل .

جلست أتأمل عن بعد بأعمال الانسان فوجدت اكثرها عناء ، فحاولت في قلبي الا افكر بما صنعه ابن آدم وحوّلت عينيّ نحو الحقل كرسي مجد الله فرأيت في وسطه مقبرة ظهرت فيها الاجداث الرخامية المحاطة بأشجار السرو .

هناك بين مدينة الاحياء ومدينة الاموات جلست افكر ، افكر في كيفية العراك المستمر والحركة الدائمة في هذه ، وفي السكينة السائدة والهدوء المستقر في تلك . من الجهة الواحدة آمال وقنوط ، ومحبة وبغضة ، وغنى وفقر ، واعتقاد وجحود ، ومن الاخرى تراب في تراب تقلب الطبيعة بطنه ظاهراً وتبدع منه نباتاً ثم حيواناً ، وكل ذلك يتم في سكينة الليل .

بينا أنا مستسلم لعوامل هذه التأملات استلفت ناظري جمع غفير يسير الهوينا تتقدمه الموسيقى وتملأ الجو ألحاناً محزنة . موكب جمع بين الفخامة والعظمة وآلف بين أشكال الناس . جنازة غني قوي . رفات ميت يتبعه الأحياء وهم يبكون ويولولون ويملأون الهواء الصراخ والعويل .

بلغوا الجبانة فاجتمع الكهان يصلون ويبخرون، وانفرد الموسيقيون ينفخون الابواق . وبعد قليل انبرى الخطباء فأبنوا الراحل بمنتقيات الكلام، ثم الشعراء فرثوه بمنتخبات المعاني، وكل ذلك كان يتم بتطويل ممل . وبعد قليل انقشع الجمع عن جدث تسابق في صنعه الحفارون والمهندسون وحوله اكاليل الأزهار المنمقة بأيدي المتفننين .

رجع الموكب نحو المدينة وانا انظر من بعيد وافكر .

ومالت الشمس نحو الغروب واستطالت أخيلة الصخور والاشجار واخذت الطبيعة تخلع اثواب النور .

في تلك الدقيقة نظرت فرأيت رجلين يقلان تابوتاً خشبياً ووراءهما امرأة ترتدي اطماراً بالية وهي حاملة على منكبيها طفلاً رضيعاً وبجانبها كلب ينظر اليها تارة والى التابوت اخرى . جنازة فقير حقير، وراءها زوجة تذرف دموع الاسى وطفل يبكي لبكاء امه وكلب امين يسير وفي مسيره حزن وكآبة .

وصل هؤلاء الى المقبرة واودعوا التابوت حفرة في زاوية بعيدة عن الاجداث الرخامية ثم رجعوا بسكينة مؤثرة والكلب يتلفت نحو محط رحال رفيقه حتى اختفوا عن بصري وراء الاشجار .

فالتفتُ اذ ذاك نحو مدينة الأحياء وقلت في نفسي : تلك للاغنياء الاقوياء . ثم نحو مدينة الاموات وقلت : هذه للاغنياء الاقوياء . فاين موطن الفقير الضعيف يا رب ؟

قلت هذا ونظرت نحو الغيوم المتلبدة المتلونة اطرافها بذهب من اشعة الشمس الجميلة، وسمعت صوتاً من داخلي يقول : هناك .

موت الشاعر حياته

خيم الليل بجنحه فوق المدينة وألبسها الثلج ثوباً وهزم البرد ابن آدم من الاسواق فاختبأ في أوكاره . وقامت الرياح تتأوه بين المساكن كمؤبن وقف بين القبور الرخامية يرثي فريسة الموت .

وكان في أطراف الاحياء بيت حقير تداعت اركانه واثقلته الثلوج حتى اوشك ان يسقط ، وفي احدى زوايا ذلك البيت فراش بال عليه محتضر ينظر الى سراج ضعيف يغالب الظلمة فتغلبه . فتى في ربيع العمر قد علم بقرب أجل انعتاقه من قيود الحياة فصار ينتظر المنيّة وعلى وجهه المصفر نور الأمل وعلى شفتيه ابتسامة محزنة . شاعر جاء ليفرح قلب الانسان بأقواله الجميلة يموت جوعاً في مدينة الاحياء الاغنياء . نفس شريفة هبطت مع نعم الآلهة لتجعل الحياة عذبة تودّع دنيانا قبل ان تبتسم لها الانسانية . منازع يلفظ انفاسه الاخيرة وليس بقربه سوى سراج كان رفيق وحدته واوراق عليها أخيلة روحه اللطيفة .

جمع ذلك الفتى المنازع بقايا قوة قاربت الفناء ورفع يديه نحو العلاء وحرّك اجفانه الذابلة كأنه يريد ان يخرق بنظراته الاخيرة سقف ذلك الكوخ البالي ليرى النجوم من وراء الغيوم ، ثم قال :

تعالي ايتها المنية الجميلة فقد اشتاقتك نفسي . اقتربي وحلي قيود

المادة فقد تعبت من جرّها . تعالي اليّ يا ايتهـا المنية الحلوة وانقذيني من بـين البشر الذين يحسبونني غريباً عنهم لاني اترجم ما اسمعـه من الملائكة الى لغة البشر . اسرعي نحوي فقد تخلى عني الانسان وطرحني في زوايا النسيان لاني لم اكن طامعاً بالمال نظيره ولا باستخدام من هو اضعف مني . تعالي اليّ ايتها المنيـة العذبة وخذيني فاولاد بجدتي لا يحتاجون اليّ . ضميني الى صدرك المملوء محبة. قبلي شفتي التي لم تذق طعم قبلة الوالدة ولا لمست وجنة الاخت ولا لثمت ثغر المحبوبة . اسرعي وعانقيني يا حبيبتي المنية .

انتصب اذ ذاك بجانب فراش المنازع طيف امرأة ذات جمال غير بشري ترتدي ثوباً ناصعاً كالثلج وتحمـل بيدها اكليل زنابق من نبت الحقول العلوية ، ثم دنت منه وعانقته واغمضت عينيه كي يراها بعين نفسه، وقبلت شفتيه قبلة محبة، قبلة تركت على شفتيه ابتسامة اكتفاء .

في تلك الدقيقـة اصبح ذلك البيت خاليـاً الا من التراب وبعض اوراق منثورة في زوايا الظلمة .

مرت الاجيال وسكان تلك المدينة غرقى في سبات الجحود والاهمال، ولما استفاقوا ورأت عيونهم فجر المعرفـة اقاموا لذلك الشاعر تمثالاً عظيماً في وسط الساحة العمومية وعيّدوا له في كل عام عيداً . . .
آه ما اجهل الانسان !

بنات البحر

في اعماق البحر الذي يحيط بالجزائر القريبة من مطلع الشمس — هنالك في الاعماق حيث الدر الكثير جثة فتى هامدة بقربها بنات البحر ذوات الشعور الذهبية قد جلسن بين نبات المرجان ينظرن اليها بعيونهن الزرقاء الجميلة ويتحدثن باصوات موسيقية ، حديثاً سمعته اللجة فحملته الامواج الى الشواطىء فجاء به النسيم الى نفسي .

قالت واحدة :

هذا بشريّ هبط بالأمس اذ كان البحر حانقاً .

فقالت الثانية :

لم يكن البحر حانقاً ولكن الانسان — وهو الذي يدّعي بانه من سلالة الآلهة — كان في حرب حامية أهرقت فيها الدماء حتى صار لون الماء قرمزيّاً . وهذا البشري هو قتيل الحرب .

فقالت الثالثة :

لا أدري ما هي الحرب ولكني اعلم ان الانسان بعد ان تغلب على اليابسة طمع بالسيادة على البحر فابتدع الآلات الغريبة ومخر العباب ، فدرى نبتون إله البحار وغضب من هذا التعدي ، فلم يرَ الانسان بداً إذ ذاك من ارضاء مليكنا بالذبائح والهدايا . فالأشلاء التي رأيناها بالامس هابطة هي آخر تقدمة من الانسان الى نبتون العظيم .

فقالت الرابعة :

ما اعظم نبتون ولكن ما اقسى قلبه ! لو كنت انا سلطانة البحار لما رضيت بالذبائح الدموية . تعالي لنرى جثة هذا الشاب فربما افادتنا شيئاً عن طائفة البشر .

اقتربت بنات البحر من جثمان الشاب وبحثن في جيوب اثوابه فعثرن على رسالة في الثوب الملاصق قلبه ، فاخذت الرسالة واحدة منهن وقرأت :

يا حبيبي ! ها قد انتصف الليل وانا ساهرة وليس لي مسلٍّ غير دموعي ، ولا معزٍّ سوى أملي برجوعك إليّ من بين مخالب الحرب ، ولا اقدر ان افكر إلا بما قلته لي عند الوداع بأن عند كل انسان امانة من الدمع لا بد من ردّها يوماً ... لا ادري يا حبيبي ماذا اكتب بل أترك نفسي تسيل على الورق . نفس يعذبها الشقاء ويعزيها الحب الذي يجعل الألم لذة والاحزان مسرة ... لما وحد الحب قلبينا وصرنا نتوقع ضم جسمين تجول فيهما روح واحدة ، نادتك الحرب فاتبعتها مدفوعاً بعوامل الواجب والوطنية . ما هذا الواجب الذي يفرق المحبين ويرمل النساء وييتم الاطفال ؟ ما هذه الوطنية التي من اجل اسباب صغيرة تدعو الحرب لتخريب البلاد ؟ ما هذا الواجب المحتوم على القروي المسكين والذي لا يحفل به القوي وابن الشرف الموروث ؟ إذا كان الواجب ينفي السلم من بين الامم ، والوطنية تزعج سكينة حياة الانسان ، فسلام على الواجب والوطنية ... لا ، لا يا حبيبي لا تحفل بكلامي بل كن شجاعاً ومحباً لوطنك ولا تسمع كلام ابنة اعماها الحب

وأضاع بصيرتها الفراق ... إذا كان الحب لا يرجعك الي في هذه الحياة فالحب يضمني اليك في الحياة الآتية .

وضعت بنات البحر تلك الرسالة تحت اثواب الشاب وسبحن بسكينة محزنة ، ولما بعدن قالت واحدة منهن :

إن قلب الانسان اقسى من قلب نبتون .

النفس

... وفصل إله الآلهة عن ذاته نفساً وابتدع فيها جمالاً .

واعطاها رقة نسيمات السحر وعطر ازاهر الحقل ولطف نور القمر .

ووهبها كأس سرور وقال : لن تشربي منها الا اذا نسيتِ الماضي واهملتِ الآتي . وكأس حزن وقال : تشربين منها فتدركين كنه فرح الحياة .

وبث فيها محبة تفارقها مع اول تنهدة استكفاء وحلاوة تخرج منها مع اول كلمة ترفّع .

واسقط عليها علماً من السماء ليرشدها الى سبل الحق .

ووضع في اعماقها بصيرة ترى ما لا يُرى .

وابتدع فيها عاطفة تسيل مع الأخيلة وتسير مع الاشباح .

والبسها ثوب شوق حاكته الملائكة من تموجات قوس قزح .

ثم وضع فيها ظلمة الحيرة وهي خيال النور .

واخذ الاله ناراً من مصهر الغضب ، وريحاً تهب من صحراء الجهل ، ورملاً من على شاطىء بحر الأنانية ، وتراباً من تحت أقدام الدهور وجبل الانسان .

واعطاه قوة عمياء تثور عند الجنون وتخمد امام الشهوات .

ثم وضع فيه الحياة وهي خيال الموت .

وابتسم إله الآلهة وبكى وشعر بمحبة لا حد لها ولا مدى وجمع بين الانسان ونفسه .

ابتسامة ودمعة

لمت الشمس اذيالها عن تلك الحدائق الناضرة وطلع القمر من وراء الافق وسكب عليها نوراً لطيفاً وانا جالس هنالك تحت الاشجار اتأمل انقلاب الجو من حالة الى حالة وانظر من خلال الاغصان الى النجوم المنثورة كالدراهم على بساط ازرق واسمع من بعيد خرير جداول الوادي .

ولما استأمنت الطيور بين القضبان المورقة واغمضت الازهار عيونها وسادت السكينة سمعت وقع اقدام خفيفة على الاعشاب ، فحولت نظري واذا بفتى وفتاة يقتربان مني ، ثم جلسا تحت شجرة غضة وانا اراهما ولا أرى .

وبعيد ان تلفت الفتى الى كل ناحية سمعته يقول : اجلسي بجانبي يا حبيبتي واسمعيني . ابتسمي لان ابتسامتك هي رمز مستقبلنا ، وافرحي لان الايام قد فرحت من اجلنا . حدثتني نفسي بالشك الذي يخامر قلبك والشك في الحب اثم يا حبيبتي . عن قريب تصيرين سيدة هذه الاملاك الواسعة التي ينيرها ذلك القمر الفضي ، وربة هذا القصر المضاهي قصور الملوك ، تجرك خيولي المطهمة في المتنزهات وتذهب بك مركباتي الجميلة الى المراقص والملاهي . ابتسمي يا حبيبتي كما يبتسم الذهب في خزائني ، وارمقيني كما ترمقني جواهر والدي . اسمعي يا حبيبتي فقد

ابى قلبي الا ان يسكب امامك مخبآته . امامنا سنة العسل . سنة نصرفها مع الذهب الكثير على شواطىء بحيرات سويسرا وفي متنزهات ايطاليا وقرب قصور النيل وتحت اغصان ارز لبنان . سوف تلتقين الاميرات والسيدات فيحسدنك على حلاك وملابسك . كل ذلك لك مني . فهلا رضيت ؟ آه ما احلى ابتسامك ! ابتسامك يحاكي ابتسام دهري .

وبعد قليل رأيتهما يمشيان على مهل ويدوسان الازهار باقدامهما كما تدوس قدم الغني قلب الفقير .

غابا عن بصري وانا افكر بمنزلة المال عند الحب . افكر بالمال مصدر شرور الانسان وبالحب منبع السعادة والنور .

ظللت تائهاً في مسارح هذه الافكار حتى لمحت شبحين مرّا من امامي وجلسا على الاعشاب . فتى وفتاة اتيا من جهة الحقول حيث اكواخ الفلاحين في المزارع . وبعد هنيهة من سكينة مؤثرة سمعت هذا الكلام صادراً مع تنهدات عميقة من فم مصدور : كفكفي الدمع يا حبيبتي . ان المحبة التي شاءت ففتحت اعيننا وجعلتنا من عبادها تهبنا نعمة الصبر والتجلد . كفكفي الدمع وتعزي لاننا تحالفنا على دين الحب ، ومن اجل الحب العذب نحتملُ عذاب الفقر ومرارة الشقاء وتباريح الفراق ، ولا بد لي من مصارعة الايام حتى اظفر بغنيمة تليق بان اضعها بين يديك تساعدنا على قطع مراحل العمر . ان المحبة يا حبيبتي ، وهي الله ، تقتبل منا هذه التنهدات وهذه الدموع كبخور عاطر ، وهي تكافئنا عليها بقدر ما نستحق . اودّعك يا حبيبتي فانا راحل قبل ان يغيب القمر .

ثم سمعت صوتاً رقيقاً تقاطعه زفرات انفاس متلهبة ، صوت عذراء لطيفة اودعته كل مـا في جوارحهـا من حرارة الحب ومرارة التفرق وحلاوة التجلد تقول : الوداع يا حبيبي .

ثم افترقا وانا جالس تحت اغصان تلك الشجرة تتجاذبني ايدي الشفقة وتتساهمني اسرار هذا الكون الغريب .

ونظرت تلك الساعة نحو الطبيعة الراقدة وتأملت ملياً فوجدت فيها شيئاً لا حد له ولا نهاية . شيئاً لا يشترى بالمـال . وجدت شيئـاً لا تمحوه دموع الخريف ولا يميته حزن الشتاء . شيئاً لا توجده بحـيرات سويسرا ولا متنزهات ايطاليا . وجدت شيئاً يتجلد فيحيـا في الربيع ويثمر في الصيف . وجدت فيها المحبة .

رؤيا

هناك في وسط الحقل على ضفة جدول بلوري رأيت قفصاً حبكت ضلوعه يد ماهرة . وفي احدى زوايا القفص عصفور ميت وفي زاوية اخرى جرن جف ماؤه وجرن نفدت بذوره .

فوقفت وقد امتلكتني السكينة وأصغيت صاغراً كأن في الطائر الميت وصوت الجدول عظة تستنطق الضمير وتستفسر القلب . وتأملت فعلمت ان ذلك العصفور الحقير قد صارع الموت عطشاً وهو بجانب مجاري المياه ، وغالبه جوعاً وهو في وسط الحقول التي هي مهد الحياة كغني اقفلت عليه ابواب خزائنه فمات جوعاً بين الذهب .

وبعد هنيهة رأيت القفص قد انقلب فجاءةً وصار هيكل انسان شفافاً ، وتحول الطائر الميت الى قلب بشري فيه جرح عميق يقطر دماً قرمزياً وقد حاكت جوانب الجرح شفتي امرأة حزينة .

ثم سمعت صوتاً خارجاً من الجرح مع قطرات الدماء قائلاً: انا هو القلب البشري اسير المادة وقتيل شرائع الانسان الترابي . في وسط حقل الجمال ، على ضفة ينابيع الحياة ، أسرت في قفص الشرائع التي سنها الانسان للشواعر . على مهد محاسن المخلوقات بين ايدي المحبة متُّ مهملاً لان ثمار تلك المحاسن ونتاج هذه المحبة قد حرّما عليّ . كل ما يشوقني صار بعرف الانسان عاراً ، وجميع ما اشتهيه اصبح في قضائه مذلة .

انا القلب البشري قد حبست في ظلمة سنن الجامعة فضعفت ، وقيدت بسلاسل الاوهام فاحتضرت ، واهملت في زوايا غي المدنية فقضيت ولسان الانسانية منعقد وعيونها ناشفة وهي تبتسم .

سمعت هذه الكلمات ورأيتها خارجة مع قطرات الدم من ذلك القلب الجريح ، وبعد ذلك لم أعد أرى شيئاً ولم اسمع صوتاً فرجعت الى حقيقتي .

الجمال

ان الجمال دين الحكماء
شاعر هندي

يا ايها الذين حاروا في سبيل الاديان المتشعبة وهاموا في اودية الاعتقادات المتباينة فرأوا حرية الجحود اوفى من قيــود التسليم ، ومسارح النكران اسلم من معاقل الاتباع، اتخذوا الجمال ديناً واتقوه رباً ، فهو الظاهر في كمال المخلوقات البادي في نتائج المعقولات. انبذوا الألى مثلوا التدين لهواً وآلفوا بين طمعهم بالمال وشغفهم بحسن المآل وآمنوا بألوهية جمال كان بدء استحسانكم الحياة ومنبع محبتكم السعادة ثم توبوا اليه فهو المقرب قلوبكم من عرش المرأة مرآة شعائركم والمدرب انفسكم في مجال الطبيعة موطن حياتكم .

ويا ايها الذين ضاعوا في ليل التقولات وغرقوا في لجج الاوهام، ان في الجمال حقيقة نافية الريب ، مانعة الشك ، ونوراً باهراً يقيكم ظلمة البُطل . تأملوا يقظة الربيـــع ومجيء الصبح ، ان الجمـال نصيب المتأملين .

اصغوا لأنغام الطيور ، وحفيف الأغصان ، وخرير الجدول ، ان الجمال قسمة السامعين . انظروا وداعة الطفل ، وظرف الشاب، وقوة الكهل ، وحكمة الشيخ ، ان الجمال فتنة الناظرين .

تشببوا بنرجس العيون، وورد الخدود ، وشقيق الفم ، ان الجمال يتمجد بالمتشببين . سبحوا لغصن القد ، وليل الشعر ، وعاج العنق ، ان الجمال يسر بالمسبحين. كرسوا الجسد هيكلا للحسن وقدسوا القلب مذبحاً للحب ، ان الجمال يجازي المتعبدين .

تهللوا يا ايها الذين أنزلت عليهم آيات الجمال وافرحوا اذ لا خوف عليكم ولا انتم تحزنون .

الحروف النارية

احفروا على لوح قبري :
« هنا رفات من كتب اسمه بماء »
جان كيتس

أهكذا تمر بنا الليالي ؟ أهكذا تندثر تحت أقدام الدهر ؟ أهكذا تطوينا الأجيال ، ولا تحفظ لنا سوى اسم تخطه على صحفها بماء بدلاً من المداد ؟

أينطفىء هذا النور ، وتزول هذه المحبة ، وتضمحل هذه الأماني ؟ أيهدم الموت كل ما نبنيه ، ويذري الهواء كل ما نقوله ، ويخفي الظل كل ما نفعله ؟

اهذه هي الحياة ؟ هل هي ماضٍ قد زال واختفت آثاره ، وحاضر يركض لاحقاً بالماضي ، ومستقبل لا معنى له إلا اذا ما مرّ وصار حاضراً او ماضياً ؟

أتزول جميع مسرات قلوبنا وأحزان انفسنا بدون ان نعلم نتائجها؟ اهكذا يكون الانسان مثل زبد البحر يطفو دقيقة على وجه الماء ثم تمر نسيمات الهواء فتطفئه ويصبح كأنه لم يكن ؟

لا لعمري ، فحقيقة الحياة حياة . حياة لم يكن ابتداؤها في الرحم ولن يكون منتهاها في اللحد . وما هذه السنوات الا لحظة من حياة

أزلية أبدية . هذا العمر الدنيوي مع كل ما فيه هو حلم بجانب اليقظة التي ندعوها الموت المخيف . حلم ولكن كل ما رأيناه وفعلناه فيه يبقى ببقاء الله .

فالأثير يحمل كل ابتسامة وكل تنهدة تصعد من قلوبنا ، ويحفظ صدى كل قبلة مصدرها المحبة . والملائكة تحصي كل دمعة يقطرها الحزن من مآقينا ، وتعيد على مسمع الأرواح السابحة في فضاء اللانهاية كل أنشودة ابتدعها الفرح من شواعرنا .

هناك في العالم الآتي سنرى جميع تموجات شواعرنا واهتزازات قلوبنا ، وهناك ندرك كنه ألوهيتنا التي نحتقرها الآن مدفوعين بعوامل القنوط .

الضلال الذي ندعوه اليوم ضعفاً سيظهر في الغد كحلقة كيانها واجب لتكملة سلسلة حياة ابن آدم .

الاتعاب التي لا نكافأ عليها الآن ستحيا معنا وتذيع مجدنا .

الارزاء التي نحتملها ستكون اكليلاً لفخرنا .

هذا ولو علم « كيتس » ذلك البلبل الصداح ان أناشيده لم تزل تبث روح محبة الجمال في قلوب البشر لقال :

احفروا على لوح قبري : هنا بقايا من كتب اسمه على أديم السماء بأحرف من نار .

بين الخرائب

وشح القمر تلك الخمائل المحاطة بمدينة الشمس برقعاً لطيفاً ، وظفر الهدوء بأعنة الكائنات ، وبانت تلك الخرائب الهائلة كأنها جبّار يهزأ بعاديات الليالي .

في تلك الساعة انبثق من لا شيء خيالان يشبهان أبخرة متصاعدة من بحيرة زرقاء وجلسا على عمود رخامي استأصله الدهر من ذلك البناء الغريب يتأملان بمحيط يحاكي مسارح السحر . وبعد هنيهة رفع احدهما رأسه ، وبصوت يشبه الصدى الذي تردده خلايا الاودية البعيدة قال :

هذه بقايا هياكل بنيتها من اجلك يا محبوبتي ، وتلك رمم قصر رفعته لاستحسانك وقد دكت ولم يبق منها سوى أثر يحدّث الامم بمجد صرفت الحياة لتعميمه وعزٍّ استخدمت الضعفاء لتعظيمه . تأملي يا محبوبتي ، فقد تغلبت العناصر على مدينة شيدتها ، واستصغرت الاجيال حكمة رأيتها ، وأضاع النسيان ملكاً رفعته ولم يبقَ لي سوى دقائق المحبة التي اولدها جمالك ونتائج الجمال الذي احياه حبك . بنيت هيكلاً في أورشليم للعبادة فقدسه الكهان ثم سحقته الايام ، وبنيت هيكلاً بين اضلعي للمحبة فقدسه الله ولن تقوى عليه القوات . صرفت العمر مستفسراً ظواهر الاشياء مستنطقاً اعمال المادة فقال الانسان : ما أحكمه ملكاً ! وقالت الملائكة : ما اصغره حكيماً ! ثم رأيتك يا

محبوبتي وغنيت فيك نشيد محبة وشوق ففرحت الملائكة ، اما الانسان فلم ينتبه . . . كانت أيام ملكي كالحواجز بين نفسي الظمآنة والروح الجميل المستقر في الكائنات، ولما رأيتك استيقظت المحبة وهدمت تلك الحواجز فأسفت على عمر صرفته مستسلماً لتيارات القنوط حاسباً كل شيء تحت الشمس باطلا . حبكت الدروع وطرقت التروس فخافتني القبائل ، ولما انارتني المحبة احتُقرت حتى من شعبي ، ولكن عندما جاء الموت اودع تلك الدروع والتروس التراب وحمل محبتي الى الله .

وبُعيد سكينة قال الخيال الثاني : مثلما تكتسب الزهرة عطرها وحياتها من التراب كذلك تستخلص النفس من ضعف المادة وخطاءها قوة وحكمة .

عندئذ تمازج الخيالان وصارا خيالاً واحداً وسارا . وبعد هنيهة اذاع الهواء هذه الكلمات في تلك الانحاء : لا تحفظ الأبدية الا المحبة لانها مثلها . . .

رؤيا

ارفع هذه الرسالة الى الفيكونتس
س. ل. جواباً على رسالة اكرمتني بها

مشى الشباب امامي فاتبعت مسيره، حتى اذا بلغنا حقلاً بعيداً وقف متأملاً الغيوم الجارية فوق خط الشفق كأنها قطيع نعاج بيضاء، والاشجار المشيرة بأغصانها العارية الى العلاء كأنها تطلب من السماء استرجاع اوراقها الغضة. فقلت: اين نحن ايها الشباب؟ قال: في حقول الحيرة فانتبه. قلت: لنرجع! لأن وحشة المكان تخيفني ومرأى الغيوم والاشجار العارية يحزن نفسي. قال: اصبر فالحيرة بدء المعرفة. ثم نظرت فاذا بحورية تقترب منا كالخيال فصرخت مستغرباً: من هذه؟ قال: هي ميلبومين ابنة جوبتير وربة الروايات المحزنة. قلت: وماذا تبتغي الاحزان مني وانت بجانبي ايها الشباب المفرح؟ قال: جاءت لتريك الارض واحزانها، ومن لا يرى الاحزان لا يرى الفرح.

ووضعت الحورية يدها على عيني، ولما رفعتها رأيتني منفصلاً عن شبابي مجرداً من ثوب المادة. فقلت: اين الشباب يا ابنة الآلهة؟ فلم تجبني بل ضمتني بجناحيها وطارت بي الى قمة جبل عالٍ فرأيت الارض وما فيها منبسطة أمامي كالصفحة واسرار سكانها ظاهرة لعيني كالخطوط، فوقفت متهيباً بجانب الحورية متأملاً خفايا الانسان مستفسراً رموز

الحياة . رأيت ، وليتني لم أرَ . رأيت ملائكة السعادة تحارب ابالسة الشقاء والانسان بينهما في حيرة تميل به نحو الامل تارة والقنوط اخرى . رأيت الحب والبغض يلعبان بالقلب البشري : هذا يستر ذنوبه ويسكره بخمرة الاستسلام ويطلق لسانه بالمدح والاطراء ، وذاك يهيج خصوماته ويعميه عن الحقيقة ويغلق سامعته عن القول الصحيح . رأيت المدينة جالسة كابنة الأزقة متشبثة باذيال ابن آدم . ثم رأيت البرية الجميلة واقفة عن بعد تبكي من اجله .

رأيت الكهان يروغون كالثعالب ، والمسحاء الكذبة يحتالون على ميول النفس ، والانسان يصرخ مستنجداً بالحكمة وهي نافرة عنه غضبى عليه لانه لم يسمعها عندما نادته في الشوارع على رؤوس الاشهاد. رأيت القسوس يكثرون رفع عيونهم الى السماء وقلوبهم مطمورة في قبور المطامع . رأيت الفتيان يتحببون بألسنتهم ويقتربون بآمال تزفهم والوهيتهم بعيدة وعواطفهم نائمة . رأيت المشرعين يتاجرون بثرثرة الكلام بسوق الخداع والرياء والاطباء يلعبون بارواح البسطاء الواثقين. رأيت الجاهل يجالس العاقل فيرفع ماضيه على عرش المجد ويوسد حاضره بساط السعة ويمدّ لمستقبله فراش الفخامة . رأيت الفقراء المساكين يزرعون والاغنياء الاقوياء يحصدون ويأكلون والظلم واقف هناك والناس يدعونه الشريعة . رأيت لصوص الظلمة يسرقون كنوز العقل وحراس النور غرقى في كرى التواني . رأيت المرأة كالقيثارة في يد رجل لا يحسن الضرب عليها فتُسمعه انغاماً لا ترضيه . رأيت تلك الكتائب المعروفة تحاصر مدينة الشرف الموروث . لكني رأيت

كتائب قد اندحرت لانها قليلة غير متحدة . رأيت الحرية الحقيقية تسير وحدها في الشوارع وامام الابواب تطلب مأوى والقوم يمنعونها . ثم رأيت الابتذال يسير بموكب عظيم والناس يدعونه الحرية . رأيت الدين مدفوناً طي الكتاب والوهم قائماً مقامه . رأيت الانسان يلبس الصبر ثوب الجبانة ، ويعطي التجلد لقب التواني ، ويدعو اللطف باسم الخوف . رأيت المتطفّل على موائد الآداب يدّعي والمدعو اليها صامتاً . رأيت المال بين يدي المبذر شبكة شروره وبين يدي البخيل مجلبة لمقت الناس ، وبين يدي الحكيم لم أرَ مالاً .

عندما رأيت كل هذه الاشياء صرخت متألماً من هذا المنظر : اهذه هي الارض يا ابنة الآلهة ؟ اهذا هو الانسان ؟ فأجابت بسكينة جارحة : هذه طريق النفس المفروشة شوكاً وقطرباً . هذا ظل الانسان . هذا هو الليل وسيجيء الصباح . ثم وضعت يدها على عينيَّ ، ولما رفعتها وجدتني وشبابي سائراً على مهل ، والامل يركض امامي .

الامس واليوم

مشى الموسر في حديقة صرحه ومشى الهم متبعاً خطواته ، وحام القلق فوق رأسه مثلما تحوم النسور على جثة صفعها الموت ، حتى بلغ بحيرة تسابقت في صنعها ايدي الانسان وجمعت جوانبها منطقة من الرخام المنحوت . فجلس هناك ينظر آناً الى المياه المتدفقة من افواه التماثيل تدفق الافكار من مخيلة العاشق ، وآونة الى قصره الجميل الجالس على تلك الرابية جلوس الخال على وجنة الفتاة .

جلس فجالسته الذكرى ونشرت امام عينيه صفحات كتبها الماضي في رواية حياته فأخذ يتلوها والدموع تحجب عنه محيطاً صنعه الانسان واللهفة تعيد الى قلبه رسوم ايام نسجتها الآلهة حتى ابت لوعته الا الكلام فقال :

كنت بالامس ارعى الغنم بين تلك الروابي المخضرة وافرح بالحياة وانفخ في شبّابتي معلناً غبطتي ، وها انا اليوم اسير المطامع يقودني المال الى المال ، والمال الى الانهماك ، والانهماك الى الشقاء . كنت كالعصفور مغرداً ، وكالفراش متنقلاً ، ولم يكن النسيم اخف وطأة على رؤوس الاعشاب من خطوات اقدامي في تلك الحقول ، وها انا سجين عادات الاجتماع : اتصنع بملابسي وعلى مائدتي وبكل اعمالي من اجل ارضاء البشر وشرائعهم . كنت اود لو اني خُلقت لأتمتع بمسرات

الوجود، ولكني اراني اليوم متبعاً بحكم المال سبل الغم، فصرت كالناقة المثقلة بحمل من الذهب، والذهب يميتها. اين السهول الواسعة؟ اين السواقي المترنمة؟ اين الهواء النقي؟ اين مجد الطبيعة؟ اين ألوهيتي؟ قد ضيعت كل ذلك ولم يبقَ لي غير ذهب احبه فيستهزىء بي، وعبيد اكثرتهم فقل سروري، وصرح رفعته ليهدم غبطتي. كنت وابنة البدوِ نسير والعفاف ثالثنا، والحب نديمنا، والقمر رقيبنا، واليوم اصبحت بين اللواتي يمشين ممدودات الاعناق، غامزات العيون، الشاريات الحسن بالسلاسل والمناطق، البائعات الوصل بالأساور والخواتم. كنت والفتيان نخطر بين الاشجار كسرب الغزلان، نشترك بانشاد الاغاني، نقتسم ملذات الحقول، واليوم صرت بين القوم كالنعجة بين الكواسر، امشي في الشوارع فتنفتح علي عيون البغض ويشار الي باصابع الحسد، وان ذهبت الى المتنزهات لا ارى غير وجوه كالحة ورؤوس شامخة. بالامس أعطيت الحياة وجمال الطبيعة، واليوم سُلبتهما. بالامس كنت غنياً بسعادتي واليوم اصبحت فقيراً بمالي. بالامس كنت ونعاجي مثل ملك رؤوف ورعيته، واليوم صرت لدى الذهب كالعبد المتصاغر امام السيد المظلوم . . . ما كنت احسب ان المال يطمس عين نفسي ويقودها الى مغاور الجهل، ولم ادرِ ان ما يحسبه الناس مجداً كان واحرٌ قلباه جحيماً . . .

وقام الموسر من مكانه ومشى ببطء نحو قصره متأوهاً مردداً: اهذا هو المال؟ اهذا الاله الذي صرت كاهنه؟ اهذا ما نبتاع بالحياة ولا يمكننا ان نستبدل به ذرة من الحياة؟ من يبيعني فكراً جميلاً بقنطار

من الذهب ؟ من يأخذ قبضة من الجواهر بدقيقة محبة ؟ مـن يعطيني عيناً ترى الجمال ويأخذ خزائني ؟

ولما وصل الى باب القصر نظر نحو المدينة نظرة ارميا الى اورشليم وأومأ بيده نحوها كأنه يرثيها وقال بصوت عالٍ : ايها الشعب السالك في الظلمة ، الجالس في ظل الموت ، الراكض وراء التعاسة ، القاضي بالبُطل ، المتكلم بالحماقة ، الى متى تأكل الشوك والحسك وترمي الثمار والزهر الى الهاوية ؟ حتى متى تسكن الوعر والخرائب تاركاً بستان الحياة؟ لماذا ترتدي الاطمار البالية وثوب الدمقس قد فُصّل من اجلك؟ ايها الشعب قد انطفأ سراج الحكمة فاسقِه زيتاً . وخرب ابن السبيل كرم السعادة فاحرسه . وسرق اللص خزائن راحتك فانتبه !

في تلك الدقيقة وقف امام الغني فقير ومد يده متسولاً ، فنظر اليه وقد انضمت شفتاه المرتجفتان وانبسطت سحنته المنقبضة وانبعث مـن عينيه نور لطيف . كان الامس الذي رثاه بقرب البحيرة قد مرّ مسلّماً فاقترب من المستعطي وقبّله قبلة المحبة والمساواة وملأ يده ذهباً وقال والرأفة تسيل من كلماته : خذ يا اخي الآن وعـد غداً مع اترابـك واسترجعوا اموالكم . فابتسم الفقير ابتسامة الزهرة الذابلة بُعيد المطر وراح مسرعاً .

حينئذ دخل الموسر الى قصره قائلاً : كل شيء حسن في الحياة حتى المال لانه يعلم الانسان امثولة . انما المال كالارغن يسمع من لا يحسن الضرب عليه انغاماً لا ترضيه . المال كالحب يميت من يضن بـه ويحيي واهبه .

رحماك يا نفس رحماك!

حتى مَ تنوحين يا نفسي وانت عالمة بضعفي ؟ الى متى تضجين وليس لدي سوى كلام بشري اصور به احلامك ؟

انظري يا نفسي فقد انفقت عمري مصغياً لتعاليمك. تأملي يا معذبتي فقد اتلفت جسمي متبعاً خطواتك.

كان قلبي مليكي فصار الآن عبدك، وكان صبري مؤنسي فغدا بك عذولي. كان الشباب نديمي فاصبح اليوم لائمي، وهذا كل ما اوتيته من الآلهة، فمم تستزيدين وبم تطمعين ؟

قد انكرت ذاتي وتركت ملاذ حياتي وغادرت مجد عمري ولم يبق لي سواك، فاقضي عليَّ بالعدل، فالعدل مجدك، او استدعي الموت واعتقي من الاسر معناك.

رحماك يا نفس ! فقد حملتني من الحب ما لا اطيقه : انت والحب قوة متحدة، وانا والمادة ضعف متفرق، وهل يطول عراك بين قوي وضعيف ؟

رحماك يا نفس ! فقد اريتني السعادة عن بعد شاسع : انت والسعادة على جبل عالٍ، وانا والشقاء في اعماق الوادي، وهل يتم لقاء بين علو ووطوءة ؟

رحماك يا نفس ! فقد ابنت لي الجمال واخفيته : انت والجمال في

النور ، وانا والجهل في الظلمة ، وهل يمتزج النور بالظلمة ؟

انت يا نفس تفرحين بالآخرة قبل مجيء الآخرة، وهذا الجسد يشقى بالحياة وهو في الحياة .

انت تسيرين نحو الأبدية مسرعة ، وهـذا الجسد يخطو نحـو الفناء ببطء، فلا انت تتمهلين ولا هو يسرع ، وهذا يا نفس منتهى التعاسة .

انت ترتفعين نحو العلو بجاذب السماء ، وهذا الجسد يسقط الى تحت بجاذبية الارض ، فلا انت تعزينه ولا هو يهنئك ، وهذه هي البغضاء .

انت يا نفس غنية بحكمتك ، وهذا الجسد فقير بسليقته ، فلا انت تتساهلين ولا هو يتبع ، وهذا هو اقصى الشقاء .

انت تذهبين في سكينة الليل نحو الحبيب وتتمتعين منه بضمة وعناق، وهذا الجسد يبقى أبداً قتيل الشوق والتفريق .

رحماك يا نفس رحماك !

الارملة وابنها

هجم الليل مسرعاً على شمالي لبنان مستظهراً على نهار تساقطت فيه الثلوج على تلك القرى المحيطة بوادي قاديشا جاعلة تلك الحقول والهضاب صفحة بيضاء ترسم عليها الرياح خطوطاً تمحوها الرياح وتتلاعب بها العواصف مازجة الجو الغضوب بالطبيعة الهائلة .

اختبأ الانسان في منازله والحيوان في مرابضه وسكنت حركة كل ذي نسمة حية ولم يبقَ غير برد قارس وزمهرير هائج وليل اسود مخيف وموت قوي مريع .

وكان في منزل منفرد بين تلك القرى امرأة جالسة امام موقد تنسج الصوف رداء وبقربها وحيدها ينظر تارة الى اشعة النار ، وطوراً الى وجه امه الهادىء . في تلك الساعة عصفت الرياح بشدة وهزت اركان ذلك البيت ، فذعر الصبي واقترب من امه محتمياً بحنوها من غضب العناصر ، فضمته الى صدرها وقبلته ثم اجلسته على ركبتيها وقالت : لا تجزع يا ابني ، فالطبيعة تريد ان تعظ الانسان مظهرة عظمتها تجاه صغره ، وقوتها بجانب ضعفه . لا تخف يا ولدي ، فمن وراء الثلوج المتساقطة والغيوم المتلبدة والرياح العاصفة روح قدوس كلي عالم بما تحتاج اليه الحقول والآكام . من وراء كل شيء قوة ناظرة الى حقارة الانسان بعين الشفقة والرحمة . لا تجزع يا فلذة كبدي ، فالطبيعة

التي ابتسمت في الربيـع وضحكت في الصيف وتأوهت في الخريف تريد ان تبكي الآن ، ومن دموعها الباردة تستقي الحياة الرابضة تحت اطباق الثرى . نم يا ولدي ، ففي الغد تستيقظ وترى السماء صافيـة الاديم ، والحقول لابسة رداء الثلج الناصـع مثلما ترتدي النفس ثوب الطهر بُعيد مصارعة الموت . نم يا وحيدي ، فوالدك ناظر الآن الينا من مسارح الأبدية ، وحبذا عاصفة وثلوج تقربنا من ذكر تلك النفوس الخالدة . نم يا حبيبي ، فمن هذه العناصر المتحاربة بعنف سوف تجني الأزهار الجميلة عندما يجيء نيسان . كذا الانسان يا ابني لا يستثمر المحبة الا بعد بعاد أليم ، وصبر مرّ ، وقنوط متلف . نم يا صغيري ، فسوف تأتي الاحـلام العذبة الى نفسك غير خائفة من هيبة الليـــل وبطش البرد .

ونظر الصبي الى امه وقد كحل النعاس عينيه وقال : لقـد أثقـل اجفاني الكرى يا اماه واخاف ان انام قبل تلاوة الصلاة . فعانقته الام الحنون ونظرت من وراء الدموع الى وجهه الملائكي ثم قالت : قـل معي يا ولدي : اشفق يا رب عـلى الفقراء واحمهم من قساوة الـبرد القـارس واستر جسومهم العارية بيدك . انظر الى اليتامى النائـمين في الاكواخ وانفاس الثلج تكلم اجسامهم . اسمع يا رب نداء الأرامـل القائمـات في الشوارع بين مخالب الموت واظفـار البرد . امدد يدك يا رب الى قلب الغني وافتح بصيرته ليرى فاقـــة الضعفاء المظلومين . ارفـق يا رب بالجائعين الواقفين امـام الابواب في هذا الليـل الظلوم واهدِ الغرباء الى المآوي الدافئـة وارحم غربتهم . انظر يا رب الى

العصافير الصغيرة واحفظ بيمينك الاشجار الخائفة من قساوة الرياح ...
ليكن هذا يا رب .

ولما عانق الكرى نفس الصبي مددته والدته على فراشه وقبلت جبهته بشفتين مرتجفتين ثم رجعت وجلست امام الموقد تنسج له الصوف رداء .

الدهر والامة

على سفح لبنـان بقرب جدول ينسلّ بين الصخور كأسلاك فضية جلست راعية يحيط بها قطيع غنم مهزول يرتعي الاعشاب اليابسة بين الاشواك الغضة ، صبية تنظر نحو الشفق البعيد كأنها تقرأ مآتي الآتي على صفحات الجو وقد غمق الدمع عينيها مثلما ينمق الندى ازهـار النرجس ، وفتح الاسى شفتيها كأنه يريد سلب قلبها تنهداً .

ولما جاء المساء واخذت تلك الروابي تلتف برداء الظل وقف امام الصبية فجأة شيخ يتدلى شعره الابيض على صدره وكتفيه حاملاً بيمينه منجلاً سنيناً وقال بصوت يحاكي هدير الامواج : سلام على سوريا .

فوقفت الفتاة مذعورة واجابته بصوت يقطعه الوجل ويصله الحزن قائلة : ماذا تبتغي الآن مني ايها الدهر ؟

ثم اومأت نحو اغنامها وزادت : هذه بقايا قطيع كان يملأ الاودية. هذه فضلة مطامعك فهل جئت لتستزيد منها ؟

هذه هي المسارح التي اجدبها دوس قدميك وقـد كانت منبت الخصب والرزق . كانت نعاجي ترتعي رؤوس الازهـار وتدر لبنـاً زكياً فها هي الآن خمص البطون تقضم الاشواك واصول الاشجـار مخافة الفناء .

اتقِ الله يا دهر وانصرف عني فقد كرهتني الحياةَ ذكرى مظالمك وحببت اليَّ الموتَ قساوةُ منجلك .

اتركني ووحدتي ارشف الدمع شراباً وانتشق الحزن نسيماً واذهب يا دهر الى الغرب حيث القوم في عرس الحياة وعيدها ودعني انتحب في مآتم أنت عاقدها .

فنظر الشيخ اليها نظرة الأب وقد اخفى منجله طي اثوابه وقال :

– ما اخذت منك يا سوريا الا بعض عطاياي وما كنت ناهباً قط بل مستعيراً ارد ، ووفياً ارجع . واعلمي ان لاخواتك الامم نصيباً باستخدام مجد كان عبدك ، وحقاً بلبس رداء كان لك . انا والعدل اقنومان لذات واحدة ، فلا يجمل بي سوى اعطاء اخواتك ما اعطيتك ، ولست قادراً على تسويتكن في محبتي ، لان المحبة لا تنقسم الا على السواء . لك يا سوريا اسوة بجاراتك مصر وفارس واليونان اذ لكل منهن قطيع يشابه قطيعك ومرعى نظير مرعاك . ان ما تدعينه انحطاطاً يا سوريا ادعوه نوماً واجباً يعقبه النشاط والعمل ، فالزهرة لا تعود الى الحياة الا بالموت ، والمحبة لا تصير عظيمة الا بعد الفراق .

واقترب الشيخ من الفتاة ومد يده قائلاً : هزي يدي يا ابنة الانبياء . فأخذت يده وهي تنظر اليه من وراء الدمع وقالت : الوداع ايها الدهر الوداع . فأجابها : الى اللقاء يا سوريا الى اللقاء .

حينئذ اختفى الشيخ كما يختفي البرق ، فنادت الصبية اغنامها ومضت مرددة : هل من لقاء يا ترى هل من لقاء ؟

امام عرش الجمال

هربت من الاجتماع وهمت في ذاك الوادي الوسيع متبعاً مجاري الجدول تارة ومصغياً الى محاورات العصافير طوراً ، حتى بلغت مكاناً حمته الاغصان من نظرات الشمس ، فجلست اسامر وحدتي واناجي نفسي . نفس ظامئة رأت كل ما يُرى سراباً وكل ما لا يُرى شراباً .

ولما انطلقت عاقلتي من محبس المادة الى فضاء الخيال التفتُّ فاذا بفتاة واقفة على مقربة مني . حورية لم تتخذ من الحلي والحلل سوى غصن من الكرمة تستر به بعض قامتها واكليل من الشقيق يجمع شعرها الذهبي ... واذ علمت من نظراتي انني صرت مسلوب الفجأة والحيرة قالت : انا ابنة الاحراج فلا تجزع . قلت وقد ردت حلاوة صوتها بعض رمقي : وهل يقطن من كان مثلك برية سكنتها الوحشة والوحوش ؟ قولي لي بعيشك من انت ومن اين اتيت ؟ فقالت وقد جلست على الأعشاب : انا رمز الطبيعة . انا العذراء التي عبدها آباؤك فبنوا لها مذابح وهياكل في بعلبك وافقا وجبيل . قلت : تلك الهياكل قد انهدمت وعظام اجدادي ساوت اديم الارض ولم يبقَ من آثار آلهتهم واديانهم سوى صفحات قليلة في بطون الكتب . قالت : بعض الآلهة يحيون بحياة عبادهم ويموتون بموتهم . وبعضهم يحيون بألوهية ازلية ابدية . اما ألوهيتي فهي مستمدة من جمال تراه كيفما حولت

عينيك . جمال هو الطبيعة باسرها . جمال كان بدء سعادة الراعي بين الربى ، والقروي بين الحقول ، والعشائر الرحل بين الجبل والساحل . جمال كان للحكيم مرقاةً الى عرش حقيقة لا تجرح . قلت ودقات قلبي تقول ما لا يعرفه اللسان : ان الجمال قوة مخيفة رهيبة . فقالت وعلى شفتيها ابتسامة الازهار وفي نظرها أسرار الحياة : انتم البشر تخافون كل شيء حتى ذواتكم . تخافون السماء وهي منبع الأمن . تخافون الطبيعة وهي مرقد الراحة ، وتخافون إله الآلهة وتعزون اليه الحقد والغضب وهو ان لم يكن محبة ورحمة لم يكن شيئاً .

وبعد سكينة مازجتها الاحلام اللطيفة سألتها : ما هذا الجمال ؟ فقد تباين النـــاس بتعريفه ومعرفته مثلما اختلفوا بتمجيده ومحبته . قالت : هو ما كان بنفسك جاذب اليه ، هو ما تراه وتود ان تعطى لا ان تأخذ ، هو ما شعرت عند ملقاه بأيدٍ ممدودة من اعماقك لضمه الى اعماقك ، هو ما تحسبه الأجسام محنة والارواح منحة ، هـو الفة بين الحزن والفرح ، هو ما تراه محجوباً وتعرفه مجهولاً وتسمعه صامتاً ، هو قوة تبتدىء في قدس اقداس ذاتك وتنتهي في ما وراء تخيلاتك . . .

واقتربت ابنة الاحراج مني ووضعت يدها المعطرة على عينيّ ، ولما رفعتها رأيتني وحيداً في ذلك الوادي ، فرجعت ونفسي مرددة : ان الجمال هو ما تراه وتود ان تعطى لا ان تأخذ .

زيارة الحكمة

في هدوء الليل جاءت الحكمة ووقفت بقرب مضجعي ونظرت اليَّ نظرة الام الحنـون ومسحت دموعي وقالت : سمعت صراخ نفسك فأتيت لأعزيها . ابسط قلبك امامي فأملأه نوراً . سلني فأريك سبيـل الحق . فقلت : من أنا ايتها الحكمة وكيف سرت الى هـذا المكان المخيف ؟ ما هذه الأماني العظيمة والكتب الكثيرة والرسوم الغريبة ؟ ما هذه الافكار التي تمر كسرب الحمام ؟ ما هذا الكلام المنظوم بالميل، المنثور باللذة ؟ ما هذه النتائج المحزنة، المفرحة، المعانقة روحي، المساورة قلبي ؟ ما هذه العيون المحدقة بي، الناظرة أعماقي، المنصرفة عن آلامي؟ ما هذه الأصوات النائحة على ايامي ، المترنمة بصغري ؟ ما هذا الشباب المتلاعب بميولي ، المستهزىء بعواطفي ، الناسي اعمال الأمس ، الفارح بتفاهة الحال ، المستنكف من بطء الغد ؟ ما هـذا العالم السائر بي الى حيث لا ادري ، الواقف معي موقف الهوان؟ ما هذه الارض الفاغرة فاها لابتلاع الاجسام، المفرجة صدرها لسكنى المطامع؟ ما هذا الانسان الراضي بمحبة السعادة ، ودون وصالها الهاوية ، الطالب قبلة الحيـاة والموت يصفعه ، الشاري دقيقة اللذة بعام الندامة ، المستسلم للكرى والاحلام تناديه ، السائر مع سواقي الجهالة الى خليج الظلمة ؟ ما هـذه الأشياء ايتها الحكمة ؟...

فقالت : انت تريد ايها البشري ان ترى هذا العالم بعين إله وتريد ان تفقه مكنونات العالم الآتي بفكرة بشرية ، وهـذا منتهى الحماقة . اذهب الى البرية تجد النحلة حائمة حول الزهور والنسر ينقض عـلى الفريسة . ادخل بيت جارك ترَ الطفل مدهوشاً بأشعة النـار والوالدة مشغولة باعمال منزلها . كن أنت كالنحلة ولا تصرف أيام الربيع ناظراً اعمال النسر . كن كالطفل وافرح بأشعة النار ودع والدتك وشأنها . كل ما تراه كان ويكون من أجلك. الكتب الكثيرة والرسوم الغريبة والأفـكار الجميلة هي اشبـاح نفوس الذين تقدموك . الكلام الذي تحوكه هو الواصل بينك وبين اخوانك البشر . النتائج المحزنة المفرحة هي البذور التي ألقاها الماضي في حقل النفس وسوف يستغلها المستقبل... ان هـذا الشباب المتلاعب بميولك هو هو الفاتح باب قلبـك لدخول النور . ان هذه الأرض الفاغرة فاها هي التي تخلص نفسك من عبودية جسدك . ان هذا العالم السائر بك هو قلبك ، فقلبك هو كل ما تظنـه عالماً . ان هذا الانسان الذي تراه جاهلاً وصغيراً هو الذي جـاء من لدن الله ليتعلم الفرح بالحزن والمعرفة من الظلمة ...

ووضعت الحكمة يدها على جبهتي الملتهبة وقالت: سر الى الامام ولا تقف البتة ، فالامام هو الكمال. سر ولا تخشَ اشواك السبيل ، فهي لا تستبيح الا الدماء الفاسدة .

حكاية صديق

١

عرفته فتىً ضائعاً في مسالك حياته ، محكوماً بمفاعيل شبيبته ، مستميتاً في ادراك غرض ميوله . عرفته زهرة لينة حملتها رياح النزق الى لجة الشهوات .

عرفته في تلك القرية صبياً شرساً يمزق بيديه اعشاش العصافير ويميت افراخها ، ويسحق برجليه تيجان الأزهار ويبيد محاسنها . وعرفته في المدرسة يافعاً ، بعيداً عن الاقتباس ، قريباً من الغطرسة ، عدواً للسكينة . وعرفته في المدينة شاباً يتاجر بشرف أبيه في سوق الخسائر ، ويبذر امواله في نوادي التهتك ، ويعطي عاقلته لابنة الكرمة .

ولكني كنت أحبه . احبه محبة يساورها الاسف ويمازجها الاشفاق . أحبه لأن منكراته لم تكن نتائج نفس صغيرة ، بل كانت مآتي نفس ضعيفة قانطة . النفس ايها الناس تميل عن سبل الحكمة مكرهة وتعود اليها مريدة . وللشبيبة أعاصير تهب حاملة غباراً ورمالاً تملأ الأجفان فتغمضها وتعميها ، تعميها الى أمد بعيد في أكثر المواطن .

أحببت هذا الفتى وكنت مخلصاً له لأنني رأيت حمامة ضميره تغالب نسر سيئاته فتغلب تلك الحمامة بقوة عدوها لا بجبانتها . الضمير قاضٍ عادل ضعيف والضعف واقف في سبيل تنفيذ احكامه .

قلت أحببته والمحبة تأتي بأشكال مختلفة ، فهي الحكمة آناً ، والعدل

آونة، والامل اخرى، فمحبتي له كانت املي باستظهار نور شمسه الوضعي على ظلمة متاعبها العرضية . على انني كنت جاهلاً انّى واين تتبدل الادران بنقاوة ، والشراسة بوداعة ، والطيش بحكمة ، والانسان لا يدري كيفية انعتاق النفس من عبودية المادة الا بعد الانعتاق ، ولا يعرف كيف تبتسم الازهار الا بعد مجيء الصباح .

٢

مرت الايام آخذة بأعناق الليالي ، وأنا اذكر ذلك الفتى بغصات مؤلمة ، واردف لفظ اسمه بتنهدات تجرح القلب وتدميه ، حتى وافاني بالامس كتاب منه قال فيه :

– تعالَ اليَّ يا صديقي فأنا اريد ان اجمع بينك وبين فتى يسر قلبك لقاؤه وتطيب نفسك بمعرفته ...

قلت : ويحي ! أيريد أن يشفع صداقته المحزنة بصداقة آخر على شاكلته ؟ اوَلم يكن وحده أمثولة كافية لتعريف آيات الضلال ؟ وهل يروم الآن تذييل تلك الامثولة بآيات رفاقه كيلا يفوتني حرف من كتاب المادة؟ ثم قلت : اذهب فالنفس تجني من العوسج تيناً بحكمتها، والقلب يستمد من الظلمة نوراً بمحبته... ولما جاء الليل ذهبت فوجدت ذلك الفتى منفرداً في غرفته يقرأ كتاباً شعرياً، فحييته مستغرباً وجود الكتاب بين يديه وقلت : اين الصديق الجديد؟ قال: هو أنا يا خليلي ، هو أنا . ثم جلس بهدوء ما عهدته فيه ونظر اليَّ وفي عينيه نور غريب يخرق الصدر ويحيط بالجوارح . تانك العينان اللتان طالما تأملتهما ولم أرَ فيهما غير

العنف والقساوة اصبحتا تبعثان نوراً يملأ القلب انعطافاً . ثم قال بصوت حسبته صادراً من غيره : ان ذاك الذي عرفته في الحداثة ورافقته ايام المدرسة وماشيته في الشبيبة قـــد مات وبموته ولدت انا . انا صديقك الجديد فخذ يدي . اخذت يده فشعرت عند الملامسة ان في تلك اليـد روحاً لطيفاً يسري مع الدماء . تلك اليد العنيفة قد صارت لينة . تلك الاصابع التي شابهت بالامس مخالب النمر باعمالها اصبحت تلامس القلب برقتهـا . ثم قلت وليتني اذكر غرابة مـا قلت : من أنت وكيف سرت وأين صرت ؟ هـل اتخذك الروح هيكلاً فقدسك أم أنت تمثـل أمامي دوراً شعرياً ؟ قال : إي يا صديقي ان الروح قـد حل عـليّ وقدسني . الحب العظيم قد جعل قلبي مذبحاً طاهراً ، هي المرأة يا خليلي ، المرأة التي ظننتهـا بالامس العوبة الرجـل قد انقذتني من ظلمة الجحيم وفتحت امامي ابواب الفردوس فدخلت . المرأة الحقيقية قد ذهبت بي الى اردن محبتها وعمدتني . تلك التي احتقرت اختها بغباوتي قد رفعتني الى عرش المجد . تلك التي دنست رفيقتها بجهلي قد طهرتني بعواطفها . تلك التي استعبدت بنات جنسها بالذهب قد حررتني بجمالها .. تلك التي اخرجت آدم من الجنة بقوة ارادتها وضعفه قد اعادتني الى تلك الجنـة بحنوها وانقيادي .

في تلك الدقيقـــة نظرت اليه فوجدت المدامع تتلألأ في عينيه ، والابتسام يراود شفتيه ، وشعـاع الحب يكلل رأسه ، فاقتربت منه وقبلت جبهته متبركاً مثلما يقبـل الـكاهن صحن المذبح ، ثم ودعتـه ورجعت مردداً قوله : تلك التي اخرجت آدم من الجنة بقوة ارادتهـا وضعفه قد اعادتني الى تلك الجنة بحنوها وانقيادي .

بين الحقيقة والخيال

تحملنا الحياة من مكان الى مكان وتنتقل بنا التقادير من محيط الى آخر ونحن لا نرى الا ما وقف عثرة في سبيل سيرنا ولا نسمع سوى صوت يخيفنا .

يتجلى لنا الجمال على كرسي مجده فنقترب منه وباسم الشوق ندنس اذياله ونخلع عنه تاج طهره . يمر بنا الحب مكتسياً ثوب الوداعة فنخافه ونختبىء في مغاور الظلمة او نتبعه ونفعل باسمه الشرور ، والحكيم بيننا يحمله نيراً ثقيلاً وهو الطف من انفاس الأزهار وأرق من نسمات لبنان. تقف الحكمة في منعطفات الشوارع وتنادينا على رؤوس الاشهاد فنحسبها بُطلاً ونحتقر متبعيها . تدعونا الحرية الى مائدتها لنلتذ بخمرها واطعمتها فنذهب ونشره فتصير تلك المائدة مسرحاً للابتذال ومجالاً لاحتقار الذات. تمد الطبيعة نحونا يد الولاء وتطلب منا ان نتمتع بجمالها فنخشى سكينتها ونلتجىء الى المدينة وهناك نتكاثر بعضنا على بعض كقطيع رأى ذئباً خاطفاً . تزورنا الحقيقة منقادة بابتسامة طفل او قبلة محبوبة فنوصد دونها ابواب عواطفنا ونغادرها كمجرم دنس . القلب البشري يستنجد بنا والنفس تنادينا ونحن اشد صمماً من الجماد لا نعي ولا نفهم، واذا ما سمع احد صراخ قلبه ونداء نفسه قلنا هذا ذو جنة وتبرأنا منه.

هكذا تمر الليالي ونحن غافلون وتصافحنا الايام ونحن خائفون من الليالي والأيام . نقترب من التراب والآلهة تنتمي الينا ونمر على خبز الحياة والمجاعة تتغذى من قوانا ، فما احب الحياة الينا وما ابعدنا عن الحياة!

يا خليلي الفقير

يا من وُلدت على مهد الشقاء وربيت على احضان الذل وشببت في منازل الاستبداد ، انت الذي تأكل خبزك اليابس بالتنهد وتشرب ماءك العكر ممزوجاً بالدموع والعبرات .

ويا ايها الجندي المحكوم عليه من شرائع البشر الظالمة بان يترك رفيقته وصغاره ومحبيه ويذهب الى ساحة الموت من اجل طمع يدعونه الواجب .

ويا ايها الشاعر الذي يعيش غريباً في وطنه ومجهولاً بين معارفه ويرضى من العيش بمضغة ومن الحطام بالحبر والورق .

ويا ايها السجين المطروح في الظلمة من اجل ذنب صغير جسّمه غيّ الذين يقابلون الشر بالشر واستغربتهُ عاقلة الألى يرومون الاصلاح بواسطة الفساد .

وأنتِ أيتها المسكينة التي وهبها الله جمالاً رآه فتى العصر فاتبعك وغرك وتغلب على فقرك بالذهب فاستسلمت له وغادرك فريسة ترتعد بين مخالب الذل والتعاسة .

انتم يا احبائي الضعفاء شهداء شرائع الانسان ، انتم تعساء وتعاستكم نتيجة بغي القوي وجور الحاكم وظلم الغني وانانية عبد الشهوات .

لا تقنطوا ، فمن مظالم هذا العالم، من وراء المادة ، من وراء الغيوم،

من وراء الاثير ، من وراء كل شيء ، قوة هي كل عدل وكل شفقة وكل حنو وكل محبة .

انتم مثل ازهار نبتت في الظل . سوف تمر نسيمات لطيفة وتحمل بذوركم الى نور الشمس فتحيون هناك حياة جميلة .

انتم نظير اشجار عارية مثقلة بثلوج الشتاء . سوف يأتي الربيع ويكسوكم اوراقاً خضراء غضة .

سوف تمزق الحقيقة غشاء الدمع الحاجب ابتساماتكم .

أنا اقبلكم يا اخوتي واحتقر مضطهديكم.

مناحة في الحقل

عند الفجر قبيل بزوغ الشمس من وراء الشفق جلست في وسط الحقل اناجي الطبيعة . في تلك الساعة المملوءة طهراً وجمالاً بينما كان الانسان مستتراً طي لحف الكرى تنتابه الاحلام تارة واليقظة اخرى كنت متوسداً الاعشاب استفسر كل ما ارى عن حقيقة الجمال واستحكي ما يرى عن جمال الحقيقة .

ولما فصلت تصوراتي بيني وبين البشريات وأزاحت تخيلاتي برقع المادة عن ذاتي المعنوية شعرت بنمو روحي يقربني من الطبيعة ويبين لي غوامض اسرارها ويفهمني لغة مبتدعاتها .

وبينما كنت على هذه الحالة مرّ النسيم بين الاغصان متنهداً تنهد يتيم يائس ، فسألت مستفهماً : لماذا تتنهد يا ايها النسيم اللطيف ؟ فاجاب : لانني ذاهب نحو المدينة مدحوراً من حرارة الشمس . الى المدينة حيث تتعلق باذيالي النقية مكروبات الامراض وتتشبث بي انفاس البشر السامة . من اجل ذلك تراني حزيناً .

ثم التفتُّ نحو الأزهار فرأيتها تذرف من عيونها قطرات الندى دمعاً ، فسألت : لماذا البكاء يا ايتها الأزهار الجميلة ؟ فرفعت واحدة منهن رأسها اللطيف وقالت : نبكي لان الانسان سوف يأتي ويقطع اعناقنا ويذهب بنا نحو المدينة ويبيعنا كالعبيد ونحن حرائر ، واذا ما جاء المساء

وذبلنا رمى بنـا الى الاقذار . كيف لا نبـكي ويد الانسان القاسية سوف تفصلنا عن وطننا الحقل ؟

وبعد هنيهة سمعت الجدول ينوح كالثكلى فسألته : لماذا تنوح يا ايها الجدول العذب ؟ فأجاب : لانني سائر كرهـاً الى المدينة حيث يحتقرني الانسان ويستعيض عني بعصير الكرمة ويستخدمني لحمل ادرانه . كيف لا انوح وعن قريب تصبح نقاوتي وزراً وطهارتي قذراً ؟

ثم اصغيت فسمعت الطيور تغني نشيداً محزناً يحاكي الندب فسألتها: لماذا تندبين يا ايتها الطيور الجميلة ؟ فاقترب مني عصفور ووقف على طرف الغصن وقال : سوف يأتي ابن آدم حاملاً آلة جهنمية تفتك بنا فتك المنجل بالزرع ، فنحن نودع بعضنا بعضاً لاننا لا ندري من منا يتملص من القدر المحتوم . كيف لا نندب والموت يتبعنا اينما سرنا ؟

طلعت الشمس من وراء الجبل وتوجت رؤوس الاشجار باكاليل ذهبية وانا أسأل ذاتي : لماذا يهدم الانسان ما تبنيه الطبيعة ؟

بين الكوخ والقصر

١

جاء المساء وشعشعت الأنوار الكهربائية في صرح الغني فوقف الخدام على الأبواب بملابس مخملية .وعلى صدورهم الأزرار اللامعة ينتظرون مجيء المدعوين .

صدحت الموسيقى بانغامها المطربة وتقاطر الاشراف والشريفات تجرهم الخيول المطهمة نحو ذلك القصر فدخلوا يرفلون بالملابس المزركشة ويجرون اذيال العزة والفخر .

قام الرجال ودعوا النساء للرقص فوقفن واخترن الاعزاء واصبحت تلك المقصورة روضة تمر بها نسمات الموسيقى فتتمايل ازاهرها تيهاً واعجاباً .

انتصف الليل فمدت سفرة عليها كل ما عز من الفاكهة وطاب من الالوان ، ودارت الكؤوس على الجميع فلعبت بنت الكرمة في عقولهم حتى العبتهم .

جاء الصباح وفرق شمل اولئك الاشراف الاغنياء بعد ان اضناهم السهر وسرقت عاقلتهم الخمرة واتعبهم الرقص واذبلهم القصف وذهب كل الى فراشه الناعم .

٢

بعد ان غابت الشمس وقف رجل يرتدي اثواب الشغل امام باب كوخ حقير وقرع ففتح له ودخل وحيا مبتسماً ثم جلس بين صبية يصطلون بقرب النار . وبعد برهة هيأت زوجته العشاء فجلسوا جميعاً حول مائدة خشبية يلتهمون الطعام ، ثم قاموا وجلسوا بقرب مسرجة ترسل سهام اشعتها الصفراء الضعيفة الى كبد الظلمة .

وبعد مرور الهزيع الاول من الليل قاموا بسكينة كآبة واستسلموا لملك الرقاد .

جاء الفجر فهب ذلك الفقير من نومه وأكل مع صغاره وزوجته قليلاً من الخبز والحليب ثم قبلهم وحمل على كتفه معولاً ضخماً وذهب الى الحقل ليسقيه من عرق جبينه ويستثمر ويطعم قواه اولئك الأغنياء الاقوياء الذين صرفوا ليلة أمس بالقصف والخلاعة .

طلعت الشمس من وراء الجبل وثقلت وطأة الحر على رأس ذلك الحارث واولئك الاغنياء ما برحوا خاضعين لسنة الكرى الثقيل في صروحهم الشاهقة .

هذه مأساة الانسان المستتبة على مسرح الدهر وقد كثر المتفرجون المستحسنون وقلّ من تأمل وعقل .

طفلان

وقف الامير على شرفة القصر ونادى الجموع المزدحمة في تلك الحديقة وقال : ابشركم واهنىء البلاد ، فالاميرة قد وضعت غلاماً يحيي شرف عائلتي المجيدة ويكون لكم فخراً وملاذاً ووارثاً لما أبقته اجدادي العظام . افرحوا وتهللوا فمستقبلكم صار مناطاً بسليل المعالي.

فصاحت تلك الجموع وملأت الفضاء باهازيج الفرح متأهلة بمن سوف يربى على مهد الترف ويشب على منصة الاعزاز ويصير بعد ذلك حاكماً مطلقاً برقاب العباد ، ضابطاً بقوته اعنة الضعفاء ، حراً باستخدام اجسادهم واتلاف ارواحهم . من اجل ذلك كانوا يفرحون ويغنون الاناشيد ويعاقرون كاسات السرور .

وبينما سكان تلك المدينة يمجدون القوي ويحتقرون ذواتهم ويتغنون باسم المستبد والملائكة تبكي على صغرهم كان في بيت حقير مهجور امرأة مطروحة على سرير السقام تضم الى صدرها الملتهب طفلاً ملتفاً باقمطة بالية .

صبية كتبت لها الايام فقراً ، والفقر شقاء ، فأهملها بنو الانسان . زوجة امات رفيقها الضعيف ظلم الامير القوي . وحيدة بعثت اليها الآلهة في تلك الليلة رفيقاً صغيراً يكبل يديها دون العمل والارتزاق .

ولما سكنت جلبة الناس في الشوارع وضعت تلك المسكينة طفلها

على حضنها ونظرت في عينيه اللامعتين وبكت بكاء مراً ، كأنها تريد ان تعمده بالدموع السخينة ، وقالت بصوت تتصدع له الصخور : لمـــاذا جئت يا فلذة كبدي من عالم الارواح ؟ أطمعاً بمشاطرتي الحياة المرة ؟ أرحمة بضعفي ؟ لماذا تركت الملائكة والفضاء الوسيع واتيت الى هذه الحياة الضيقة المملوءة شقاء ومذلة ؟ ليس عندي يا وحيدي الا الدموع، فهل تتغذى بها بدلاً من الحليب ؟ وهل تلبس ذراعيَّ العاريتين عوضاً عن النسيج ؟ صغار الحيوان ترعى الاعشاب وتبيت في اوكارها آمنة ، وصغار الطير تلتقط البذور وتنام بين الاغصان مغتبطة ، وانت يا ولدي ليس لك الا تنهداتي وضعفي .

حينئذ ضمت الطفل الى صدرها بشدة كأنها تريد ان تجعل الجسدين جسداً واحداً ، ورفعت عينيها نحو العلاء وصرخت : ارفق بنا يا رب.

ولما انقشعت الغيوم عن وجه القمر دخلت اشعته اللطيفة من نافذة ذلك البيت الحقير وانسكبت على جسدين هامدين ...

شعراء المهجر

لو تخيل الخليل ان الأوزان التي نظم عقودها وأحكم أوصالها ستصير مقياساً لفضلات القرائح وخيوطاً تعلق عليها أصداف الأفكار لنثر تلك العقود وفصم عرى تلك الأوصال .

ولو تنبأ المتنبي وافترض الفارض ان ما كتباه سيصبح مورداً لأفكار عقيمة ومقوداً لرؤوس مشاعير يومنا لهرقا المحابر في محاجر النسيان وحطما الأقلام بأيدي الاهمال .

ولو درت ارواح هوميروس وفرجيل وأعمى المعرة وملتون ان الشعر المتجسم من النفس المشابهة الله سيحط رحاله في منازل الأغنياء لبعدت تلك الأرواح عن أرضنا واختفت وراء السيارات .

ما أنا من المتعنتين ، لكن يعز عليّ ان ارى لغة الارواح تتناقلها ألسنة الأغبياء ، وكوثر الآلهة يسيل على اقلام المدعين ، ولست منفرداً في وهدة الاستياء بل رأيتني واحداً من كثيرين نظروا الضفدع تنتفخ تمثلاً بالجاموس .

الشعر يا قوم روح مقدسة متجسمة من ابتسامة تحيي القلب او تنهدة تسرق من العين مدامعها . اشباح مسكنها النفس وغذاؤها القلب ومشربها العواطف ، وان جاء الشعر على غير هذه الصور فهو كمسيح كذاب نبذه أوفى .

فيا آلهة الشعر ، يا ادانو ، اغتفري ذنوب الألى يقتربون منك بثرثرة كلامهم ولا يعبدونك بشرف انفسهم وتخيلات أفكارهم .

ويا أرواح الشعراء الناظرة الينا من أعالي عالم الخلود ، ليس لنا عذر لتقدمنا من مذابح زينتموها بلآلىء أفكاركم وجواهر أنفسكم سوى ان عصرنا هذا قد كثرت فيه قلقلة الحديد وضجيج المعامل فجاء شعرنا ثقيلاً ضخماً كالقطارات ومزعجاً كصفير البخار .

وانتم ايها الشعراء الحقيقيون سامحونا ، فنحن من العالم الجديد نركض وراء الماديات ، فالشعر عنـــدنا صار مادة تتناقلها الايدي ولا تدري بها النفوس .

تحت الشمس

رأيت كل الأعمال التي عملت
تحت الشمس فاذا الكل باطل
وقبض الريح

الجامعة

يا روح سليمان السابحة في فضاء عالم الأرواح ، يا من خلعت ثوب المادة الذي نحن نرتديه الآن ، لقد تركت وراءك هذا الكلام المنبثق من الضعف والقنوط فولد ضعفاً وقنوطاً في أسرى الأجسام .

أنت تعلمين الآن ان في هذه الحياة معنى لا يخفيه الموت ، ولكن أنى للبشر تلك المعرفة التي لا تدرك الا بعد انعتاق النفس من ربقة التراب ؟

انت تعلمين الآن ان الحياة ليست كقبض الريح ، وان ليس تحت الشمس شيء باطل ، بل كل شيء كان وسيبقى سائراً نحو الحقيقة ، ولكن نحن المساكين قد تشبثنا بأقوالك وتدبرناها وما برحنا نظنها حكمة باهرة ، هي ، وأنت تعلمين ، ظلمة تضيع العاقلة وتخفي الأمل .

أنت تعلمين الآن ان للحماقة والشر والظلم اسباباً جميلة ، ونحن لا نرى جمالاً الا بظواهر الحكمة ونتاج الفضيلة وثمار العدل .

أنت تعلمين ان الحزن والفقر يطهران القلب البشري ، وعاقلتنا القاصرة لا ترى شيئاً حرياً بالوجود الا اليسر والفرح .

أنت تعلمين الآن ان النفس سائرة نحو النور قهراً من عقبات العمر ، ونحن ما برحنا نردد كلامك الذي يدل على ان الانسان ليس الا ألعوبة في يد القوة غير المعروفة .

أنت ندمت على بثك روحاً يضعف محبة الحياة الحاضرة ويميت الشغف بالحياة الآتية ، ونحن لم نزل مصرين على حفظ اقوالك .

يا روح سليمان الساكنة في عالم الخلود ، اوحي الى محبي الحكمة ألا يسلكوا سبل القنوط والجحود ، فقد يكون ذلك كفارة عن خطإ غير مقصود .

نظرة الى الآتي

من وراء جدران الحاضر سمعت تسابيح الانسانية . سمعت اصوات الاجراس تهز دقائق الاثير معلنة بدء الصلاة في معبد الجمال ، اجراس سبكتها القوة من معدن الشواعر ورفعتها فوق هيكلها المقدس ، القلب البشري .

من وراء المستقبل رأيت الجموع ساجدة على صدر الطبيعة ، متجهة نحو المشرق ، منتظرة فيض نور الصباح ، صباح الحقيقة .

رأيت المدينة قد اندثرت ولم يبقَ من آثارها غير طلل بالٍ يخبر الرجال باندحار الظلمة امام النور .

رأيت الشيوخ جالسين بظل اشجار الحور والصفصاف وقد جلس الصبيان حولهم يسمعون اخبار الأيام .

رأيت الفتيان يوقعون على القيثارة وينفخون في الناي والصبايا مسدولات الشعر يرقصن حولهم تحت اغصان الياسمين والفل .

رأيت الكهول يحصدون الزرع والنساء يحملن الأغمار ويترنمن بأناشيد اوحتها الغبطة والمسرة .

رأيت المرأة مستعيضة عن الملابس المشوهة باكليل من الزنبق ومنطقة من اوراق الاشجار الغضة .

رأيت الالفة مستحكمة بين الانسان والمخلوقات ، فجماعات الطير

والفراش تقترب منه آمنة وأسراب الغزلان تنثني نحو الغدير واثقة . نظرت فلم أرَ فقراً ولا ما يزيد عن الكفاف ، بل الفيت الاخاء والمساواة ، ولم أرَ طبيباً ، اذ كلٌ غدا طبيب ذاته بحكم المعرفة والاختبار ، ولم أرَ كاهناً ، لان الضمير اصبح الكاهن الاعظم ، ولم ارَ محامياً ، لان الطبيعة قامت بينهم مقام محكمة تسجل معاهدات الالفة والوئام .

رأيت الانسان قد علم انه حجر زاوية المخلوقات ، فترفع عن الصغائر ، وتعالى عن الدنايا ، وكشف عن بصيرة النفس مناديل الالتباس ، فأصبحت تقرأ ما تكتبه الغيوم على وجه السماء ، وما ينمقه النسيم على صفحات الماء ، وتفقه كنه انفاس الازهار ، وتعرف معنى اغاني الشحارير والبلابل .

من وراء جدران الحاضر ، على مسرح الاجيال الآتية ، رأيت الجمال عريساً والنفس عروساً والحياة كلها ليلة القدر .

ملكة الخيال

بلغت خرائب تدمر وقد نهكني المسير ، فاستلقيت على اعشاب نبتت بين اعمدة سلها الدهر واناخها الى الحضيض فبانت كأنها اشلاء حرب هائلة ، وصرت أتأمل بعظائم اجلّها وهي مهدومة منقوضة عن صغائر قائمة عامرة .

ولما جاء الليل وتشاركت المخلوقات المتنابذة بارتداء ثوب السكينة شعرت بأن في الاثير المحيط بي سيالاً يضارع البخور عطراً ويعادل الخمر فعلاً ، فصرت اجرعه محكوماً وأحس بأيدٍ خفية تتساهم عاقلتي وتثقل جفني وتحل نفسي من سلاسلها . ثم مادت الارض واهتز الفضاء فوثبت مدفوعاً بقوة سحرية ، فوجدتني في رياض لم يتخيلها بشر قط مصحوباً بجوق من العذارى لم يرتدين بغير الجمال ، يمشين حولي ولا تلمس ارجلهن الاعشاب وينشدن تسبيحة منسوجة من أحلام الحب ويضربن على قيثارات من العاج ذات اوتار ذهبية . ولما وصلت الى منفرج قام في وسطه عرش مرصع بالجواهر بين مسارح تنسكب منها انوار بلون قوس قزح وقفت العذارى على اليمين واليسار ورفعن اصواتهن عن ذي قبل ونظرن الى جهة تنبعث منها رائحة المر واللبان ، فاذا بمليكة ظهرت من بين الأغصان الزاهرة ومشت ببطء نحو العرش واستوت عليه فهبط اذ ذاك سرب حمام كالثلج بياضاً واستقر حول قدميها بشكل هلال .

صار هذا والعذارى يغنين مجد المليكة سوراً ، والبخور يتصاعد لتكريمها اعمدة ، وانا واقف ارى ما لم ترَ عين انسان ، واسمع ما لم تعه اذن بشري .

حينئذ اشارت المليكة بيدها فسكنت كل حركة ، ثم قالت وصوتها يهز نفسي مثلما تفعل يد الموقع باوتار عوده ويؤثر بمجموع ذاك المحيط السحري كأن للأشياء آذاناً وافئدة : دعوتك ايها الانسي وانا ربة مسارح الخيال ، وحبوتك المثول امامي وانا مليكة غابة الاحلام ، فاسمع وصاياي ونادِ بها امام البشر . قل ان مدينة الخيال عرس يخفر بابه مارد جبار فلن يدخله الا من لبس ثياب العرس . قل : هي جنة يحرسها ملاك المحبة فلا ينظرها سوى من كان على جبهته وسم الحب . هى حقل تصورات ، أنهاره طيبة كالخمر ، واطياره تسبح كالملائكة ، وأزهاره فائحة العبير ، فلا يدوسه غير ابن الاحلام . خبر الانس باني وهبتهم كأساً يفعمها السرور فهرقوها بجهلهم فجاء ملاك الظلمة فملأها من عصير الحزن فجرعوها صرفاً وسكروا . قل : لم يحسن الضرب على قيثارة الحياة غير الذين لمست اناملهم وشاحي ونظرت اعينهم عرشي ، فأشعيا نظم الحكمة عقوداً باسلاك محبتي ، ويوحنا روى رؤياه بلساني ، ولم يسلك دانتي مراتع الارواح بغير ادلتي ، فأنا مجاز يعانق الحقيقة ، وحقيقة تبين وحدانية النفس ، وشاهد يزكي اعمال الآلهة . قل : ان للفكرة وطناً اسمى من عالم المرئيات لا تكدر سماءه غيوم السرور ، وان للتخيلات رسوماً كائنة في سماء الآلهة تنعكس على مرآة النفس ليعم رجاؤها بما سيكون بعد انعتاقها من الحياة الدنيا .

وجذبتني مليكة الخيال نحوها بنظرة سحرية وقبلت شفتيّ الملتهبتين وقالت : قل ومن لا يصرف الايام على مسرح الاحلام كان عبد الايام .

عندئذ تصاعدت اصوات العذارى وارتفعت اعمدة البخور وحجبت الرؤية . ثم مـــادت الارض واهتز الفضاء فوجدتني بين تلك الخرائب المحزنة وقد ابتسم الفجر وبين لساني وشفتيّ هذه الكلمات : ومن لا يصرف الايام على مسرح الاحلام كان عبد الايام .

يا لائمي

دعني يا لائمي ووحدتي . استحلفك بحب يضم نفسك بجمال الرفيقة ويوثق قلبك بحنو الام ويربط فؤادك بعواطف الابن ، ان تتركني وحالي .

خلني وشأني وأحلامي واصبر الى الغد ، فالغد يقضي عليّ بما يشاء .

محضتني النصح والنصح طيف يسير بالنفس الى مرتع الحيرة ويقودها الى حيث الحياة جامدة كالتراب .

لي قلبٌ صغير اريد ان اخرجه من ظلمة صدري واحمله على كفي متفحصاً اعماقه ومستحكياً اسراره ، فلا تترصده يا لائمي بنبال مذاهبك مسبباً خوفه واختفاءه ضمن قفص الضلوع قبل ان يسكب دماء خفاياه ويقوم بفرضٍ عقدته الآلهة عندما ابتدعته من الجمال والحب .

هنا قد طلعت الشمس وغرد الهزار والبلبل وتصاعدت ارواح الآس والمنثور وانا اريد الانعتاق من لحف الكرى لأسير مع الحملان البيضاء ، فلا تعنفني يا لائمي ولا تخفني بأسد الغاب وصلّ الوادي ، لان نفسي لا تعرف الجزع ولا تنذر بالسوء قبل مجيئه .

دعني يا لائمي ولا تعظني ، لأن المصائب فتحت بصيرتي ، والدموع جلت بصري ، والحزن علمني لغة القلوب .

اعتزل ذكر المحرمات ، فلي من ضميري محكمة تقضي بالعدل علي وتقيني العقـــاب ان كنت ذا برارة ، وتحرمني الثواب ان كنت من المجرمين .

ها قد سار موكب الحب فمشى الجمال رافعاً أعلامـــه وسارت الشبيبة نافخة أبواق الفرح ، فلا تردعني يا لائمي ، بل دعني اسر ، فالطريق مفروشة بالورود والرياحين ، والهواء قد عطرته مجامر المسك .

اعتقني من حكاية المال وقصص المجـد ، لأن نفسي غنية باكتفائها ومشغولة بمجد الآلهة .

اعفني من مآتي السياسة وأخبار السلطة ، لأن الأرض كلهـا وطني وجميـع البشر مواطني .

مناجاة

أين أنتِ الآن يا جميلتي ؟ أفي تلك الجنة الصغيرة تسقين الأزهار التي تحبك محبة الاطفال ثدي أمها ، أم في خدرك حيث اقمتِ للطهر مذبحاً وقفت عليه روحي وحشاشتي ، ام بين كتبك تستزيدين من حكمة البشر وانت غنية بحكمة الآلهة ؟

اين انت يا رفيقة نفسي ؟ أفي الهيكل تصلين من أجلي ، أم في الحقل تناجين الطبيعة مرتع اعجابك واحلامك ، أم بين أكواخ المساكين تعزين منكسرات القلوب بحلاوة نفسك وتملأين أيديهن باحسانك ؟

أنت في كل مكان ، لأنك من روح الله ، وفي كل زمان ، لأنك اقوى من الدهر .

هل تذكرين ليالي جمعتنا وشعاع نفسك يحيط بنا كالهالة وملائكة الحب تطوف حولنا مترنمة باعمال الروح ، وتذكرين ايام جلسنا بظل الأغصان وهي مخيمة علينا كأنها تريد أن تحجبنا عن البشر مثلما تحجب الضلوع أسرار القلب المقدسة ؟ هل تذكرين ممرات ومنحدرات مشينا عليها وأصابعك محبوكة باصابعي احتباك ضفائرك ، وقد اسندنا رأسينا برأسينا كأننا نحتمي منا بنا ؟ وهل تذكرين ساعة جئتك مودعاً فعانقتني ثم قبلتني قبلة مريمية علمت منها بأن الشفاه اذا انضمت جاءت باسرار علوية لا يعرفها اللسان ، قبلة كانت توطئة لتنهّدة مزدوجة حاكت نفساً نفخه

الله في الطين فصار انساناً . تلك تنهدة سبقتنا الى عالم الارواح معلنة مجد نفسينا ، وهناك ستبقى حتى نجتمع بها الى الأبد ... ثم قبلتني وقبلتني وقلت والدمع يساعدك : ان للأجسام أغراضاً مجهولة ، فهي تفترق لشؤون عالمية وتتباعد لمآرب دنيوية ، أما الارواح فتظل في قبضة الحب مستأمنة حتى يجيء الموت ويسير بها الى الله . اذهب يا حبيبي . لقد انتدبتك الحياة فأطعها ، فهي حسناء تسقي مطيعيها من كوثر اللذة كؤوساً مفعمة ، أما انا فلي من حبك عريس ملازم ، ومن ذكراك عرس طويل مبارك .

أين انتِ الآن يا رفيقتي ؟ هل أنتِ ساهرة في سكينة الليل نسيماً احمّله دقات قلبي وخفايا جوارحي كلما هب نحوك ؟ أوأنت ناظرة رسم فتاك ؟ ذاك رسم لم يعد ينطبق على مرسومه ، فالحزن قد ألقى خياله على جبهة كانت بالامس منفرجة بقربك ، والنواح اذبل أجفاناً كانت مكحولة بجمالك ، والوجد جفف ثغراً كان مرطباً بقبلاتك .

اين أنتِ يا حبيبتي ؟ هل انت سامعة من وراء البحار ندائي وانتحابي ، وناظرة ضعفي ومذلتي ، وعالمة بصبري وتجلدي ؟ اوليست في الهواء ارواح تنقل انفاس محتضر متوجع ؟ أولم تكن بين النفوس اسلاك خفية تحمل شكوى محب دنف ؟

اين انت يا حياتي ؟ لقد احتضنتني الظلمة وغلبني الاسى . ابتسمي في الهواء فأنتعش . تنفسي في الاثير فأحيا .

اين انتِ يا حبيبتي اين انت ؟

آه ما اعظم الحب وما اصغرني !

المجرم

على قارعة الطريق قعد شاب مستعطياً . فتى قـوي الجسم اضعفه الجوع فجلس في منعطف الشارع ماداً يده نحو العابرين متسولاً مستغيثاً بالمحسنين مردداً آيات انكساره ، شاكياً آلام جوعه .

خيم الليل وقد يبست شفتاه وكلّ لسانه ولم تزل يده فارغـة مثل جوفـه . فقام اذ ذاك وذهب الى خـارج المدينة وجلس بين الأشجار وبكى بكاءً مرّاً . ثم رفـع نحو السماء عينيه يغشاهما الدمع وقـال والجوع يلقنه : يا رب قد ذهبت الى الموسر اطلب عمـلاً ، فطردت لرثاثة اثوابي . وطرقت باب المدرسة ، فمنعت لفراغ يـدي ، ورمت الاستخدام ولو بكفاف يومي ، فابعـدت لسوء طالعي . وأخيراً سعيت متسولاً ، فرآني عبادك يا رب وقالوا هـذا قوي نشيط والاحسان لا يجوز على ابن التواني والكسل . قد ولدتني امي بارادتك يا رب ، وانا كائن الآن بكيانك ، فلماذا يمنع الناس الخبز عني وانا طالب باسمك ؟

في تلك الدقيقة تغيرت سحنة الرجل اليائس ، فانتصب وقد لمعت عيناه كالشهب ثم اقتضب من الاغصان اليابسة نبوتاً ضخماً واشار بـه نحو المدينة وصرخ قائـلاً : طلبت الحياة بعرق الجبين فـلم اجدهـا ، فسوف احصل عليها بقوة ساعدي . وسألت الخبز باسم المحبة فـلم يسمعني الانسان ، فسأطلبه باسم الشر واستزيد منه ...

مرت الأيام والشاب يقطع الأعناق من اجل الحصول على العقود ، ويهدم هياكل الارواح ان تصدت لمطامعه . فنمت ثروته وعم بطشه وصار محبوباً من لصوص القوم ومخيفاً لعقلائهم . ثم انتدبه الامير وكيلاً عنه في تلك المدينة شأن الأمراء بانتقاء ممثليهم .

كذا يبتدع الانسان من المسكين سفاحاً باستمساكه ، ومن ابن السلام قاتلاً بقساوته .

الرفيقة

اول نظرة

هي الدقيقة الفاصلة بين نشوة الحياة ويقظتها . هي الشعلة الاولى التي تنير خلايا النفس . هي اول رنة سحرية على اول وتر من قيثارة القلب البشري . هي آونة قصيرة تعيد على مسمع النفس اخبار الايام الغابرة ، وتكشف لبصرها اعمال الليالي ، وتبين لبصيرتها اعمال الوجدان في هذا العالم ، وتبيح سرّ الخلود في العالم الآتي . هي نواة تطرحها عشتروت من العلاء ، فتلقيها العيون في حقل القلب ، فتستنبتها العواطف ثم تستثمرها النفس . اول نظرة من الرفيقة تشابه الروح الذي كان يرف على وجه الغمر ومنه انبثقت السماء والارض . اول نظرة من شريكة الحياة تحاكي قول الله : كن .

اول قبلة

هي الرشفة الأولى من كأس ملأتها الآلهة من كوثر الحب . هي الحد بين شك يراود القلب فيحزنه ويقين يفعمه فيغبطه . هي مطلع قصيدة الحياة الروحية والفصل الاول من رواية الانسان المعنوي .

هي عروة توثق غرابة الماضي ببهاء الآتي ، وتجمع بين سكينة الشواعر واغانيها . هي كلمة تقولها الشفاه الأربع معلنة صيرورة القلب عرشاً ، والحب مليكاً ، والوفاء تاجاً . هي ملامسة لطيفة تحاكي مرور انامل النسيم على ثغر زهرة الورد حاملة معها تنهداً مستطيلاً لذيذاً وأنة خفيفة عذبة . هي بدء اهتزازات سحرية تفصل المحبين عن عالم المقاييس والكمية الى عالم الوحي والاحلام . هي ضم زهرة الشقيق الى زهرة الجلنار ومزج انفاسهما لتوليد نفس ثالث . . . واذا كانت النظرة الاولى تشابه نواة القتها آلهة الحب في حقل القلب البشري ، فالقبلة الاولى تحاكي اول زهرة في اطراف اول غصن في شجرة الحياة .

القران

هنا يبتدىء الحب ان ينظم نثر الحياة شعراً وينشىء من معاني العمر سوراً ترتلها الايام وتنغمها الليالي . ههنا يزيح الشوق ستائر الاشكال عن معميات السنين الماضية ويؤلف من نتف اللذات سعادة لا يفوقها غير سعادة النفس عندما تعانق ربها . القران هو اتحاد الوهيتين على ايجاد الوهية ثالثة على الارض . هو تكاتف اثنين قويين بحبهما لمقاومة دهر ضعيف ببغضه . هو تمازج خمرة صفراء برحيق قرمزي لتوليد شراب برتقاني[1] يحاكي لون الشفق عند مجيء الفجر . هو تنافر

---

١ اللون البرتقاني يتولد كيماوياً من الاصفر والاحمر .

روحين من التنافر واتحاد نفسين مع الاتحاد . هو حلقة ذهبية من سلسلة اولها نظرة ، وآخرها اللانهاية . هو انهمال غيث نقي من سماء طاهرة نحو طبيعة مقدسة لاستخراج قوى حقول مباركة ... فاذا كانت النظرة الاولى من وجه المحبوبة مثل نواة القتها المحبة في حقل القلب ، والقبلة الاولى من شفتيها تشابه اول زهرة في غصن الحياة ، فالقران بها يحاكي اول ثمرة من اول زهرة من تلك النواة .

بيت السعادة

تعب قلبي في داخلي فودعني وذهب الى بيت السعادة ، ولما بلغ ذلك الحرم الذي قدسته النفس وقف حائراً ، لانه لم يرَ هناك ما طالما توهمه . لم يرَ قوة ، ولا مالاً ، لا ولا سلطة . لم يرَ غير فتى الجمال ورفيقته ابنة المحبة وطفلتهما الحكمة .

وخاطب قلبي ابنة المحبة قائلاً : اين القناعة ايتها المحبة ، فقد سمعت انها تشاطركم سكنى هذا المكان ؟ قالت : ذهبت القناعـــة تكرز في المدينة حيث المطامع ، فنحن لا نحتاج اليها . السعادة لا تبتغي قناعة ، انما السعادة شوق يعانقه الوصال ، والقناعة سلوٌ يساوره النسيان . النفس الخالدة لا تقنع ، لانها تروم الكمال ، والكمال هو اللانهاية .

وخاطب قلبي فتى الجمال قائلاً : ارني سر المرأة ايها الجمال ، وانرني لانك معرفة . فقال : هي انت ايهـــا القلب البشري وكيفما كنت كانت . هي انا واينما حللت حلت . هي كالدين اذا لم يحرفه الجاهلون ، وكالبدر اذا لم تحجبه الغيوم ، وكالنسيم اذا لم تتعلق باذياله انفاس الفساد .

واقترب قلبي من الحكمة ابنة المحبة والجمال وقال : اعطيني حكمة احملها الى البشر . فاجابت : قل هي السعادة تبتدىء في قدس اقداس النفس ولا تأتي من الخارج .

مدينة الماضي

وقفت بي الحياة على سفح جبل الشباب واومأت الى الوراء. فنظرت، فاذا بمدينة غريبة الشكل والرسوم متربعة في صدر سهول تتموج فيها الأخيلة والابخرة الملونة متوشحة بقناع ضباب لطيف يكاد يحجبها.

قلت : ما هذه ايتها الحياة ؟ قالت : هي مدينة الماضي فتأمل ! فتأملت ورأيت .

معاهد اعمال جالسة كالجبابرة تحت اجنحة النوم . مساجد اقوال تحوم حولها ارواح صارخة صراخ القنوط ، مترنمة ترنيمة الامل . هياكل اديان اقامها اليقين ثم هدمها الشك . مآذن افكار مرتفعة نحو العلو كأنها ايدي المتسولين . شوارع ميول منبسطة انبساط النهر بين الربى. مخازن اسرار حرسها الكتمان فسرقتها لصوص الاستعلام . ابراج اقدام بنتها الشجاعة فثلتها المخاوف . صروح احلام زينتها الليالي وخربتها اليقظة. اكواخ صغار سكنها الضعف ، وجوامع وحدة قام فيها نكران الذات . نوادي معارف انارها العقل فاظلمها الجهل . حانات محبة سكر بها العشاق فاستهزأ بهم الخلو . مسارح اعمار مثلت عليها الحياة رواياتها ثم جاء الموت وختم مأساته .

تلك مدينة الماضي فهي بعيدة قريبة ، منظورة محجوبة .

ومشت الحياة امامي وقالت : اتبعني فقد طال بنا الوقوف . قلت : الى أين أيتها الحياة ؟ قالت : الى مدينة المستقبل . قلت : رفقاً فقد نهكني المسير وكلمت قدميَّ الصخور وهدت قواي العقبات . قالت : سر فالوقوف جبانة والنظر الى مدينة الماضي جهالة .

اللقاء

عندما اكمل الليل تنميق ثوب السماء بجواهر النجوم تصاعدت من وادي النيل حورية محفوفة بأجنحة غير منظورة . وجلست على عرش من الغيوم مرتفع فوق بحر الروم مفضض من اشعة القمر ، فمرّ من امامها جوق ارواح سابحة في الفضاء صارخة : قدوس ، قدوس ، قدوس ابنة مصر ، مجدها ملءُ كل الارض .

وتصاعد من اعالي فم الميزاب المحيط بغابة الارز طيف فتى مكتنفاً بايدي الساروفيم وجلس على العرش بقرب الحورية فعادت الارواح ومرّت من امامهما هاتفة : قدوس ، قدوس ، قدوس فتى لبنان، مجده ملء كل الدهور .

ولما أخذ المحب يد حبيبته ونظر الى عينيها حملت الرياح والامواج هذه المناجاة الى جميع الاقطار :

ما اكمل بهاءكِ يا ابنة ايسس وما اعظم حبي لك !

ما اجملك بين الفتيان يا ابن عشتروت وما اكثر شوقي اليك !

محبتي نظير اهرامك فلا تهدمها الاجيال يا حبيبتي .

محبتي تحاكي أرزك فلن تغلبها العناصر يا حبيبي .

حكماء الامم يأتون من المشرق والمغرب ليستحكموا حكمتك ويستفسروا رموزك يا حبيبتي .

عظماء الارض يجيئون من الممالك ليسكروا من رحيق جمالك وسحر معانيك يا حبيبي .

ان راحتيك منبت خيرات غزيرة تملأ الاهراء يا حبيبتي .

ان ذراعيك منبع المياه العذبة ، وانفاسك نسمات منعشة يا حبيبي .

قصور النيل وهياكله تذيع مجدك وابو الهول يحدث بعظمتك يا حبيبتي .

الارز على صدرك وسام شرف اثيل ، والابراج حولك تروي بطشك واقتدارك يا حبيبي .

آه ما أميلح محبتك وما احيلى الامل المناط بارتقائك يا حبيبتي .

آه ما اكرمك خليلاً ، واوفاك حليلاً ، وما اجمل هداياك وأنفس عطاياك ! بعثت الي بالفتيان فكانوا يقظة بعد نوم عميق . أتحفتني « بالفارس » فغلب ضعف قومي ، وحبوتني « بالاديب » فانهضهم و « بالنجيب » فاغلهم ...

بعثت اليك بالبذور فصيرتها ازهاراً ، وبالانصاب فجعلتها اشجاراً ، فانت حقل بكر يحيي الورد والسوسن ويرفع السرو والارز ...

ارى بعينيك حزناً يا حبيبي ، أتحزن وانت بقربي ؟

لي ابناء رحلوا الى ما وراء البحار وخلفوني حليف بكاء واليف شوق .

ليت لي ما يشابه حزنك وتنصرف عني مخاوفي يا حبيبي .

أتخافين يا ابنة النيل وأنت عزيزة الامم ؟

أخاف من طـــاغية تقترب مني بحلاوة روغهـا وتمتلك أعنتي بقوة ساعديها .

ان حياة الامم يا حبيبتي مثل حياة الافراد ، حياة يؤاخيها الامل ، ويقارنها الخوف ، وتحف بها الاماني ، ويرمقها القنوط .

وتعانق الحبيبان وشربا من كؤوس القبـل رحيقاً عاطراً ، فمرت اجواق الارواح منشدة : قدوس ، قدوس ، قدوس ، المحبة مجدهـا ملء السماء والارض .

مخبآت الصدور

في صرح فخيم واقف تحت جنح الليل وقوف الحياة بين ستائر الموت جلست صبية بقرب منضدة عاجية تسند رأسها الجميل بيدها مثلما تتكىء زنبقة ذابلة على اوراقها ، وتنظر الى ما حولها نظرات سجين يائس يريد ان يخرق بعينيه جدران حبسه ليرى الحياة السائرة في موكب الحرية .

مرت الساعات مرور اشباح الظلمة ، وتلك الصبية مستأنسة بدموعها ، مستأمنة بانفرادها ولوعتها ، حتى اذا ما اشتدت على قلبها وطأة عواطفها وامتلكت شواعرها خزائن أسرارها تناولت قلماً واخذت تمزج على صفحات الورق قطرات الحبر بدموعها وتجمع بين الكلام ومكنونات نفسها . وهاك ما كتبت :

ايتها الاخت المحبوبة !

عندما يضيق القلب بأسراره ، وتتقرح الاجفان من حرارة دموعها ، وتكاد الضلوع تتمزق من نمو مخبآت الصدور ، لا يجد المرء غير الكلام والشكوى . فالحزين يا صديقتي يستعذب الشكوى . يجد المحب تعزية بالتشبب ، والمظلوم لذة بالاسترحام . . . فأنا اكتب اليك الآن لانني اصبحت كشاعر يرى جمال الأشياء فينظم تأثيرات ذلك الجمال محكوماً بقوة ألوهيته ، أو كطفل الفقير الجائع يستغيث مدفوعاً بمرارة جوعه غير راحم فاقة امه وانكسارها .

اسمعي قصتي الموجعة يا اختي وابكي من اجلي، لأن البكاء كالصلاة، ودموع الشفقة كالاحسان لا تذهب سدى، لأنها متصاعدة من اعماق نفس حية شاعرة... شاء والدي وجمع بالقران بيني وبين رجل شريف غني شأن كل والد غني شريف يروم تعزيز المال بالمال مخافة الفقر وضم الشرف الى الشرف هرباً من ذل الايام.

فكنت مع عواطفي وأحلامي ضحية على مذبح ذهب أحتقره وشرف موروث أكرهه، وفريسة ترتعد بين أظافر المادة التي اذا لم تكن خادمة مطيعة للروح كانت اقسى من الموت وأمرّ من الهاوية. انا أعتبر بعلي لأنه كريم الخلق، شريف القلب، يجهد النفس في سبيل سعادتي، ويبذل المال لرضاي، ولكنني وجدت تأثير هذه الأشياء كلها لا يساوي دقيقة محبة حقيقية مقدسة، تلك المحبة التي تستصغر كل شيء وتبقى عظيمة...

لا تسخري بي يا رفيقتي، فأنا الآن اعلم الناس بحاجات قلب المرأة، هذا القلب الخفوق، هذا الطائر السابح في فضاء المحبة، هذا الاناء الطافح من خمرة الدهور المعدة لمراشف الأرواح، هذا الكتاب المطبوعة فيه فصول السعادة والشقاء، واللذة والألم، والمسرة والاحزان، فلا يقرأه الا الرفيق الحقيقي نصف المرأة المخلوق لها منذ الأزل والى الأبد... نعم صرت ادرى النساء بأغراض النفس وميول القلب عندما وجدت ان خيول بعلي المطهمة ومركباته البديعة وخزائنه الطافحة وشرفه الرفيع لا تساوي نظرة واحدة من عيني ذلك الفتى الفقير الذي جاء هذه الحياة من اجلي وجئت من أجله، ذلك الصابر على مضض

البلوى وذل التفريق ، ذلـك المظلوم عفواً بارادة والدي ، والمسجون بلا اثم في ظلمة العمر ... اياك يا صديقتي محاولة تعزيتي ، لأن لي من مصائبي معزياً ، هو ادراكي قوة حبي ، ومعرفتي شرف شوقي وحنيني، فانا انظر الآن من وراء الدموع فأرى المنية تقترب مني يومـاً فيومـاً لتقودني الى حيث انتظر رفيق نفسي والتقي به واعـانقه عناقـاً طويلاً مقدساً . ولا تلوميني ، فانا قائمة بواجبات الزوجة الأمينة خاضعة لأحكام الشرائـع البشرية بتجلد وهدوء ، اكرم بعلي بعاقلتي ، واعتبره بقلبي ، وأجله بنفسي ، ولا يمكنني ان اهبه كليتي ، لأن الله اعطاها لحبيبي قبل معرفتي حبيبي ، شاءت السماء لحكمة خفية ان اصرف العمر مع رجل خلقت لغيره فانا انفق هذا العمر حسب مشيئة السماء بسكينة ، ولكن اذا ما انفتحت ابواب الأبدية التحمت بنصف نفسي الجميل ونظرت الى الماضي ،وذاك الماضي هو هذا الآن ، نظرة الربيع الى الشتاء . وتأملت حياتي هذه مثلما يتأمل العقبات من بلغ قمة الجبل .

هنا وقفت تلك الصبية عن الكتابـــة ، وحجبت وجهها بيديها ، وبكت بكاءً مرّاً ، كأن نفسها الكبيرة أبت ان تسلم أقدس أسرارها الى الورق ، فأعطتهـا لدموع سخية تجف بسرعة وتمتزج بالأثير اللطيف موطن انفاس المحبـين وارواح الأزهار . وبعد هنيهة أخذت القـلم وكتبت : هل تذكرين يا صديقتي ذلك الفتى؟ هل تذكرين تلك الاشعة المنبعثة من عينيه وتلك الأحزان المرسومة على جبينه ؟ هـل تذكرين ابتسامه المشابه دموع الثكلى ؟ هـل تذكرين صوته المحاكي صدى الوادي البعيد ؟ هـل تذكرينه اذ كان يتأمل الأشياء بنظرات طويلة

هادئة ، ثم يتكلم عنها بغرابة ، ثم يحني رأسه ويتنهد كأنه يخاف ان يشف حديثه عن خفايا قلبه الكبير ؟ وهل تذكرين احلامه وعقائده ؟ هل تذكرين كل هذه الأشياء في فتى يحسبه البشر من البشر ويحتقره والدي لانه اسمى من المطامع الترابية واشرف من ان يرث الشرف عن الجدود ؟ إي يا اختي انت تعلمين انني شهيدة صغائر هذا العالم وضحية الغباوة وترحمين اختاً ساهرة في سكينة الليل المخيف لتكشف لك ستائر صدرها عن اسرار قلبها . انت ترحمين لان الحب قد زار قلبك .

جاء الصباح فقامت تلك الصبية واستسلمت للكرى علها تجد فيه احلاماً الطف من احلام اليقظة ...

القوة العمياء

جـاء الربيع وتكلمت الطبيعة بألسنة السواقي ففرّحت القلب . وابتسمت بشفاه الأزهار فاسعدت النفس . ثم غضبت ودكت المدينة الجميلة فانست الانسان عذوبة كلماتها ورقة ابتساماتها . قوة عمياء مخيفة نقضت بساعة ما اقامته الأجيال . موت ظلوم قبض باظـافره المحددة على الاعناق فسحقها بقساوة . نار آكلة التهمت الارزاق والاعمار . ليل قاتم اخفى جمال الحياة تحت لحف الرماد . عناصر هائلة هبت من مرابضها وقاتلت الانسان الضعيف وخربت مساكنه وذرت بسرعة ما جمعه بالتـأني . زلزال عنيف حبلت بـه الارض فتمخضت متوجعة ولم تلد غير الخراب والشقاء .

جرى كل ذلك والنفس الحزينة ناظرة مـن بعيـد تتأمل وتتألم . تتأمل بمقدرة الانسان المحدودة تجاه القوى غير العاقلة ، وتتألم مـع المصابين الهاربين من النار والدمار . تتأمل بأعداء ابن آدم الكامنة له تحت اطباق الثرى وبين دقـائق الاثير ، وتتألم مـع الوالدات النائحـات والاطفال الجائعين . تتأمل بقساوة المـادة واستصغارها الحياة العزيزة ، وتتألم مع الذين رقدوا بالامس مستأمنين في منـازلهم فـاصبحوا اليوم واقفين عن بعد يرثون المدينـة الجميلة بغصات مؤلمـة وعبرات مرة . تتأمل بكيفية انقلاب الأمل يأساً ، والفرح حزناً ، والراحة عذابـاً ، وتتألم مع قلوب ترتعد بين مخالب اليأس والحزن والعذاب .

كذا وقفت النفس بين التأمل والتألم تنقاد تارة الى الشك بعدالة النواميس الرابطة القوات بعضها دون الآخر ، وتعود طوراً فتهمس في آذان السكينة قائلة : ان من وراء الكائنات حكمة سرمدية تبتدع من كوارث ونوازل نراها محاسن نتائج لا نراها . فالنار والزلازل والعواصف من جسم الارض بمكان البغض والحقد والشر في القلب البشري تثور وتضج ثم تخمد ، ومن ثورتها وضجيجها وخمودها تبتدع الآلهة معرفة جميلة يبتاعها الانسان بدمعه ودمه وارزاقه .

اوقفتني الذكرى ونكبة هذه الامة تملأ الاسماع أنة وعويلا ، وصورت امام عينيَّ كل ما مرّ على مسرح الايام الغابرة من العبر والخطوب . فرأيت الانسان في كل ادواره يقيم على صدر الارض البروج والقصور والهياكل ، والارض ترجعها الى قلبها . رأيت الاشداء يشيدون المباني القوية ، والنحاتين يختلقون من الصخور صوراً واشباحاً ، والرسامين يزينون الجدران والمداخل بالنقوش والنسيج . ثم رأيت هذه اليابسة تفغر فاها وتبتلع بخشونة ما الفته الايدي المتفننة والعقول الراجحة ، ماحية بقساوتها ظواهر الصور والاشباح ، مدمرة بسخطها خطوط الرسوم والنقوش ، دافنة بعنفها فخامة الدعائم والجدران ، ممثلة دور حسناء مستغنية عن الحلى التي يصوغها ابن آدم ، مستكفية بحلل المروج الخضراء المزركشة بذهب الرمال وجواهر الحصى ...

على انني وجدت بين هذه النكبات المخيفة والرزايا الهائلة الوهية الانسان واقفة كالجبار تسخر بحماقة الارض وغضب العناصر ، ومثل عمود نور منتصبة بين خرائب بابل ونينوى وتدمر وبمباي وسان فرانسيسكو ترتل انشودة الخلود قائلة : لتأخذ الأرض مالها فلا نهاية لي .

منيتان

في سكينة الليل هبط الموت من لدن الله نحو المدينة النائمة واستقر على اعلى مئذنة فيها وخرق بعينيه النيرتين جدران المساكن ورأى الارواح المحمولة على اجنحة الاحلام والاجساد المحكومة بفاعيل الكرى .

ولما توارى القمر وراء الشفق وتوشحت المدينة بنقاب الخيال سار الموت بقدم هادئة بين المساكن حتى بلغ صرح القوي الغني ، فدخل ولم تصده الحواجز ، ووقف بجنب سريره ثم لمس جبينه فانذعر من غفلته ، ولما رأى خيال الموت امامه صرخ بصوت تجسمت فيه عوامل الحنق والخوف وقال : ابعد عني ايها الحلم المخيف . اذهب ايها الخيال الشرير . كيف دخلت ايها السارق وماذا تروم ايها الخاطف ؟ اذهب فانا رب البيت . اذهب والا ناديت العبيد والحراس فيمزقونك اربا .

حينئذ اقترب الموت ، وبصوت يحاكي الرعد قال : انا هو الموت فانتبه واعتبر ! فاجاب القوي الموسر : ماذا تريد مني الآن وماذا تطلب ؟ لماذا جئت وانا لم انهِ اعمالي بعد ؟ ماذا تطلب من الاقوياء نظيري ؟ اذهب الى السقماء . اغرب عني ولا ترني اظافرك الجارحة وشعرك المسدول كالافاعي . رح فقد سئمت النظر الى جناحيك الهائلين وجسدك البالي . وبعد سكينة مزعجة زاد : لا لا ايها الموت الرؤوف ،

لا تحفل بما قلته ، فالخوف يوحي ما يحرمه القلب ، خذ مكيالاً من ذهبي او قبضة من ارواح عبيدي واتركني وشأني ... لي يا موت مع الحياة حساب لم انهه ومع الناس مال لم استوفه . لي بين امواج البحر مراكب لم تصل الى الساحل ، وفي قلب الارض غلة لم تنبت . خذ ما شئت من هذه الاشياء واتركني . لي جوارٍ كالصباح جمالاً فاختر منهن ما تريد . اسمع ايها الموت : لي وحيد احبه وهو عقدة آمالي ، خذه واتركني . خذ ما تشاء . خذ كل شيء واتركني .

حينئذ وضع الموت يده على فم عبد الحياة الترابية واخذ حقيقته واعطاها للهواء .

سار الموت بين احياء الفقراء الضعفاء حتى بلغ بيتاً حقيراً فدخله واقترب من سرير عليه فتى في ربيع العمر ، وبعد ان تأمل وجهه الهادىء لمس عينيه فاستيقظ ، ولما رأى الموت واقفاً بجانبه جثا على ركبتيه ورفع ذراعيه نحوه وقال بصوت اودعه كل ما في نفسه من المحبة والشوق : هاءنذا ايها الموت الجميل ، اقتبل نفسي يا حقيقة احلامي وموضوع آمالي ! ضمني يا حبيب نفسي ، فانت رحوم ، لا تتركني هنا . انت رسول الآلهة ، انت يمين الحق ، فلا تتخلَّ عني ، كم طلبتك ولم اجدك ، وكم ناديتك ولم تسمع . قد سمعتني الآن ، فلا تقابل شغفي بالصدود . عانق نفسي يا حبيبي الموت .

وضع الموت اذ ذاك انامله اللطيفة على شفتي الفتى واخذ حقيقته ووضعها تحت جناحيه .

ولما حلق الموت في الجو نظر نحو هذا العالم ونفخ في الهواء هذه الكلمات : لن يرجع الى الابدية الا من جاء من الابدية .

على ملعب الدهر

ودقيقة تراوح بين تأثيرات الجمال واحلام الحب لهي اسمى واثمن من جيل ملأه المجد الذي يمنحه الضعيف المسكين للقوي الطامع .

من تلك الدقيقة تنبثق الوهية الانسان ، وفي ذاك الجيل تنام نوماً عميقاً مكتنفة ببراقع احلام مزعجة . في تلك الدقيقة تتحرر النفس من اعباء شرائع الانسان المتباينة ، وفي ذاك الجيل تحبس وراء جدران الاهمال مثقلة بقيود الظلم . تلك الدقيقة كانت مهد نشيد سليمان وموعظة الجبل وتائية الفارض ، وذاك الجيل كان القوة العمياء التي هدمت هياكل بعلبك ودكت مباني تدمر وسحقت بروج بابل .

ويوم صرفته النفس آسفة على موت حقوق الفقير ، متأوهة على فقدان العدل ، لهو اجلُّ وافضل من عمر يضيعه الانسان مسروراً على مائدة الشهوات ، مستسلماً لقضاء الانانية . ذاك يوم يطهر القلب بناره ويفعمه بنوره ، وذا عمر يخيم عليه بجنحه القاتم ويلحده طي طبقات التراب . ذاك يوم كان يوم العبر ، ويوم الجلجلة ، ويوم الهجرة ، وذا عمر انفقه نيرون في سوق المظالم ، ووقفه قارون على مذبح المطامع ، وطمره دون جوان في قبر الجسديات .

وهذه هي الحياة ، تمثلها الليالي على ملعب الدهر نظير مأساة ، وتنشدها الايام كأغنية ، وفي النهاية تحفظها الابدية كجوهرة ...

خليلي

لو علمت ، يا خليلي الفقير ، ان الفاقة التي تقضي عليك بالشقاء هي هي التي توحي اليك معرفة العدل وتبثك ادراك كنه الحياة ، لرضيت بقسمة الله . قلت : معرفة العدل ، لان الغني مشغول عن تلك المعرفة بخزائنه . وقلت : كنه الحياة ، لان القوي منصرف عنها الى المجد . فافرح اذن بالعدل ، لانك لسانه ، وبالحياة ، لانك كتابها . وابتهج ، فانت مصدر فضيلة عاضديك وعاضد فضيلة الآخذين بيدك .

ولو دريت يا حبيبي الحزين ان الارزاء التي اصبحت مغلوبها هي تلك القوة التي تنير القلب وترفع النفس من دركات الاستهزاء الى درجات الاعتبار لقنعت بها ارثاً ، وبتأثيراتها مهذباً، وعلمت ان الحياة سلسلة ذات حلقات آخذة بعضها برقاب البعض ، وان الحزن حلقة ذهبية تفصل بين الاستسلام لمآتي الحاضر والتعلل ببهجة الآتي ، كما يفصل الصبح بين النوم واليقظة .

خليلي ، ان الفقر يظهر شرف النفس ، والغنى يبين لؤمها ، والحزن يلطف العواطف ، والسرور يدملها ، لان الانسان ما برح يستخدم المال والسرور توصلاً للازدياد ، مثلما يفعل باسم الكتاب شراً ينزه عنه الكتاب ، وباسم الانسانية ما تأباه الانسانية .

لو باد الفقر ونأى الحزن لأصبحت النفس صحيفة خالية الا من

ارقام تدل على الانانية ومحبة الاكثار ، والفاظ مفادها الشهوات الترابية ، لاني نظرت فوجدت الألوهية ، وهي الذات المعنوية في الانسان ، لا تباع بالمال ولا تنمو بمسرات فتيان العصر ، وتأملت ، فرأيت الغني ينبذ الوهيته ويحرص على امواله ، وفتى العصر يغادرها ويتبع ملذاته .

ان الساعة التي تصرفها ، ايها الفقير ، مع رفيقتك وصغارك بعد مجيئك من الحقل لهي رمز العائلة البشرية المستقبلة ، هي عنوان سعادة الاجيال الآتية ، والحياة التي يصرفها المثري بين الخزائن لهي حياة دنية تحاكي حياة الدود في القبور ، هي رمز الخوف .

والدموع التي تذرفها ، ايها الحزين ، هي اعذب من ضحك المتناسي وأحلى من قهقهة المستهزىء . تلك دموع تغسل القلب من ادران البغض وتعلم ذارفها كيف يشارك منكسري القلب بشواعره ، هي دموع الناصري .

ان القوة التي زرعتها ، ايها الفقير ، واستغلها الغني القوي سوف تعود اليك ، لان الاشياء ترجع الى مصادرها بحكم الطبيعة ، والاسى الذي عانيته ، ايها الحزين ، ينقلب فرحاً بحكم السماء .

سوف تتعلم الاجيال الآتية المساواة من الفقر ، والمحبة من الاحزان .

حديث الحب

في بيت منفرد جلس فتىً في صبح الحياة ينظر آناً من النافذة الى السماء المزدانة بالكواكب ، وآونة الى رسم صبية بين يديه . رسم تعكس خطوطه والوانه على وجهه ، فتظهر عليه اسرار هذا العالم وخفايا الابدية . صورة ملامح امرأة تناجيه جاعلة عينيه آذاناً تفقه لغة الأرواح السابحة في فضاء تلك الغرفة ومبتدعة من مجموعه قلوباً انارها الحب وافعمها الشوق .

كذا مرت ساعة ، كأنها دقيقة احلام مستحبة او عام من حياة البقاء ، ثم وضع الفتى الرسم امامه وأخذ قلماً وورقة و كتب :

يا حبيبة نفسي !

ان الحقائق العظيمة الفائقة الطبيعة لا تنتقل من بشريّ الى آخر بواسطة الكلام البشري المتعارف ، لكنها تختار السكينة سبيلاً بين النفوس . وانا اشعر بان سكينة هذا الليل تسعى بين نفسينا حاملة رسائل ارقّ من تلك التي يكتبها النسيم على وجه الماء ، تالية كتاب قلبينا على قلبينا ، ولكن مثلما شاء الله فجعل النفوس في اسر الاجسام شاء الحب فجعلني اسير الكلام . . . يقولون يا حبيبتي ان الحب ينقلب بالعباد ناراً آكلة ، وانا وجدت ان ساعة الفراق لم تقو على فصل ذاتينا المعنويتين ، مثلما علمت عند اول لقاء ان نفسي تعرفك منذ

دهور، وان اول نظرة اليك لم تكن بالحقيقة اول نظرة ... يا حبيبتي، ان تلك الساعة التي جمعت قلبينا المنفيين عن العالم العلوي هي من ساعات قليلة تدعم اعتقادي بازلية النفس وخلودها . في مثل تلك الساعة تكشف الطبيعة القناع عن وجه عدلها المتناهي والمظنون به ظلماً ...

هل تذكرين يا حبيبتي ذاك الروض ، حيث وقفنا وكلانا ناظر وجه حبيبه ؟ وهل تعلمين ان نظراتك كانت تقول لي ان محبتك لي لم تنبثق من الشفقة عليّ ؟ تلك النظرات التي علمتني ان اقول لذاتي وللعالمين ان العطاء الذي يكون مصدره العدل لهو اعظم من الذي يبتدىء من الحسنة ، وان المحبة التي تبتدعها الظروف تشابه مياه المستنقعات .

امامي يا حبيبتي حياة اريدها ان تكون عظيمة وجميلة . حياة تؤاخي ذكر الانسان الآتي وتستدعي اعتباره ومحبته . حياة قد ابتدأت عندما لقيتك وانا واثق بخلودها ، لأني مؤمن بكونك قادرة على اظهار القوة التي اودعني الله اياها متجسمة باقوال واعمال كبيرة ، مثلما تستنبت الشمس ازهار الحقل ذات العرف الطيب ، وكذا تظل محبتي لي وللاجيال ، وتبقى منزهة عن الانانية لتعميمها ، ومتعالية عن الابتذال لتخصيصها بك .

وقام الفتى ومشى بتمهل في تلك الغرفة ، ثم نظر من النافذة ورأى القمر قد طلع من وراء الافق وملأ الفضاء اشعة لطيفة ، فرجع وكتب في تلك الرسالة :

سامحيني يا حبيبتي فقد ناجيتك بضمير المخاطب وانت نصفي الجميل الذي فقدته عندما خرجنا من يد الله في آن واحد ، سامحيني يا حبيبتي .

الحيوان الابكم

وفي نظرات الحيوان الأبكم
كلام تفهمــه نفس الحكيم
شاعر هندي

في عشية يوم تغلبت فيه تخيلاتي على عاقلتي مررت باطراف احياء المدينة ووقفت أمام منزل مهجور تداعت أركانه وحطت دعائمه ولم يبق منه سوى اثر يخـــبر عن هجر طويل ويدل على زوال محزن. فرأيت كلباً يتوسد الرماد وقد ملأت القروح جسمه الضعيف واستحكمت العلل بهيكله المهزول ، فصار يرمق الشمس الجانحة نحو الغروب بعين وسمت عليها أشباح الذل وبدت فيها مظاهر القنوط واليأس ، فكأنه درى بان الشمس قد أخذت تسترجع حرارة أنفاسها عن تلك البقعة المهجورة البعيدة عن الأولاد مضطهدي الحيوان الضعيف ، فصار يرمقها بعين آسفة مودعة . فاقتربت منه على مهل واداً لو عرفت النطق بلسانه فأعزيه في شدائده وابدي له شفقة في بؤسه ، ولما دنوت منـه خافني وتحرك ببقايا حياة قاربت الانحلال مستنجداً بقوائم شلتها العلة وراقبها الفنـاء . واذ لم يقو على النهوض نظر اليَّ نظرة فيها مرارة استرحام وحلاوة استعطاف ، نظرة فيها انعطاف وملامـة ، نظرة قامت مقام النطق ، فكانت افصح من لسان الانسان وابلغ من دموع المرأة . ولما تلاقت عينـاي بعينيه الحزينتين تحركت عواطفي وتمايلت تأثــراتي فجسمت تلك النظرات وابتدعت لها أجساداً من كلام متعارف بين

البشر . نظرات مفادها : كفى ما بي يا هـذا ، وكفى ما عانيت من اضطهـاد الناس ، وما قاسيت من ألم الأمراض . امض واتركـني وسكينتي استمد من حرارة الشمس دقائق الحياة، فقد هربت من مظالم ابن آدم وقسوته والتجأت الى رماد أكثر نعومة من قلبه واختبأت بين خرائب أقل وحشة من نفسه . اذهب عني ، فما أنت الا من سكان أرض ما برحت ناقصة الأحكام ، خالية من العدل ... انا حيوان حقير لكنني خدمت ابن آدم وكنت في منزله مخلصاً ووفياً ، وفي رفقته متربصاً وجاسوساً . كنت شريكاً في احزانه ، ومغتبطاً في أفراحه ، متذكراً ايام بعده ، مرحباً عند مجيئه ، وكنت اكتفي بفتات مائدته واسعد بعظم جرّده باضراسه . ولكن لما شخت وهرمت وأنشبت الأمراض في جسمي اظافرها نبذني وأبعـدني عن داره وصيرني ملعبـة لصبيان الأزقة القساة ، وهدفاً لنبال العلل ، ومحطاً لرحال الأقدار . أنا ، يا ابن آدم ، حيوان ضعيف ، لكني وجـدت نسبة كائنة بيني وبـين الكثيرين من اخوانك البشر الذين اذا ما ضعفت قواهم قـلّ رزقهم وساء حالهم . انا مثل جنود يحاربون عن الوطن في شبيبتهم ويستثمرون الأرض في كهولتهم ، حتى اذا ما جاء شتاء الحياة وقلّ نفعهم ابعدوهم ونسوهم . انا مثل امرأة تجملت صبيـة لتفريح قلب الشبيبة ، وسهرت زوجة في الليالي لتربية الأطفال ، وتعبت امرأة لايجاد رجال المستقبل ، ولكن لما شاخت وعجزت اصبحت نسياً منسياً وأمراً مكروهاً . . . آه ما أظلمك يا ابن آدم وما اقساك !

كانت نظرات ذلك الحيوان تتكلم وقلبي يفهم ونفسي تراوح بين شفقتي عليه وتصوراتي بابناء بجدتي . ولما أغمض عينيه لم اشأ ازعاجه فذهبت . . .

السلم

سكنت العاصفة بعد ان لوت الاغصان وحنت الزروع ، وبانت النجوم كأنها بقايا البرق المتكسرة على اديم السماء ، وسكنت تلك الحقول كأن حرب العناصر لم تكن .

في تلك الساعة دخلت الصبية مرقدها وجثت على سريرها وبكت بكاءً مراً ، ثم تصاعدت زفراتها وتجسمت انفاسها الحارة بهذه الكلمات : رده اليّ يا رب ، فقد جفت دموعي وذابت حشاشتي . ارجعه ايها الروح القاضي بحكمة تسمو عن نهى الانسان ، فقد جفاني التجلد وتحكم بي الاسى . خلصه من بين مخالب الحرب المحددة . انقذه من الموت القاسي وارحمه فتىً ضعيفاً جنت عليه قوة القوي فسلبني اياه . تغلبي ايتها المحبة على عدوتك الحرب وخلصي حبيبي فهو من ابنائك . ابتعد عنه ايها الموت ودعه يراني او تعال وخذني اليه .

في تلك الدقيقة دخل فتى تضم رأسه عصائب بيضاء كتبت عليها الهيجاء احرفاً قرمزية واقترب من الصبية وحياها بدمعة وابتسامة ثم أخذ يدها ووضعها على شفتيه الملتهبتين ، وبصوت تآلفت فيه عوامل الحب الجارح ومفاعيل اللقاء المفرح قال : لا تجفلي فقد اتى من تبكين من اجله ، افرحي فقد اعاد اليك السلم من سرقته الحرب ، وارجع اليك فتى الانسانية ما سلبه ابن المطامع . كفكفي الدمع يا حبيبتي وابتسمي ،

لان للشعوب ائمة ترحم متى عمت قساوة ائمة الشعوب . لا تعجبي من ايابي حياً ، فللحب وسم يراه الموت فينصرف ، ويتوسمه العدو فيتقهقر. انا هو ، فلا تحسبيني خيالاً جاء من مرتع المنايا ليزور مربعاً يسكنه جمالك والسكون . لا تخافي فانا حقيقة سلمت من بين الاسنة والنار لتخبر الناس بغلبة الحب على الحرب . انا كلمة لفظها رجل السلم لتكون توطئة لرواية سعادتك .

انعقد اللسان اذ ذاك وناب الدمع عن الكلام وحامت ملائكة السرور حول ذلك الكوخ الحقير واسترجع القلبان ما فقداه عند الوداع.

ولما جاء الصباح وقف الاثنان في وسط الحقل يتأملان جمال الطبيعة ، وبعد سكينة فيها من الاحاديث ما فيها نظر الجندي نحو المشرق الاقصى وقال لحبيبته : انظري الشمس طالعة من الظلمة .

الشاعر

حلقة تصل بين هذا العالم والآتي . منهل عذب تستقي منه النفوس العطشى . شجرة مغروسة على ضفة نهر الجمال ذات ثمار يانعة تطلبها القلوب الجائعة . بلبل يتنقل على اغصان الكلام وينشد انغاماً تملأ خلايا الجوارح لطفاً ورقة . غيمة بيضاء تظهر فوق خط الشفق ثم تتعاظم وتتصاعد حتى تملأ وجه السماء وتنسكب لتروي أزهار حقل الحياة . ملك بعثته الآلهة ليعلم الناس الالهيات . نور ساطع لا تغلبه ظلمة ولا يخفيه مكيال ، ملأته زيتاً عشتروت إلاهة الحب واشعله آبولون إله الموسيقى .

وحيد يرتدي البساطة ويتغذى اللطف ويجلس على احضان الطبيعة ليتعلم الابتداع ويسهر في سكينة الليل منتظراً هبوط الروح . زراع يبذر حبات قلبه في رياض الشواعر ، فتنبت زرعاً خصيباً تستغله الانسانية وتتغذى به .

هذا هو الشاعر الذي تجهله الناس في حياته وتعرفه عندما يودع هذا العالم ويعود الى موطنه العلوي . هذا الذي لا يطلب من البشر الا ابتسامة صغيرة ، والذي تتصاعد انفاسه وتملأ الفضاء أشباحاً حية جميلة والناس تبخل عليه بالخبز والمأوى .

فالى متى أيها الانسان ، الى متى ايها الكون تقيم من الفخر بيوتاً للألى

جبلوا أديم التراب بالدماء، وتعرض بتهامل عن الذين يهبونك من محاسن أنفسهم سلاماً ووداعة؟ وحتى مَ تعظم القتلة والذين حنوا الرقـاب بنير الاستعباد وتتناسى رجالاً يسكبون نور الاحداق في ظلمة الليل ليعلموك ان ترى بهـــاء النهار ويصرفون العمر بين مخالب الشقاء كيلا تفوتك لذة السعادة ؟

وانتم ايها الشعراء ، يا حياة هذه الحياة ، قد تغلبتم على الاجيـال قسراً عن قساوة الاجيال ، وفزتم باكاليل الغار غصباً عن اشواك الغرور ، وملكتم في القلوب وليس لملككم نهاية وانقضاء ، يا ايها الشعراء .

يوم مولدي

كتبت في باريس في ٦ كانون الاول
سنة ١٩٠٨

في مثل هذا اليوم ولدتني أمي .

في مثل هذا اليوم منذ خمس وعشرين سنة وضعتني السكينة بين أيدي هذا الوجود المملوء بالصراخ والنزاع والعراك .

ها قد سرت خمساً وعشرين مرة حول الشمس ، ولا أدري كم مرة سار القمر حولي ، لكنني لم أدرك بعد اسرار النور ، ولا عرفت خفايا الظلام .

قد سرت خمساً وعشرين مرة مع الارض والقمر والشمس والكواكب حول الناموس الكلي الاعلى ، ولكن هوذا نفسي تهمس الآن اسماء ذلك الناموس مثلما ترجع الكهوف صدى أمواج البحر ، فهي كائنة بكيانه ، ولا تعلم ماهيته ، وتترنم بأغاني مده وجزره ، ولا تستطيع ادراكه .

منذ خمس وعشرين سنة خطتني يد الزمان كلمة في كتاب هذا العالم الغريب الهائل . وهاءنذا كلمة مبهمة ، ملتبسة المعاني ، ترمز تارة الى لا شيء ، وطوراً الى أشياء كثيرة .

ان التأملات والافكار والتذكارات تتزاحم على نفسي في مثل هذا

اليوم من كل سنة ، وتوقف أمامي مواكب الايام الغابرة ، وتريني أشباح الليالي الماضية ، ثم تبددها كما تبدد الرياح بقايا الغيوم فوق خط الشفق ، فتضمحل في زوايا غرفتي اضمحلال أناشيد السواقي في الاودية البعيدة الخالية .

في مثل هذا اليوم من كل سنة تجيء الارواح التي رسمت روحي متراكضة نحوي من جميع أطراف العالم، وتحيط بي مرتلة أغاني الذكرى المحزنة ، ثم تتراجع على مهل وتختفي وراء المرئيات، كأنها أسراب من الطير هبطت على بيدر مهجور فلم تجد بذوراً تلتقطها فرفرفت هنيهة ثم طارت سابحة الى مكان آخر .

في هذا اليوم تنتصب أمامي معاني حياتي الغابرة ، كأنها مرآة ضئيلة أنظر فيها طويلاً فلا أرى سوى أوجه السنين الشاحبة كأوجه الاموات، وملامح الآمال والاحلام والاماني المتجعدة كملامح الشيوخ. ثم أغمض عينيّ وانظر ثانية في تلك المرآة، فلا ارى غير وجهي، ثم أحدق الى وجهي فلا أرى فيه غير الكآبة ، ثم استنطق الكآبة فأجدها خرساء لا تتكلم ، ولو تكلمت الكآبة لكانت أكثر حلاوة من الغبطة .

في الخمس والعشرين سنة الغابرة قد أحببت كثيراً . وكثيراً ما أحببت ما يكرهه الناس وكرهت ما يستحسنونه . والذي أحببته عندما كنت صبياً ما زلت احبه الآن . والذي أحبه الآن سأحبه الى نهاية الحياة . فالمحبة هي كل ما أستطيع أن أحصل عليه ولا يقدر أحد أن يفقدني اياه .

قد أحببت الموت مرات عديدة ، فدعوته باسماء عذبة وتشببت به

سراً وعلناً. ولئن لم اسلُ الموت ولا نقضت له عهداً، فانني صرت احب الحياة أيضاً. فالموت والحياة قد تساويا عندي بالجمال، وتضارعا باللذة، وتشاركا بإنماء شوقي وحنيني، وتساهما محبتي وانعطافي.

وقد أحببت الحرية فكانت محبتي تنمو بنمو معرفتي عبودية النـاس للجور والهوان، وتتسع باتساع ادراكي خضوعهم للاصنام المخيفة التي نحتتها الاجيال المظلمة، ونصبتها الجهالة المستمرة، ونعمت جوانبهـا ملامس شفاه العبيد، لكنني كنت أحب هؤلاء العبيد بمحبتي الحرية، وأشفق عليهم، لأنهم عميان يقبلون أحناك الضواري الداميـة ولا يبصرون، ويمتصون لهاث الأفاعي الخبيثة ولا يشعرون، ويحفرون قبورهم بأظافرهم ولا يعلمون. قد أحببت الحرية أكثر من كل شيء، لأنني وجدتها فتاة قد أضناها الانفراد، وانحلها الاعتزال، حتى صارت خيالاً شفافاً يمر بين المنازل، ويقف في منعطفات الشوارع، وينادي عابري الطريق فلا يسمعون ولا يلتفتون.

وفي الخمس والعشرين سنة قد احببت السعادة مثل جميع البشر، فكنت استيقظ كل يوم وأطلبها كما يطلبونها، لكنني لم أجدها قط في سبيلهم، ولا رأيت أثرَ أقدامها على الرمال المحيطة بقصورهم، ولا سمعت صدى صوتها خارجاً من نوافذ هياكلهم. ولما انفردت بطلبها سمعت نفسي تهمس في أذنيَّ قائلة: السعادة صبية تولد وتحيا في أعماق القلب ولن تجيء اليه من محيطه. ولما فتحت قلبي لكي أرى السعادة وجدت هناك مرآتها وسريرها وملابسها، لكنني لم أجدها.

وقد أحببت الناس، أحببتهم كثيراً، والناس في شرعي ثلاثة:

واحد يلعن الحياة ، وواحد يباركها ، وواحد يتأمل بها . فقد احببت الاول لتعاسته ، والثاني لسماحته ، والثالث لمداركه .

هكذا انقضت الخمس والعشرون سنة . وهكذا ذهبت أيامي ولياليّ متسارعة ، متتابعة ، متساقطة من حياتي ، مثلما تتناثر أوراق الشجر أمام رياح الخريف .

واليوم، وقد وقفت متذكراً ، وقوف سائر متعب بلغ منتصف العقبة ، أنظر الى كل ناحية فلا أرى لماضي حياتي اثراً استطيع أن أومىء اليه أمام وجه الشمس قائلا : هذا لي . ولا أجد لفصول اعوامي غلة سوى أوراق مخضبة بقطرات الحبر السوداء ، ورسوم غريبة مبعثرة مملوءة خطوطاً وألواناً متباينة متناسقة . في هذه الاوراق المنثورة ، والرسوم المبعثرة ، قد كفنت ودفنت عواطفي وافكاري واحلامي ، مثلما يدفن الزراع البذور في بطن الارض، ولكن الزراع الذي يخرج الى الحقل ويلقي البذور بين ثنايا التراب يعود الى بيته في المساء آملا راجياً منتظراً أيام الحصاد والاستغلال ، أما أنا فقد طرحت حبات قلبي بلا أمل ، ولا رجاء ، ولا انتظار .

والآن ، وقد بلغت هذه المرحلة من العمر، فتراءى لي الماضي من وراء ضباب التنهد والاسى ، وبان لناظري المستقبل من وراء نقاب الماضي ، أقف وأنظر الى الوجود من خلال بلور نافذتي ، وارى وجوه الناس واسمع أصواتهم متصاعدة الى الفضاء ، وأعي وقع أقدامهم بين المنازل وأشعر بملامس أرواحهم وتموجات ميولهم ونبضات قلوبهم . أنظر ، فأرى الاطفال يلعبون ويتراكضون ويذرون التراب بعضهم

في وجوه بعض ضاحكين مقهقهين، وأرى الفتيان يسيرون بعزم رافعين رؤوسهم كأنهم يقرأون قصيدة الشباب مكتوبة بين حواشي الغيوم المبطنة باشعة الشمس، وأرى الصبايا يخطرن ويتثنين كالاغصان ويتبسمن كالازهار وينظرن الى الفتيان من وراء جفون ترتعش بالميل والانعطاف، وأرى الشيوخ يمشون على مهل محدودبي الظهور، متوكئين على العصي، محدقين الى الارض، كأنهم يبحثون بين دقائق التراب عن جواهر اضاعوها. اقف بجانب نافذتي وانظر متأملاً بجميع هذه الصور والاشباح الساكنة بسيرها، المتطايرة بدبيبها في شوارع المدينة وازقتها، ثم انظر متأملاً بما وراء المدينة، فارى البرية بكل مــا فيها من الجمال الرهيب، والسكينة المتكلمة، والتلول الباسقة، والاودية المنخفضة، والاشجار النامية، والاعشاب المتمايلة، والازهـار المعطرة، والانهـار المترنمة، والاطيار المغردة، ثم انظر الى ما وراء البرية، فارى البحر بكل ما في اعماقه من الغرائب والعجائب، والمدافن والاسرار، وما على سطحه من الامواج المزبدة، الغضوب، المتسارعة، المتهاونة، والابخرة المتصاعدة، المتبددة، المتساقطة، ثم انظر متأمـلاً بمـا وراء البحر، فارى الفضاء غير المتناهي بكل ما فيه من العوالم السابحة، والكواكب اللامعة، والشموس والاقمار والسيارات والثوابت، ومـا بينها من الدوافع والجواذب المتسالمة، المتنازعة، المتولدة، المتحولة، المتماسكة بناموس لا حـد له ولا مدى، الخاضعة لشرع كلي ليس لبدئه ابتداء ولا لنهايته نهـاية. انظر وأتأمل بجميع هـذه الاشياء من خلال بلور نافذتي فانسى الخمس والعشرين وما جاء قبلها من الاجيال وما سيأتي

بعدها من القرون ، ويظهر لي كياني ومحيطي بكل ما اخفاه واعلنه كذرة من تنهدة طفل ترتجف في خلاء ازليّ الاعماق ، سرمدي العلو ، ابدي الحدود . لكنني اشعر بكيان هذه الذرة ، هذه النفس ، هذه الذات التي ادعوها انا . اشعر بحراكها ، واسمع ضجيجها . فهي ترفع الآن اجنحتها نحو العلاء وتمتد يداها الى كل ناحية ، وتتمايل مرتعشة في مثل اليوم الذي ابانها للوجود ، وبصوت متصاعد من قدس اقداسها تصرخ قائلة : سلام ايتها الحياة . سلام ايتها اليقظة . سلام ايتها الرؤيا . سلام ايها النهار الغامر بنورك ظلمة الارض . وسلام ايها الليل المظهر بظلمتك انوار السماء . سلام ايتها الفصول . سلام ايها الربيع المعيد شبيبة الارض . سلام ايها الصيف المذيع مجد الشمس . سلام ايها الخريف الواهب ثمار الاتعاب وغلة الاعمال . سلام ايها الشتاء المرجع بثوراتك عزم الطبيعة . سلام ايتها الاعوام الناشرة ما اخفته الاعوام . سلام ايتها الاجيال المصلحة ما افسدته الاجيال . سلام ايها الزمن السائر بنا نحو الكمال . سلام ايها الروح الضابط اعنة الحياة ، المحجوب عنا بنقاب الشمس . وسلام لك ايها القلب ، لانك تستطيع ان تهزأ بالسلام وانت مغمور بالدموع . وسلام لك ايتها الشفاه ، لانك تتلفظين بالسلام وانت تذوقين طعم المرارة .

الطفل يسوع

والحب الطفل

كنت بالأمس وحيداً في هذا العالم يا حبيبتي ، وكانت الوحدة قاسية كالموت . وكنت منفرداً كالزهرة النابتة في ظل الصخور المتعالية فلا تشعر الحياة بوجودي ، ولا أنا أشعر بكيان الحياة . واليوم قد استيقظت نفسي ورأتك منتصبة بقربها ، فتهيبت وتهللت ، ثم سجدت أمامك ، مثلما فعل ذلك الراعي عندما رأى العليقة مشتعلة .

كانت بالامس ملامس الهواء خشنة يا حبيبتي ، وأشعة الشمس ضعيفة ، وكان الضباب يستر وجه الارض وضجيج أمواج البحر يشابه الرعود القاصفة . وكنت أتلفت الى كل ناحية فلا أرى غير ذاتي المتوجعة واقفة بجانبي وخيالات الظلمة تهبط وتتصاعد حولي كالغربان الجائعة ، واليوم قد خف الهواء ، وغمر النور الطبيعة ، وسكنت الامواج ، وانقشعت الغيوم ، فكيفما نظرت أراك وأرى أسرار الحياة محيطة بك كالهالات التي يحدثها جسم العصفور على وجه البحيرة الهادئة عندما يتحمم بمائها الهادىء .

كنت بالأمس كلمة صامتة في خاطر الليالي ، فأصبحت أغنية مفرحة على ألسن الايام ، وقد تم هذا كله في دقيقة واحدة مؤلفة من نظرة وكلمة وتنهدة وقبلة . تلك الدقيقة يا حبيبتي قد جمعت بين

استعدادات نفسي الغابرة وأمانيها الآتية ، فكانت كالوردة البيضاء الخارجة من قلب الارض المظلم الى نور النهار . تلك الدقيقة هي من كل حياتي بمنزلة ميلاد يسوع من كل الاجيال ، لانها كانت مملوءة روحاً وطهراً ومحبة ، لانها جعلت الظلمة في اعماقي شعاعاً ، والكآبة مرحاً ، والشقاء سعادة .

ان شعلات المحبة يا حبيبتي تهبط من السماء متموجة بصور متباينة واشكال متنوعة ، لكن فعلها وتأثيرها في هذا العالم هو واحد : فالشعلة الصغيرة التي تنير خلايا قلب الانسان الفرد هي كالشعلة العظيمة المشعشعة التي تنحدر من الاعالي وتنير ظلمات الامم جميعها ، لان في النفس الواحدة عناصر وميولاً وعواطف لا تختلف البتة عن العناصر والميول والعواطف الكائنة في نفس العائلة البشرية .

كان اليهود يا حبيبتي يترقبون مجيء عظيم موعود به منذ ابتداء الدهر ليخلصهم من عبودية الامم ، وكانت النفس الكبيرة في اليونان ترى أن عبادة المشتري ومينرفا قد ضعفت ، فلم تعد الارواح تشبع من الروحيات ، وكان الفكر السامي في رومة يتأمل فيجد أن ألوهية أبولون أصبحت تتباعد عن العواطف ، وجمال فينيس الابدي قد أخذ يقترب من الشيخوخة ،وكانت الامم كلها تشعر على غير معرفة منها بمجاعة نفسية الى تعاليم مترفعة عن المادة وبميل عميق الى الحرية الروحية التي تعلم الانسان ان يفرح مع قريبه بنور الشمس وجمال الحياة . تلك هي الحرية الجميلة التي تخول الانسان ان يقترب من القوة غير المنظورة بلا خوف ولا وجل بعد أن يقنع الناس طراً بأنه يقترب منهم من أجل سعادتهم .

كان ذلك كله من الفي سنة يا حبيبتي عندما كانت عواطف القلب البشري تحوم مرفرفة حول المرئيات وتخشى الدنو من الروح الكلي الخالد ، عندما كان « بان » إله الاحراج يملأ نفوس الرعاة جزعاً ، وبعل إله الشمس يضغط بايدي كهانه على قلوب المساكين والضعفاء .

ففي ليلة واحدة ، بل في ساعة واحدة ، بل في لمحة واحدة تنفرد عن الاجيال ، لانها أقوى من الاجيال ، انفتحت شفاه الروح ولفظت « كلمة الحياة » التي كانت في البدء عند الروح ، فنزلت مع نور الكواكب وأشعة القمر وتجسدت وصارت طفلاً بين ذراعي ابنة من البشر ، في مكان حقير ، حيث يحمي الرعاة مواشيهم من كواسر الليل ... ذلك الطفل النائم على القش اليابس في مذود البقر — ذلك الملك الجالس فوق عرش مصنوع من القلوب المثقلة بنير العبودية ، والنفوس الجائعة الى الروح ، والافكار التائقة الى الحكمة — ذلك الرضيع الملتف باثواب أمه الفقيرة قد انتزع بلطفه صولجان القوة من المشتري وأسلمه للراعي المسكين المتكىء على الاعشاب بين أغنامه ، وأخذ الحكمة من مينرفا برقته ووضعها على لسان الصياد الفقير الجالس في زورقه على شاطىء البحيرة ، واستخلص الغبطة بحزن نفسه من آبولون ووهبها لكسير القلب الواقف مستعطياً أمام الابواب ، وسكب الجمال بجماله من فينيس وبثه في روح المرأة الساقطة الخائفة من قساوة المضطهدين ، وأنزل البعل عن كرسي جبروته وأقام مكانه الفلاح البائس الذي ينثر في الحقل البذور مع عرق الجبين .

*

أولم تكن عواطفي بالامس كاسباط اسرائيل يا حبيبتي ؟ أما ترقبت في سكينة الليل مجيء مخلص ينقذني من عبودية الايام ومتاعبها ؟ أما شعرت كالأمم الغابرة بالمجاعة الروحية العميقة ؟ أما سرت على طرق الحياة مثل صبي ضائع بين الاحياء المهجورة ؟ أولم تكن نفسي كالنواة المطروحة على الصخرة: لا الطير يلتقطها فيميتها، ولا العناصر تشقها فتحييها؟ قد كان ذلك كله بالامس يا حبيبتي عندما كانت احلامي تدب في جوانب الظلمة وتخاف الاقتراب من النور ـ عندما كان اليأس يلوي أضلعي والضجر يقوّمها . ففي ليلة واحدة، بل في ساعة واحدة، بل في لمحة واحدة تتنحى عن سني حياتي، لانها أجمل من سني حياتي، هبط الروح من وسط دائرة النور الاعلى، ونظر اليّ من وراء عينيك، وتكلم معي بلسانك، ومن تلك النظرة وهاتيك الكلمة انبثق الحب وحل في اعشار قلبي... هذا الحب العظيم الجالس في هذا المذود المنزوي في صدري ـ هذا الحب الجميل الملتفّ بأقمطة العواطف ـ هذا الرضيع اللطيف المتكىء على صدر النفس قد جعل الاحزان في باطني مسرة واليأس مجداً والوحدة نعيماً . هذا الملك المتعالي فوق عرش الذات المعنوية قد أعاد بصوته الحياة لايامي الميتة، وأرجع بملامسه النور الى أجفاني المقرحة بالدموع، وانتشل بيمينه آمالي من لجة القنوط .

*

كان كل الزمن ليلاً يا حبيبتي، فصار فجراً، وسيصير نهاراً، لأن انفاس الطفل يسوع قد تخللت دقائق الفضاء ومازجت ثانويات الاثير . وكانت حياتي حزناً، فصارت فرحاً، وستصير غبطة، لان ذراعي الطفل قد ضمتا قلبي وعانقتا نفسي .

مناجاة ارواح

استيقظي يا حبيبتي ! استيقظي لأن روحي تناديك من وراء البحار الهائلة ، ونفسي تمد جناحيها نحوك فوق الأمواج المزبدة الغضوب . استيقظي، فقد سكنت الحركة وأوقف الهدوء ضجة سنابك الخيل ووقع أقدام العابرين ، وعانق النوم أرواح البشر ، فبقيت وحدي مستيقظاً ، لأن الشوق ينتشلني كلما أغرقني النعاس ، والمحبة تدنيني اليك عندما تقصيني الهواجس . قد تركت مضجعي يا حبيبتي خوفاً من أخيلة السلو المختبئة بين طيات اللحف ، ورميت بالكتاب لان تأوهي قد أباد السطور من صفحاته فأصبحت خالية بيضاء أمام عيني . استيقظي ! استيقظي يا حبيبتي واسمعيني .

– هاءنذا يا حبيبي ! قد سمعت نداءك من وراء البحار وشعرت بلامس جناحيك ، فانتبهت وتركت مخدعي وسرت على الاعشاب فتبللت قدماي وأطراف ثوبي من ندى الليل . ها انا واقفة تحت أغصان اللوز المزهرة اسمع نداء نفسك يا حبيبي !

– تكلمي يا حبيبتي ! ودعي أنفاسك تسيل مع الهواء القادم نحوي من أودية لبنان . تكلمي ، فلا سامع غيري ، لأن الظلمة قد دحرت جميع المخلوقات الى اوكارها ، والنعاس اسكر سكان المدينة وبقيت وحدي صاحياً .

— قد نسجت السماء نقاباً من أشعة القمر وألقته على جسد لبنان يا حبيبي !

— قد حاكت السماء من ظلمة الليل رداء كثيفاً مبطناً بدخان المعامل وانفاس الموت وسترت به أضلع المدينة يا حبيبتي !

*

— قد رقد سكان القرى في أكواخهم القائمة بين أشجار الجوز والصفصاف وتسابقت نفوسهم نحو مسارح الاحلام يا حبيبي !

— قد أناخت أحمال الذهب قامات البشر، وأوهنت عقبات المطامع ركبهم ، واثقلت المتاعب أجفانهم ، فارتموا على الفرش وأشباح الخوف والقنوط تعذب قلوبهم يا حبيبتي .

*

— قد سرت في الأودية أخيلة الاجيال الغابرة ، وحامت على الروابي أرواح الملوك والانبياء ، فانثنت فكرتي نحو مسارح الذكرى وأرتني عظائم الكلدانيين وفخامة الآشوريين ونبالة العرب .

— قد سرت في الازقة أرواح اللصوص القاتمة ، وظهرت من بين شقوق النوافذ رؤوس أفاعي الشهوات ، وجرت في منعطفات الشوارع أنفاس الامراض ممزوجة بلهاث المنايا ، فازاحت الذكرى ستائر النسيان وأرتني مكاره صادوم وآثام عامورة .

*

– قد تمايلت الاغصان يا حبيبي وتحالف حفيفها مع خرير ساقية الوادي ورددت على مسامعي نشيد سليمان ورنات قيثارة داود واغاني الموصلي .

– قد ارتعشت نفوس أطفال الحي وأقلقهم الجوع ، وتسارعت تنهدات الامهات المضطجعات على اسرة الهم واليأس ، وأراعت أحلام العوز قلوب الرجال المقعدين ، فسمعت نواحاً مرّاً وزفيراً متقطعاً يملأ الضلوع ندماً ورثاء .

– قد فاحت روائح النرجس والزنبق وعانقت عطر الياسمين والبيلسان ثم تمازجت بأنفاس الارز الطيبة وسرت مع تموجات النسيم فوق الطلول المتشعبة والممرات الملتوية، فملأت النفس انعطافاً ومنحتها حنيناً الى الطيران .

– قد تصاعدت روائح الازقة الكريهة واختمرت بجراثيم العلل ، ومثل اسهم دقيقة خافية قد خدشت الحس وسممت الهواء .

*

– ها قد جاء الصباح يا حبيبي وداعبت أصابع اليقظة اجفان النيام وفاضت الاشعة البنفسجية من وراء الليل وازالت غشاء الليل عن عزم الحياة ومجدها ، فاستفاقت القرى المتكئة بهدوء وسكينة على كتفي الوادي وترنمت اجراس الكنائس وملأت الاثير نداء مستحباً معلنة بدء صلاة الصباح ، فارجعت الكهوف صدى رنينها ، كأن الطبيعة باسرها قامت مصلية . قد غادرت العجول مرابضها وتركت قطعان الغنم والماعز

حظائرهـا وانثنت نحو الحقول ترتعي رؤوس الأعشاب المتلمعـة بقطر الندى، ومشى أمامها الرعاة ينفخون الشبابات ووراءها الصبايا المتأهلات مع العصافير بقدوم الصباح .

ـ قد جاء الصباح يا حبيبي وانبسطت فوق المنازل المكردسة اكف النهار الثقيلة ، فازيحت الستائر عن النوافذ وانفتحت مصاريع الابواب ، فبانت الوجوه الكالحة والعيون المعروكة ، وذهب التعساء الى المعامل وداخل اجسادهم يقطن الموت في جوار الحياة ، وعلى ملامحهم المنقبضة قد بان ظل القنوط والخوف ، كأنهم منقادون قهراً الى عراك هائـل مهلك . ها قد غصت الشوارع بالمسرعين الطامعين ، وامتلأ الفضاء من قلقلة الحديد ودوي الدواليب وعويل البخار ، واصبحت المدينة ساحة قتال يصرع فيهـا القوي الضعيف ويستأثر الغني الظلوم باتعـاب الفقير المسكين .

*

ـ ما اجمل الحياة ههنا يا حبيبي ، فهي مثـل قلب الشاعر المملوء نوراً ورقة .

ـ ما أقسى الحيـاة ههنا يا حبيبتي ، فهي مثـل قلب المجرم المفعم بالاثم والمخاوف .

ايتها الريح

تمرين آناً مترنحة فرحة ، وآونة متأوهة نادبــة ، فنسمعك ولا نشاهدك ، ونشعر بك ولا نراك ، فكأنك بحر من الحب يغمر ارواحنا ولا يغرقها ، ويتلاعب بافئدتنا وهي ساكنة .

تتصاعدين مع الروابي وتنخفضين مع الأودية وتنبسطين مع السهول والمروج . ففي تصاعدك عزم ، وفي انخفاضك رقة ، وفي انبساطك رشاقة ، فكأنك مليك رؤوف يتساهل مع الضعفاء الساقطين ويترفع مع الأقوياء المتشامخين .

في الخريف تنوحين في الأودية فتبكي لنواحك الأشجار ، وفي الشتاء تثورين بشدة فتثور معك الطبيعة باسرها ، وفي الربيع تعتلين وتضعفين ولضعفك تستفيق الحقول ، وفي الصيف تتوارين وراء نقاب السكون فنخالك ميتاً قتلته سهام الشمس ثم كفنته بحرارتها .

لكن ، انادبة كنت ايام الخريف ، ام ضاحكة من خجل الأشجار بعد ان عرّيتها من ملابسها ؟ اغاضبة كنت ايام الشتاء ، ام راقصة حول قبور الليالي المكلسة بالثلوج ؟أعليلة كنت ايام الربيع ،ام حبيبة اضناها البعاد فجاءت تصعد بالتنهد انفاسها على وجه حبيبها شاب الفصول لتنبهه من رقاده ؟ اميتةً كنت ايام الصيف ، ام هاجعة في قلوب الاثمار وبين جفنات الكروم وعلى بيادر القش ؟

انت تحملين من ازقة المدينة انفـــاس العلل ومن الروابي ارواح الأزهار . وهكذا تفعل النفوس الكبيرة التي تحتمل اوجـاع الحياة بسكينة ، وبسكينة تلتقي بافراحها .

انت تهمسين في اذن الوردة اسراراً غريبة تفهم مفادها ، فتضطرب تارة ، وطوراً تبتسم . وهكذا تفعل الآلهة بارواح البشر .

انت تبطئين هنا ، وتتسارعين هناك ، وتـتراكضين هنالـك ، ولكنك لا تقفين أبداً . وهكذا تفعل فكرة الانسان التي تحيا بالحركة وتموت بالسبات .

انت تكتبين على وجه البحيرة اشعاراً ثم تمحينها . وهكذا يفعل الشعراء المترددون .

من الجنوب تجيئين حارة كالمحبة ، ومن الشمال تأتين باردة كالموت ، ومن المشرق لطيفة كملامس الأرواح ، ومن المغرب تتدفقين شديدة كالبغضاء . امتقلبة انت كالدهر ؟ ام انت رسول الجهات تبلغين الينـا ما تأتمنك عليه ؟

تمرين غاضبة في الصحـاري فتدوسين القوافل بقساوة ثم تلحدينهـا بلحف الرمال . فهل انت انت ذلك السيال الخفي ، المتموج مع اشعة الفجر بين اوراق الغصون ، المنسل كالاحلام في منعطفات الاودية حيث تتمايل الأزهار شغفاً بك وتتخاصر الاعشاب سكراً من انفاسك ؟

تثورين ظلماً في البحار فتحركين ساكن اعماقها ، حتى اذا ازبدت حنقاً عليك فتحت فاها لجة ولقمتها من السفن والارواح لقماً مرة . فهل

انتِ انت ذلك المحب المتلاعب حنواً بغدائر الاطفـــال المتواكضين حول المنازل ؟

*

الى اين تتسارعين بارواحنـــا وتنهداتنا وانفاسنا ؟ الى اين تحملين رسوم ابتساماتنا ؟ وماذا تفعلين بشعلات قلوبنا المتطـايرة ؟ هل تذهبين بها الى ما وراء الشفق ، الى ما وراء هذه الحيـاة ؟ ام تجرينها فريسة الى المغاور البعيدة والكهوف المخيفة وهناك تقذفينها يميناً وشمالاً حتى تضمحل وتختفي ؟

في سكينة الليل تبيح لك القلوب اسرارهـا ، وعند الفجر تحملك العيون اهتزازات اجفانها . فهل انت ذاكرة ما شعرت به القلوب وما رأته العيون ؟

بين جنحيك يستودع الفقير صدى انسحـــاقه ، واليتيم حرقتـه ، والحزينة تأوهاتها ، وطي اثوابك يضع الغريب حنينه ، والمتروك لهفته ، والساقطة عويل نفسها . فهل انت حافظة لهؤلاء الصغار ودائعهم ؟ ام انت كهذه الارض لا نودعها شيئاً الا وتحوله الى جسمها ؟

أسامعة انت هذا النداء ، وهذا العويل ، وهذا الضجيج ، وهذا البكاء؟ ام انت كالاقوياء من البشر تمتد اليهم الاكف فلا يلتفتون ، وتتصاعد نحوهم الاصوات فلا يسمعون ؟

اسامعةٌ انت يا حياة للسامع ؟

رجوع الحبيب

ما جــاء الليل حتى انهزم الاعداء وفي ظهورهم تخديش السيوف ووخز الرماح ، فعاد الظافرون حاملين الوية الفخر ، منشدين اهازيج النصر على توقيع حوافر خيولهم المتساقطة كالمطارق على حصباء الوادي.

اشرفوا على الجبهة وقد طلع القمر من وراء فم الميزاب ، فظهرت تلك الصخور البـاسقة متشامخة مع نفوس القوم نحو العلاء وبانت غابة الارز بين تلك البطاح كأنها وسام مجد اثيل علقته الاجيال الغابرة على صدر لبنان .

ظلوا سائرين واشعة القمر تتلمع على اسلحتهم ، والكهوف البعيدة تتقلد تهاليلهم ، حتى اذا ما بلغوا جبهة العقبة اوقفهم صهيل فرس واقف بين الصخور الرمادية كأنه قُــدَّ منها . فاقتربوا منه مستطلعين ، واذا بجثة هامدة مرتمية على اديم التراب المجبول بنجيع الدماء ، فصرخ زعيم القوم قـائلاً : اروني سيف الرجل فأعرف صاحبـه . فترجل بعض الفرسان واحاطوا بالمصروع مستفسرين . وبعد هنيهة التفت احدهم نحو الزعيم وقــال بصوت اجش : قد عانقت اصابعه البـاردة قبضة السيف بشدة ، فمن العار ان ننزعه .

وقال آخر : قد لبس السيف غمداً من الدماء ، فاختفى فولاذه .

وقال آخر : قد تجمدت الدماء على الكف والقبضة واوثقت الشفرة بالزند وصيرتهما واحداً .

فترجل الزعيم واقترب من القتيل قائلاً : اسندوا رأسه ودعوا اشعة القمر ترينا وجهه . ففعلوا مسرعين ، وبان وجه القتيل من وراء نقاب الموت ظاهرة عليه ملامح البطش والبأس والتجلد ، وجه فارس قوي يتكلم بلا نطق عن شدة رجوليته ، وجه متأسف فارح ، وجه من لاقى العدو عابساً وقابل الموت مبتسماً ، وجه بطل لبناني حضر موقعة ذلك النهار ورأى طلائع الاستظهار ، لكنه لم يبق لينشد مع رفقائه اهازيج النصر . ولما ازاحوا كوفيته ومسحوا غبار المعمعة عن وجهه المصفر ذعر الزعيم وصرخ متوجعاً : هذا ابن الصعبي ، فيا للخسارة! فردد القوم هذا الاسم متأوهين ، ثم سكتوا كأن قلوبهم السكرى بخمر النصر قد فاجأها الصحو ، فرأت ان خسارة هذا البطل هي اجسم من مجد التغلب وعز الانتصار . ومثل تماثيل الرخام اوقفهم هول المشهد وايبس السنتهم فسكتوا ، وهذا كل ما يفعله الموت في نفوس الأبطال ، فالبكاء والنحيب جريان بالنساء ، والعويل والصراخ خليقان بالاطفال ، ولا يجمل برجال السيف غير السكوت المملوء هيبة ووقاراً ، ذلك السكوت الذي يقبض على القلوب القوية مثلما تقبض مخالب النسر على عنق الفريسة ، ذلك السكوت الذي يترفع عن الدموع والعويل فيزيد بترفعه البلية هولاً وقساوة ، ذلك السكوت الذي يهبط بالنفس الكبيرة من قمم الجبال الى اعماق اللجج ، ذلك السكوت الذي يعلن مجيء العاصفة ، وان لم تجيء كان هو اشد فعلاً منها .

خلعوا اثواب الفتى المصروع ليروا اين وضع الموت يده ، فبانت كلوم الشفار في صدره كأنها افواه مزبدة تتكلم في هدوء ذلك الليل

عن همم الرجال . فاقترب الزعيم وجثا مستفحصاً فوجد دون سواه منديلاً مطرزاً بخيوط الذهب مربوطاً حول زنده . فتأمله سراً وعرف اليد التي غزلت حريره والأصابع التي حاكت خيوطه . فستره بالاثواب وتراجع قليلاً الى الوراء حاجباً وجهه المنقبض بيده المرتعشة ، تلك اليد التي كانت تزيح بعزمها رؤوس الأعداء قد ضعفت وارتجفت وصارت تمسح الدموع ، لانها لامست حواشي منديل عقدت اطرافه اصابع محبوبة حول زند فتى جاء ليشهد يوم الكريهة مدفوعاً ببسالته فصرع وسوف يرجع اليها محمولاً على اكف رفاقه .

وبينما كانت نفس الزعيم تراوح بين مظالم الموت وخفايا الحب قال احد الواقفين : تعالوا نحفر له قبراً تحت تلك السنديانة ، فتشرب اصولها من دمه وتتغذى فروعها من بقاياه ، فتزداد قوة وتصير خالدة وتكون له رمزاً يمثل لهذه الطلول بطشه وبأسه .

فقال آخر : لنحمله الى غابة الأرز ونقبره بقرب الكنيسة ، فتظل عظامه مخفورة بظل الصليب الى آخر الدهر .

وقال آخر : هنا اقبروه هنا ، حيث جبل التراب بدمائه ، واتركوا سيفه في يمينه ، واغرسوا رمحه بجانبه ، وانحروا حصانه على قبره ، ودعوا اسلحته تؤنسه في هذه الوحدة .

وقال آخر : لا تلحدوا سيفاً مضرجاً بدم الأعداء ، ولا تنحروا مهراً يخوض المنايا ، ولا تتركوا في الوعر سلاحاً تعود هز الأكف وعزم السواعد ، بل احملوها الى ذويه لانها خير ميراث .

وقال آخر : تعالوا نجثو مصلين حواليه صلاة الناصري ، فتغفر له السماء وتبارك انتصارنا .

وقال آخر : لنرفعه على الأكتاف جاعلين له الرماح والتروس نعشاً فنطوف به في هذا الوادي منشدين اهازيج النصر فيشاهد اشلاء الأعداء وتبتسم شفاه جراحه قبل ان يخرسها تراب القبر .

وقال آخر : تعالوا نعليه سرج جواده ونسنده بجماجم القتلى ونقلده رمحه وندخله الاحياء ظافراً ، فهو لم يستسلم للمنية الا بعد ان حملها من ارواح الأعداء حملاً ثقيلاً .

وقال آخر : تعالوا نودعه لحف هـذا الجبل ، فيكون له صدى الكهوف نديماً ، وخرير السواقي مؤنساً ، فترتاح عظامه في برية يكون فيها وقع اقدام الليالي خفيف الوطأة .

وقال آخر : لا تغادروه ههنا ، ففي البرية وحشة مملة ووحدة قاسية ، بل تعالوا ننقله الى جبانة القرية ، فيكون له من ارواح جدودنا رفاق تناجيه في سكينة الليل وتقص عليه اخبار حروبهم واحاديث امجادهم .

فتقدم الزعيم اذ ذاك الى وسط رجاله واسكتهم باشارة ، ثم قال متنهداً : لا تزعجوه بذكرى الحروب ، ولا تعيدوا على مسامع روحه الحائمة فوق رؤوسنا اخبار السيوف والرماح ، بل تعالوا نحمله بسكينة وهدوء الى مسقط رأسه . ففي ذلك الحي نفس ساهرة تترقب قدومه ، نفس صبية تنتظر رجوعه من بين الاسنة ، فلنعده اليها كيلا تحرم نظرة من وجهه وقبلة من جبينه .

حملوه على المناكب مطأطئي الرؤوس ، خاشعي العيون ، ومشوا بسكينة محزنة يتبعهم فرسه الكئيب يجر مقوده على الأرض ويصهل

من وقت الى آخر ، فتجيبه الكهوف بصداها ، كأن للكهوف افئدة تشعر مع البهيمة بشدة الضيم والاسى .

بين اضلع ذلك الوادي ، حيث اشعة القمر تسترق خطواتها ، سار موكب النصر وراء موكب الموت وقد مشى امامهما طيف الحب ساحباً اجنحته المكسورة .

جمال الموت

مرفوعة الى M. E. H.

دعوني انم ، فقد سكرت نفسي بالمحبة .

دعوني ارقد ، فقد شبعت روحي من الايام والليالي .

اشعلوا الشموع واوقدوا المباخر حول مضجعي ، وانثروا اوراق الورد والنرجس على جسدي ، وعفروا بالمسك المسحوق شعري ، واهرقوا الطيوب على قدمي ، ثم انظروا واقرأوا ما تخطه يد الموت على جبهتي .

خلوني غارقاً بين ذراعي الكرى ، فقد تعبت اجفاني من هذه اليقظة .

اضربوا على القيثارات ودعوا رنات اوتارها الفضية تتمايل في مسامعي .

انفخوا الشبابات والنايات وحيكوا من انغامها العذبة نقاباً حول قلبي المتسارع نحو الوقوف .

ترنموا بالاغاني الرهاوية وابسطوا من معانيها السحرية فراشاً لعواطفي ثم تأملوا وانظروا شعاع الامل في عينيّ .

امسحوا الدموع يا رفاقي ، ثم ارفعوا رؤوسكم مثلما ترفع الأزهار تيجانها عند قدوم الفجر ، وانظروا عروسة الموت منتصبة كعمود

النور بين مضجعي والفضاء ... امسكوا انفاسكم واصغوا هنيهة واسمعوا معي حفيف اجنحتها البيضاء .

تعالوا ودّعوني يا بني امي ! قبلوا جبهتي بشفاه مبتسمة . قبلوا شفتيّ باجفانكم وقبلوا اجفاني بشفاهكم .

قربوا الأطفال الى فراشي ودعوهم يلامسوا عنقي باصابعهم الوردية الناعمة . قربوا الشيوخ ليباركوا جبهتي بايديهم الذابلة المتجمدة . دعوا بنات الحي يقتربن وينظرن خيال الله في عينيّ ويسمعن صدى نغمة الأبدية متسارعة مع انفاسي .

الانفصال

ها قد بلغت قمة الجبل فسبحت روحي في فضاء الحرية والانعتاق .

قد صرت بعيداً بعيداً يا بني امي ، فانحجبت عن بصيرتي جبهات الطلول وراء الضباب ، وغمرت خلايا الاودية ببحر السكون ، وامحت السبل والممرات باكف النسيان ، وتوارت المروج والغابات والعقبات وراء اشباح بيضاء كغيوم الربيع ، وصفراء كشعاع الشمس ، وحمراء كوشاح المساء .

قد تضعضعت اغاني امواج البحر ، واضمحلت ترنيمة السواقي في الحقول ، وسكنت الاصوات المتصاعدة من جوانب الاجتماع ، فلم اعد اسمع سوى انشودة الخلود متآلفة مع ميول الروح .

اخلعوا نسيج الكتان عن جسدي وكفنوني بأوراق الفل والزنبق.

انتشلوا بقاياي من تابوت العاج ومددوها على وسائد من زهر البرتقال والليمون . لا تندبوني يا بني أمي ، بل انشدوا أغنية الشباب والغبطة . لا تذرفي الدموع يا ابنة الحقول ، بل ترنمي بموشحات ايام الحصاد والعصير .

لا تغمروا صدري بالتأوه والتنهد ، بل ارسموا عليه بأصابعكم رمز المحبة ووسم الفرح .

لا تزعجوا راحة الاثير بالتعزيم والتكهين ، بل دعوا قلوبكم تتهلل معي بتسبيحة البقاء والخلود .

لا تلبسوا السواد حزناً عليّ ، بل ترّدوا البياض فرحاً معي .

ولا تتكلموا عن ذهابي بالغصات ، بل اغمضوا عيونكم تروني بينكم الآن وغداً وبعده .

مددوني على أغصان مورقة وارفعوني عـــلى الأكتاف وسيروا بي ببطء الى البرية الخالية .

لا تحملوني الى الجبانة ، لأن الزحام يزعج راحتي ، وقضقضة العظام والجماجم تسلب سكينة رقادي .

احملوني الى غابة السرو واحفروا لي قبراً في تلك البقعة حيث ينبت البنفسج بجوار الشقيق .

احفروا قبراً عميقاً كيلا تجرف السيول عظامي الى الوادي .

احفروا قبراً وسيعاً لكي تجيء أشباح الليل وتجلس بجانبي .

اخلعوا هذه الاثواب ودلوني عارياً الى قلب الارض . مددوني ببطء وهدوء على صدر أمي .

اغمروني بالتراب الناعم والقوا مع كل حفنة قبضة من بذور السوسان والياسمين والنسرين فتنبت على قبري ممتصة عناصر جسدي ، وتنمو ناشرة في الهواء رائحة قلبي ، وتتعالى رافعة في وجه الشمس سرائر راحتي ، وتتمايل مع النسيم مذكرة عابر الطريق بماضي ميولي وأحلامي .

اتركوني الآن يا بني أمي ، اتركوني وحدي وسيروا بأقدام خرساء مثلما تسير السكينة في الاودية الخالية .

دعوني وحدي وتفرقوا عني بهدوء مثلما تتفرق أزاهر اللوز والتفاح عندما تنثرها أنفاس نيسان .

ارجعوا الى منازلكم فتجدوا هناك ما لم يستطع الموت ان يأخذه مني ومنكم .

اتركوا هذا المكان ، فالذي تطلبونه صار بعيداً ، بعيداً عن هذا العالم ...

اغاني

اغنية

في أعماق نفسي أغنية لا ترتضي الالفاظ ثوباً . أغنية تقطن حبة قلبي ، فلا تريد ان تسيل مع الحبر على الورق، وتحيط بعواطفي كغلاف شفاف ، فلن تنسكب على لساني كالرضاب .

كيف أتنهدها وأنا أخاف عليها من دقائق الاثير ؟ ولمن أنشدها وقد تعودت سكنى بيت نفسي فأخشى عليها من خشونة الآذان ؟

ان نظرت الى عينيّ رأيت خيال خيالها، وان لمست أطراف أصابعي شعرت باهتزازاتها .

أعمال يدي تبينها مثلما تعكس البحيرة لمعان النجم ، ودموعي تبيحها كما تبيح قطرات الندى سر زهرة الورد عندما تبعثرها الحرارة .

اغنية تنشرها السكينة ويطويها الضجيج وترددها الاحلام وتخفيها اليقظة .

هي أغنية الحب أيها الناس ، فأي اسحق ينشدها بل أي داود يرتلها ؟

هي أعبق من أنفاس زهرة الياسمين، فأية حنجرة تستعبدها؟وأصون من سر العذارى ، فأية أوتار تستبيحها ؟

من يجمع بين قواصف البحر وتغريدة البلبل ويقرن العواصف بتنهدة الطفل ؟ أي بشري ينشد أغنية الآلهة ؟

أنا والشاطىء عاشقان يقربهما الهوى ويفصلهما الهواء . اجيء من وراء الشفق الازرق كيما امزج فضة زبدي بذهب رماله ، وأبرد حرارة قلبه برضابي .

عند الفجر أتلو شرع الغرام على مسامع حبيبي ، فيضمني الى صدره . وفي المساء أترنم بصلاة الشوق ، فيقبلني .

أنا لجوج جزوع وحبيبي حليف صبر وأليف تجلد .

يأتي المدّ فأعانق حبيبي ، ويعقبه الجزر فأترامى على أقدامه .

كم رقصت حول بنات البحر عندما كنّ يطلعن من الاعماق ويجلسن على الصخور ليتفرجن على النجوم . وكم سمعت المحب يشكو الغرام لذاتِ حُسنٍ فساعدته على التأوه والتنهد . وكم نادمت الصخور وهي جامدة وداعبتها ضاحكاً ولم تبتسم . وكم خلصت من اللجة اجساداً وجئت بها الى الاحياء . وكم سرقت من الأعماق درّاً أهديته الى ربات الجمال !

في سكينة الليل عندما تعانق المخلوقات طيف الكرى اسهر مترنماً تارة ، متنهداً أخرى . ويحي ! لقد أتلفني السهر ، ولكن أنا محب وحقيقة الحب يقظة .

هذه حياتي وذا ما عشت أصنعه .

أنا خيوط فضية تطرحني الآلهة من الأعالي فتأخذني الطبيعة وتنمق بي الأودية .

أنا لآلىء جميلة نـثرت من تاج عشتروت فسرقتني ابنـة الصباح ورصعت بي الحقول .

أنا ابكي فتبتسم الطلول ، واتضع فترتفع الأزهار . الغيمة والحقل عاشقان وأنا بينهما رسول مسعف انهمل فأبرّد غليل هــذا واشفي علة تلك .

صوت الرعد وأسياف البرق تبشر بقدومي ، وقوس قزح يعلن نهاية سفرتي ، كذا الحياة الدنيا تبتدىء بين أقدام المادة الغضبى وتنتهي على أكف الموت الهادىء .

اصعد من قلب البحيرة وأسير على اجنحة الأثير ، حتى اذا ما رأيت روضة جميلة سقطت وقبلت ثغور أزاهرها وعانقت أغصانها .

في السكينة أطرق بأناملي اللطيفة بلور النوافذ فتؤلف تلك الطرقات نغمة تفقهها النفوس الحساسة .

حرارة الهواء تولدني وأنا أقتـل حرارة الهواء ، كذا المرأة التي تتغلب على الرجل بقوة استمدتها من الرجل .

أنا تنهدة البحر ، أنا دمعة السماء ، أنا ابتسامة الحقل . كذا الحب ـ تنهدة من بحر العواطف ودمعـة من سماء التفكر وابتسامة من حقل النفس .

أغنية الجمال

أنا دليل الحب ، أنا خمرة النفس ، أنا مأكل القلب ، أنا وردة أفتح قلبي عند فتوة النهار فتأخذني الصبية وتقبلني وتضعني على صدرها .

أنا بيت السعادة ، أنا مصدر الفرح ، أنا مبدأ الراحة ، أنا ابتسامة لطيفة على شفتي غادة ، يراني الشاب فينسى أتعابه وتصير حياته مسرح أحلام لذيذة .

أنا موحي الشعراء وهادي المصورين ومعلم الموسيقيين .

أنا نظرة في عين طفل تراها الأم الحنون فتسجد وتصلي وتمجد الله .

تجليت لآدم بجسم حواء فاستعبدته ، وظهرت لسليمان في قدّ حبيبته فصيّرته حكيماً وشاعراً .

ابتسمت لهيلانة فخربت تروادة ، وتوجت كليوبترا فعم الانس في وادي النيل .

أنا كالدهر ابني اليوم وأهدم غداً ، أنا الله أحيي وأميت .

أنا أرقُّ من تنهدة زهرة البنفسج ، أنا أشد من العاصفة .

أنا حقيقة أيها الناس ، أنا حقيقة وهذا خير ما تعلمونه .

أغنية السعادة

الانسان حبيبي وأنا حبيبته . أشتاق اليه ويهيم بي ، ولكن ، أواه !

لي في محبته شريكة تشقيني وتعذبه ، وضرّة طاغيـة تدعى المادة تتبعنا حيث نذهب وتفرقنا كالرقيب .

اطلب حبيبي في البرّية تحت الاشجار وبقرب البحيرات فلا أجده ، لأن المادة قد غرته وذهبت به الى المدينة ، الى الاجتماع والفساد والشقاء .

أطلبه في معاهد المعرفة وفي هياكل الحكمة فلا اجده ، لأن المادة ، تلك التي ترتدي التراب ، قد قادته الى معاقل الأنانية حيث يقطن الانهماك .

اطلبه في حقل القناعة فلا أجده ، لان عدوتي قد قيدتـه في مغاور الطمع والشراهة .

أناديه عنـد الفجر عندما يبتسم المشرق ، فلا يسمعني ، لان كرى الاستمساك قد أثقل عينيه . اداعبه في المساء اذ تسود السكينة وتنام الازهار ، فلا يحفل بي ، لان انشغافه بآتي الغد يشغل ضميره .

حبيبي يحبني ، يطلبني في أعماله وهو لن يجدني الا في اعمال الله . يروم وصالي في صرح المجد الذي بناه على جماجم الضعفاء وبين الذهب والفضة وانا لا اوافيه الا في بيت البساطة الذي بنته الآلهـة على ضفة جدول العواطف . يريـد تقبيلي أمام الطغاة والقتلة وأنا لا ادعـه يلثم ثغري الا في الوحدة بين أزهار الطهر . يبتغي الحيلة وسيطاً بيننا ولا اطلب وسيطاً الا العمل المنزه ، العمل الجميل .

قد تعلم حبيبي الصراخ والضجيج من عدوتي المادة وانا سوف اعلمه ان يـذرف دمعة استعطاف من عـين نفسه ويتنهد تنهدة استكفاء . حبيبي لي وأنا له .

انشودة الزهرة

أنا كلمة تقولها الطبيعة ثم تستردها وتخفيها طي قلبها ثم تقولها . انا نجم هبط من الخيمة الزرقاء على بساط اخضر .

أنا ابنة العناصر التي حبل بها الشتاء وتمخض بها الربيع ورباها الصيف ونومها الخريف .

أنا هدية المحبين ، أنا اكليل العرس ، أنا آخر عطية من حي الى ميت .

عند الصباح اتعاون والنسيم على اعلان مجيء النور ، وفي المساء اشترك مع الطيور بوداعه .

أتمايل في السهول فازينها ، وأتنفس في الهواء فاعطره . أضم الكرى فترمقني عيون الليل العديدة ، واطلب اليقظة لاحدق بعين النهار الوحيدة .

أنا أشرب خمرة الندى وأسمع أغاني الشحارير وارقص على تصفيق الأعشاب . أنا انظر الى العلو دائماً كي ارى النور ولا ارى خيالي ، وهذه حكمة لم يتعلمها الانسان بعد .

نشيد الانسان

وكنتم امواتاً فأحياكم ثم يميتكم
ثم يحييكم ثم اليـه ترجعون
القرآن الشريف

أنا كنت منـذ الأزل ، وها أنا ذا ، وسأكون الى آخر الدهر ، وليس لكياني انقضاء .

سبحت في فضاء اللانهاية، وطرت في عالم الخيال، واقتربت من دائرة النور الاعلى ، وها أنا الآن سجين المادة .

سمعت تعاليم كنفوشيوس، وأصغيت لحكمة برهما، وجلست بقرب بوذا تحت شجرة المعرفة ، وها أنا الآن أغالب الجهـل والجحود . كنت على الطور اذ تجلى «يهوه» لموسى ، وفي عبر الاردن فرأيت معجزات الناصري ، وفي المدينة فسمعت أقوال رسول العرب ، وهـا أنا الآن اسير الحيرة . شاهدت قوة بابل ، ومجد مصر ، وعظمة اليونان ، ولم أزل ارى الضعف والذل والصغر بادية في جميع تلك الاعمال. جالست سحرة عين دور ، وكهنة آشور ، وأنبياء فلسطين ، وما برحت انشد الحقيقة . حفظت الحكمة التي نزلت على الهند ، واستظهرت الشعر المنبثق من قلوب سكان جزيرة العرب ، ووعيت الموسيقى المتجسمة من عواطف أهل المغرب ، وما زلت اعمى لا أرى ، وأصم لا اسمع. احتملت قساوة

الفاتحين الطامعين ، وقاسيت ظلم الحكام المستبدين وعبودية الأقوياء الباغين، وما برحت ذا قوة اكافح بها الأيام .

شاهدت وسمعت كل ذلك وأنا طفل ،ولسوف اشاهد واسمع اعمال الشبيبة ومآتيها ، ولسوف اشيخ وابلغ الكمال وارجع الى الله .

أنا كنت منذ الأزل ، وها أنا ذا ، وسأكون الى آخر الدهر ، وليس لكياني انقضاء .

صوت الشاعر

١

القوة تزرع في اعماق قلبي وانا احصد وأجمع السنابل واعطيها اغماراً للجائعين . الروح يحيي هذه الجفنة الصغيرة وانا اعصر عناقيدها واسقيها للظامئين . السماء تملأ هذا السراج زيتاً وأنا انيره وأضعه في نافذة بيتي من اجل العابرين في ظلمة الليل . انا فاعل هذه الأشياء ، لأنني احيا بها ، واذا منعتني الأيام وغلت يدي الليالي طلبت الموت ، فالموت اخلق بنبي منبوذ في امته وشاعر غريب بين اهله .

البشر يضجون كالعاصفة وانا اتنهد بسكينة ، لاني وجدت عنف العاصفة يزول وتبتلعه لجة الدهر أما التنهدة فتبقى ببقاء الله .

البشر يلتصقون بالمادة الباردة كالثلج وأنا اطلب شعلة المحبة لاضمها الى صدري فتأكل ضلوعي وتبري احشائي ، لاني ألفيت المادة تميت الانسان بلا ألم ، والمحبة تحييه بالاوجاع .

البشر ينقسمون الى طوائف وعشائر وينتمون الى بلاد وأصقاع ، وأنا أرى ذاتي غريباً في بلد واحد ، وخارجاً عن أمة واحدة . فالارض كلها وطني والعائلة البشرية عشيرتي ، لاني وجدت الانسان ضعيفاً ومن الصغر ان ينقسم على ذاته ، والارض ضيقة ومن الجهل ان تتجزأ الى ممالك وامارات .

البشر يتكاتفون على هدم هياكل الروح ويتعاونون على بناء معاهد الجسد، وانا وحدي واقف في موقف الرثاء، على انني اصغي فاسمع من داخلي صوت الأمل قائلاً : مثلما تحيي المحبة القلب البشري بالاوجاع كذا تعلمه الغباوة سبل المعرفة . فالأوجاع والغباوة تؤول الى لذة عظيمة ومعرفة كاملة ، لان الحكمة السرمدية لم تخلق شيئاً باطلاً تحت الشمس .

٢

احنُّ الى بلادي لجمالها واحب سكان بلادي لتعاستهم ، ولكن اذا ما هب قومي مدفوعين بما يدعونه وطنية وزحفوا على وطن قريبي وسلبوا أمواله وقتلوا رجاله ويتموا اطفاله ورملوا نساءه وسقوا ارضه دماء بنيه واشبعوا ضواريه لحوم فتيانه كرهت اذ ذاك بلادي وسكان بلادي .

اتشبب بذكر مسقط رأسي واشتاق الى بيت ربيت فيه ، ولكن اذا مر عابر طريق وطلب مأوى في ذلك البيت وقوتاً من سكانه ومُنع مطروداً استبدلت تشبيبي بالرثاء وشوقي بالسلو وقلت بذاتي : ان البيت الذي يضن بالخبز على محتاجه ، وبالفراش على طالبه ، لهو احق البيوت بالهدم والخراب .

احب مسقط رأسي ببعض محبتي لبلادي . واحب بلادي بقسم من

محبتي لأرض وطني . واحب الأرض بكليتي لانها مرتع الانسانية روح الألوهية على الأرض . الانسانية المقدسة روح الالوهية عـلى الأرض . تلك الانسانية الواقفة بين الخرائب ، الساترة قامتها العـارية بالاطمار البالية ، الذارفة الدموع السخينة على وجنتيها الذابلتين ، المنادية ابناءها بصوت يملأ الأثير أنةً وعويلاً وابناؤها مشغولون عن ندائهـــا باغاني العصبية ، منصرفون عن دموعهـا بصقل السيوف . تلك الانسانية الجالسة وحدها تستغيث بالقوم وهم لا يسمعون ، وان سمعهـا فرد واقترب منها ومسح دموعها وعزّاها في شدائدها قال القوم : اتركوه فالدموع لا تؤثر بغير الضعيف .

الانسانية روح الألوهية عـلى الأرض . تلك الألوهية السائرة بين الامم ، المتكلمة بالمحبة ، المشيرة الى سبل الحياة والناس يضحكون مستهزئين باقوالها وتعاليمها . تلك التي سمعها بالأمس الناصري فصلبوه وسقراط فسمموه ، والتي سمعهـا اليوم القائـلون بالناصري وسقراط وجاهروا باسمها امام الناس والناس لا يقدرون عـلى قتلهم لكنهم يسخرون بهم قائلين : السخرية اقسى من القتل وامرّ .

ولم تقوَ اورشليم على قتل الناصري ، فهو حي الى الابـد ، ولا آثينا على اعدام سقراط ، فهو حي الى الأبد ، ولن تقوى السخرية على سامعي الانسانية وتابعي اقـدام الألوهية ، فسيحيون الى الابـد ، الى الأبد .

٣

انت اخي وكلانا ابن روح واحد قدوس كلي . وانت مماثلي لاننا سجينا جسدين جبلا من طينة واحدة . وانت رفيقي على طريق الحياة ومسعفي في ادراك كنه الحقيقة المستترة وراء الغيوم . أنت انسان وقد احببتك يا أخي .

قل عني ما شئت ، فالغد يقضي عليك ويكون قولك قرينة ظاهرة أمام حكمه وبينة صائبة لدى عدله .

خذ مني ما شئت ، فلست بسالب غير مال لك الحق بقسم منه وعقار استأثرت به لمطامعي ، فأنت خليق ببعضه ان كان يرضيك بعضه .

افعل بي ما تشاء ، فلست بقادر على مس حقيقتي . اهرق دمي واحرق جسدي فلن تؤلم نفسي ولن تميتها . كبّل يديّ ورجليّ بالقيود وانزل بي الى ظلمة السجون ، فانك لا تقوى على أسر فكرتي ، لانها حرة كالنسيم السائر في فضاء لا حد له ولا مدى .

أنت أخي وأنا أحبك .

أحبك ساجداً في جامعك وراكعاً في هيكلك ومصلياً في كنيستك ، فأنت وأنا ابنا دين واحد هو الروح ، وزعماء فروع هذا الدين أصابع ملتصقة في يد الالوهية المشيرة الى كمال النفس .

أحبك لمحبة حقيقتك المنبثقة من العقل العام . تلك الحقيقة التي لا اراها الآن لعماوتي ، لكني اعتبرها مقدسة لانها من أعمال النفس .

تلك الحقيقة التي ستلتقي بحقيقتي في العالم الآتي فتمتزجان كأنفاس الازهار وتصيران حقيقة واحدة كلية خالدة بخلود الحب والجمال .

احبك لاني رأيتك ضعيفاً أمام الأقوياء القساة وفقيراً محتاجاً أمام صروح الاغنياء الطامعين . لذلك بكيت من أجلك ، ومن وراء دموعي رأيتك بين ذراعي العدل وهو يبتسم لك ويستهزىء بمضطهديك ... أنت اخي وأنا احبك .

٤

أنت أخي وأنا احبك . لماذا اذن تخاصمني ؟

لماذا تأتي بلادي وتحاول اخضاعي ارضاء لأئمة يطلبون المجد بقولك والمسرة بمتاعبك ؟ لماذا تترك رفيقتك وصغارك متبعاً الموت الى ارض بعيدة من أجل قواد يبتغون ابتياع المعالي بدمائك والشرف الرفيع بأحزان والدتك ؟ ولكن أمن الشرف الرفيع أن يصرع الانسان أخاه ؟ لنرفعن اذن تمثالاً لقايين مترنمين بمديح حانان .

يقولون يا اخي ان المحافظة على الذات قاعدة طبيعية اولية ، ولكنني رأيت الطامعين بالتميز يحببون اليك بذل الذات توصلاً الى امتلاك رقاب اخوانك . ويقولون ان حب البقاء يوجب الاعتداء على حقوق الغير ، وانا اقول ان المحافظة على حقوق الغير هي أشرف واجمل مآتي الانسان ، وأقول أيضاً : ان كان بقائي يوجب فناء سواي فالموت

اذن ألذ لديّ واحب ، وان لم أجد من يقتلني شريفاً ومحباً منزهاً تمتعت بتقديم ذاتي بيدي الى الأبدية قبل أوان الأبدية .

الأنانية يا أخي أوجدت التنافس الأعمى ، والتنافس ولد العصبية ، والعصبية وضعت السلطة وكانت هذه داعياً للمنازعات والاستعباد . النفس تقول بسلطة الحكمة والعدالة على الجهالة والظلم ، ولكنها تنكر تلك السلطة التي تستل من المعادن قواضب وبواتر لتعميم الجهالة والمظالم . تلك السلطة التي هدمت بابل وقوضت اركان اورشليم ودكت مباني رومية . تلك التي اوجدت سفاكي الدماء والقتلة الذين ينعتهم الناس بالعظماء والكتّاب تجل اسماءهم والكتب لا تأبى حفظ معاركهم في بطونها كما ان الأرض لم تأب حملهم على ظهرها حينما كانوا يخضبون محياها بالدماء الزكية ... فما اغراك يا اخي بما يغرك وألهجك بمن يضرك ! السلطة الحقيقية هي الحكمة المحافظة على الشريعة الطبيعية العامة العادلة . فاين عدالة السلطة اذا قتلت القاتل وسجنت الناهب ثم زحفت بذاتها الى بلاد مجاورة وقتلت الألوف ونهبت الربوات ؟ ما قول العصبيين بقتلة يعاقبون من يقتل ولصوص تجازي من يسلب ؟

انت اخي وانا احبك ، والمحبة هي العدل باسمى ظواهره ، فان لم اكن عادلاً بمحبتي لك في كل المواطن كنت مراوغاً ساتراً بشاعة الانانية بثوب المحبة البهي .

خاتمة

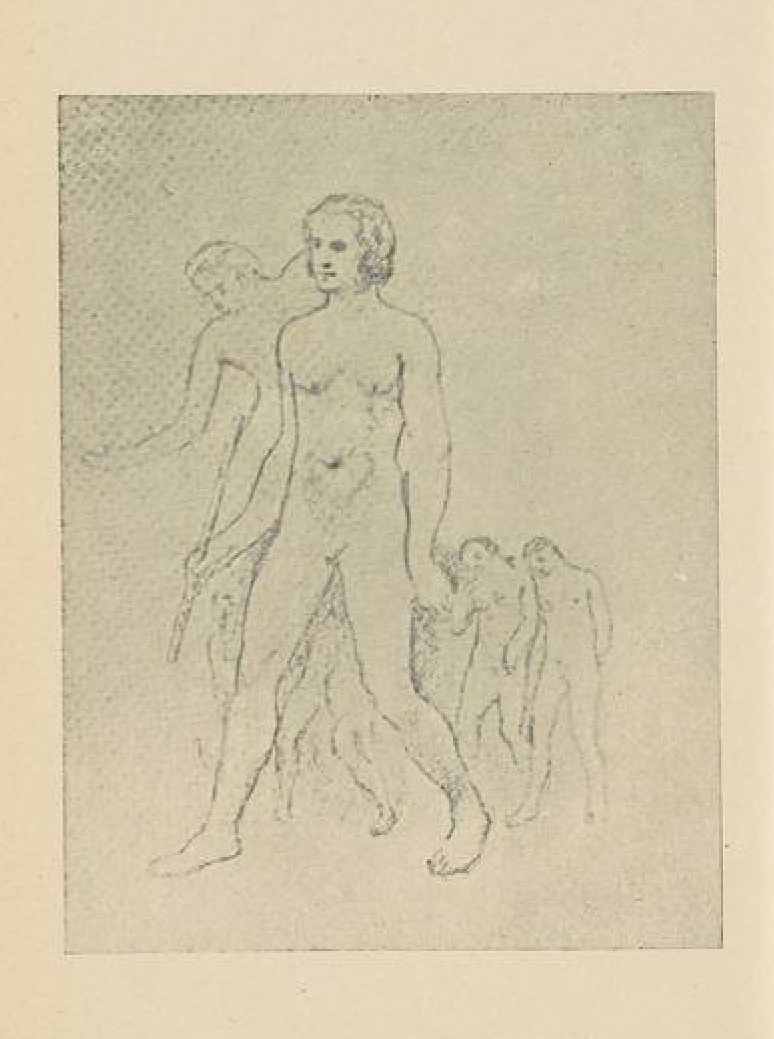
لي من نفسي صديق يعزيني اذا ما اشتدت خطوب الأيام ويؤاسيني عندما تلم مصائب الحياة ، ومن لم يكن صديقاً لنفسه كان عدو الناس، ومن لم يرَ مؤنساً من ذاته مات قانطاً لأن الحياة تنبثق من داخل الانسان ولن تجيء مما يحيط به .

جئت لأقول كلمة وسأقولها ، واذا أرجعني الموت قبل ان الفظها يقولها الغد . فالغد لا يترك سراً مكنوناً في كتاب اللانهاية .

جئت لأحيا بمجد المحبة ونور الجمال ، وهاءنذا حي والناس لا يستطيعون ابعادي عن حياتي . ان سملوا عينيَّ تمتعت بالاصغاء لاغاني المحبة وألحان الجمال . وان طمسوا اذنيَّ تلذذت بملامسة اثير ممزوج بانفاس المحبين واريج الجمال . وان حجبوني عن الهواء عشت ونفسي، فالنفس ابنة الحب والجمال .

جئت لاكون للكل وبالكل ، والذي افعله اليوم في وحدتي يعلنه المستقبل امام الناس . والذي اقوله الآن بلسان واحد يقوله الآتي بألسنة عديدة .

المواكب



المواكب

الخيرُ في الناس مصنوعٌ إذا جُبروا
والشرُّ في الناس لا يفنى وان قُبروا

وأكثرُ النـــاس آلاتٌ تحركها
أصابع الدهر يومـاً ثم تنكسرُ

فلا تقولنَّ هـــذا عالم عَلَمٌ
ولا تقولنَّ ذاك السيد الوَقرُ

فأفضل الناس قطعانٌ يسير بها
صوت الرعاة ومن لم يمشِ يندثرُ

ليس في الغابات راعٍ   لا ولا فيها القطيعْ
فالشتا يمشي ولكن   لا يُجاريهِ الربيـعْ
خُلق الناس عبيداً   للذي يأبى الخضوعْ
فإذا ما هب يوماً   سائراً سار الجميعْ

اعطني النايَ وغنّ   فالغنا يرعى العقولْ
وأنينُ النـاي أبقى   من مجيـدٍ وذليلْ

*

وما الحياةُ سوى نومٍ تراوده
أحلامُ من بمرادِ النفس يأتمرُ

والسرُّ في النفس حزن النفس يستره
فإن تولّى فبالأفراحِ يستترُ

والسرُّ في العيشِ رغدُ العيش يحجبه
فإن أزيل تولّى حجبَهُ الكدرُ

فإن ترفعتَ عن رغدٍ وعن كدر
جاورتَ ظلَّ الذي حارت به الفِكَرُ

ليس في الغابات حزنٌ لا ولا فيها الهمومْ
فــإذا هبَّ نسيمٌ لم تجيء معهُ السمومْ
ليس حزن النفس إلا ظلُّ وهمٍ لا يدومْ
وغيوم النفس تبدو من ثناياهـا النجومْ

أعطني النايَ وغنِّ فالغنـا يمحو المحنْ
وأنين النـايِ يبقى بعد أن يفنى الزمنْ

*



وقلَّ في الأرض مَن يرضى الحياة كما
تأتيهِ عفواً ولم يحكم بهِ الضجرُ

لذاك قد حوّلوا نهر الحياة إلى
أكواب وهمٍ إذا طافوا بها خدروا

فالناس إن شربوا سُرّوا كأنهمُ
رهنُ الهوى وعلى التخدير قد فُطروا

فذا يُعربدُ إن صلّى وذاك إذا
أثرى وذلك بالأحلام يختمرُ

فالأرض خمارةٌ والدهر صاحبها
وليس يرضى بها غير الألى سكروا

فإن رأيت أخا صحوٍ فقلْ عجباً!
هل استظلّ بغيم ممطر قمرُ؟

ليس في الغابات سكرٌ   من مُدامٍ أو خيالْ
فالسواقي ليس فيها   غير اكسير الغمامْ
إنما التخديرُ ثديٌ   وحليبٌ للأنامْ
فإذا شاخوا وماتوا   بلغوا سن الفطامْ

أعطني الناي وغنّ   فالغنا خير الشرابْ
وأنين الناي يبقى   بعد أن تفنى الهضابْ

*

والدينُ في الناسِ حقلٌ ليس يزرعهُ
غيرُ الأُلى لهمُ في زرعهِ وطرُ

من آملٍ بنعيمِ الخلدِ مبتشرٍ
ومن جهولٍ يخافُ النارَ تستعرُ

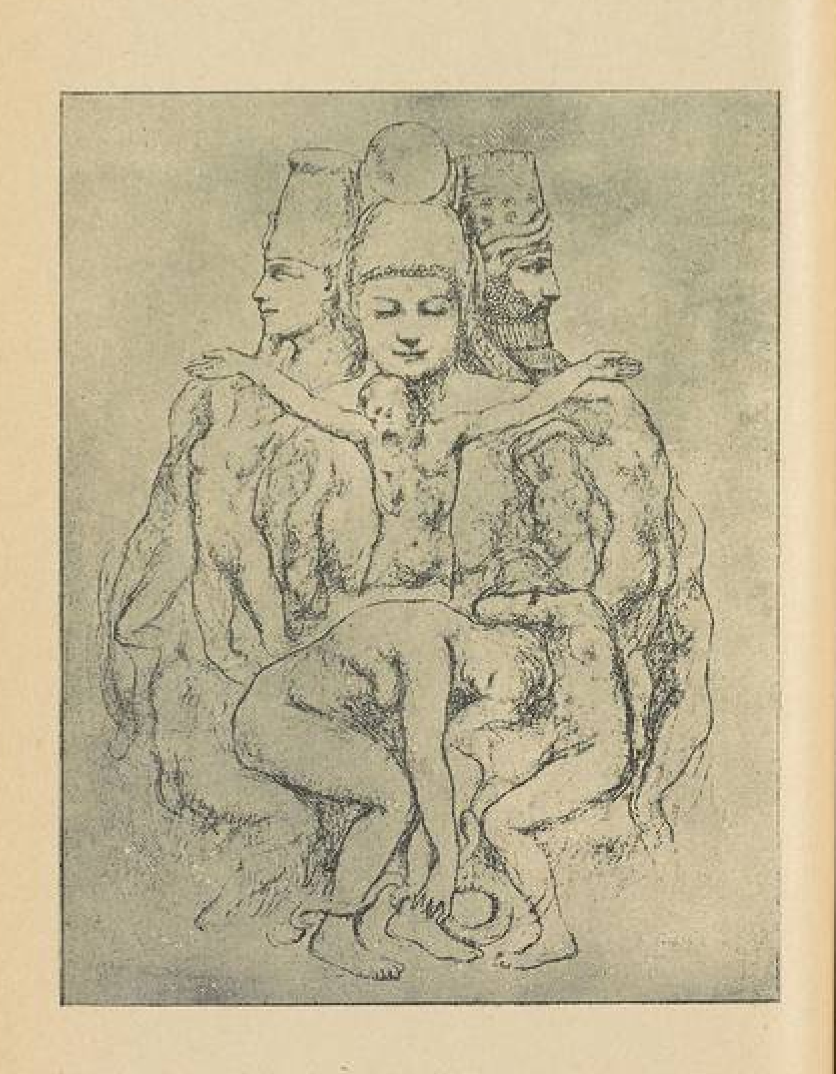
فالقومُ لولا عقابُ البعثِ ما عبدوا
ربّاً ولولا الثوابُ المرتجى كفروا

كأنما الدينُ ضربٌ من متاجرهم
إن واظبوا ربحوا أو أهملوا خسروا

ليس في الغاباتِ دينٌ   لا ولا الكفرُ القبيحْ
فإذا البلبلُ غنّى   لم يقلْ هذا الصحيحْ
إنّ دينَ الناسِ يأتي   مثلَ ظلٍّ ويروحْ
لم يقمْ في الأرضِ دينٌ   بعدَ طه والمسيحْ

أعطني النايَ وغنِّ   فالغنا خيرُ الصلاةْ
وأنينُ الناي يبقى   بعدَ أن تفنى الحياةْ

*



والعدل في الأرض يُبكي الجنَّ لو سمعوا
به ويستضحك الأموات لو نظروا

فالسجن والموت للجانين ان صغروا
والمجد والفخر والاثراء إن كبروا

فسارقُ الزهر مذمومٌ ومحتقَرٌ
وسارقُ الحقل يُدعى الباسلُ الخطرُ

وقاتلُ الجسم مقتولٌ بفعلته
وقاتلُ الروحِ لا تدري به البشرُ

ليس في الغابات عدلٌ	لا ولا فيها العقابْ
فاذا الصفصاف ألقى	ظله فوق الترابْ
لا يقول السرو هذي	بدعةٌ ضد الكتابْ
ان عدلَ الناسِ ثلجٌ	إن رأتهُ الشمسُ ذابْ

اعطني الناي وغنِّ	فالغنا عدلُ القلوبْ
وأنين الناي يبقى	بعد ان تفنى الذنوبْ

*

والحقُّ للعزم والأرواح إن قويتْ
سادتْ وإن ضعفتْ حلتْ بها الغِيَرُ

ففي العرينة ريحٌ ليس يقربـهُ
بنو الثعالبِ غابَ الأسدُ أم حضروا

وفي الزرازير جُبنٌ وهي طائرة
وفي البزاةِ شموخٌ وهي تحتضر

والعزم في الروح حقٌّ ليس ينكرهُ
عزمُ السواعد شاء الناس ام نكروا

فإن رأيتَ ضعيفاً سائداً فعلى
قوم اذا ما رأوا أشباههم نفروا

ليس في الغابات عزمٌ — لا ولا فيها الضعيفْ
فإذا ما الاسد صاحتْ — لم تقلْ هذا المخيفْ
إن عزمَ الناس ظلٌّ — في فضا الفكر يطوفْ
وحقوق الناس تبلى — مثل أوراق الخريفْ

أعطني النايَ وغنِّ — فالغنا عزمُ النفوسْ
وأنين الناي يبقى — بعد ان تفنى الشموسْ

*



والعلمُ في الناسِ سبلٌ بان اوّلها
امّا أواخرها فالدهرُ والقدرُ

وأفضلُ العلمِ حلمٌ إن ظفرت بهِ
وسرتَ ما بين أبناءِ الكرى سخروا

فإن رأيتَ أخا الأحلامِ منفرداً
عن قومهِ وهو منبوذٌ ومحتقرُ

فهو النبيُّ وبُرد الغد يحجبهُ
عن أمّةٍ برداء الأمسِ تأتزرُ

وهو الغريبُ عن الدنيا وساكنها
وهو المجاهرُ لامَ الناس أو عذروا

وهو الشديد وإن أبدى ملاينةً
وهو البعيدُ تدانى الناس أم هجروا

ليس في الغابات علمٌ	لا ولا فيها الجهولْ
فإذا الاغصان مالتْ	لم تقلْ هذا الجليل
انّ علمَ الناس طرّاً	كضبابٍ في الحقولْ
فإذا الشمس أطلّتْ	من ورا الافقِ يزولْ

أعطني النايَ وغنّ	فالغنا خير العلومْ
وأنينُ الناي يبقى	بعد أن تطفا النجومْ

*

والحرُّ في الأرض يبني من منازعهِ
سجناً لهُ وهو لا يدري فيؤتسَرُ

فإن تحرَّر من أبناءِ بجدتـهِ
يظلُّ عبداً لمن يهوى ويفتكرُ

فهـو الأريب ولكن في تصلبـهِ
حتى وللحقّ بُطـلٌ بـل هو البطرُ

وهو الطليقُ ولكن في تسرُّعـهِ
حـتى إلى أوجِ مجـدٍ خـالدٍ صِغرُ

ليس في الغـابات حرٌّ   لا ولا العبد الذميم
إنمـا الأمجادُ سخفٌ   وفقـاقيعٌ تعوم
فإذا ما اللوز ألقى   زهره فوق الهشيم
لم يقـلْ هـذا حقيرٌ   وأنا المولى الكريمْ

أعطني النـايَ وغنّ   فالغنا مجدٌ اثيـلْ
وانينُ النـاي ابقى   من زنيمٍ وجليـلْ

*



والّلطفُ في الناسِ أصداف وإن نعمتْ
أضلاعها لم تكن في جوفها الدررُ

فمن خبيثٍ لهُ نفسان : واحدةٌ
من العجين وأخرى دونها الحجرُ

ومن خفيفٍ ومن مستأنث خنثٍ
تكادُ تُدمي ثنايا ثوبهِ الابرُ

والّلطفُ للنذلِ درعٌ يستجيرُ بهِ
ان راعهُ وجلٌ أو هالهُ الخطرُ

فان لقيتَ قويّاً ليّناً فبهِ
لأعينٍ فقدتْ أبصارها البصرُ

ليس في الغابِ لطيفٌ ... لينهُ لينُ الجبانْ
فغصونُ البان تعلو ... في جوار السنديانْ
وإذا الطاووس أعطي ... حلةً كالأرجوان
فهوَ لا يدري أحسنٌ ... فيه ام فيه افتتان

اعطني النايَ وغنّ ... فالغنا لطف الوديعْ
وأنينُ الناي ابقى ... من ضعيف وضليعْ

*

والظرف في الناس تمويهٌ وأبغضهُ
ظرفُ الألى في فنون الاقتدا مهروا

من مُعجبٍ بامورٍ وهو يجهلها
وليس فيها له نفعٌ ولا ضررُ

ومن عتيٍّ يرى في نفسه ملكاً
في صوتها نغم في لفظها سُوَرُ

ومن شموخٍ غدت مرآتهُ فلكاً
وظلهُ قمراً يزهو ويزدهرُ

ليس في الغاب ظريف ظرفه ضعف الضئيلْ
فالصَّبا وهي عليل ما بها سقمُ العليلْ
إن بالأنهار طعماً مثل طعم السلسبيلْ
وبها هولٌ وعزمٌ يجرف الصلد الثقيلْ

اعطني النايَ وغنِّ فالغنا ظرف الظريفْ
وأنينُ الناي ابقى من رقيق وكثيفْ

*



والحبُّ في الناسِ أشكالٌ وأكثرها
كالعشب في الحقل لا زهرٌ ولا ثمرُ

وأكثرُ الحبِّ مثلُ الراح أيسره
يُرضي وأكثرهُ للمدمن الخطرُ

والحبُّ ان قادتِ الأجسامُ موكبهُ
الى فراش من الأغراض ينتحرُ

كأنه ملكٌ في الأسرِ معتقلٌ
يأبى الحياة وأعوان له غدروا

ليس في الغاب خليعٌ   يدَّعي نبلَ الغرامْ
فاذا الثيران خارتْ   لم تقل هذا الهيامْ
إنَّ حبَّ الناسِ داءٌ   بين لحمٍ وعظامْ
فاذا ولَّى شبابٌ   يختفي ذاك السقامْ

اعطني النايَ وغنِّ   فالغنا حبٌّ صحيح
وأنينُ الناي ابقى   من جميل ومليح

٭

فان لقيتَ محبّاً هائماً كلفاً
في جوعهِ شبعٌ في وِردهِ الصدرُ
والناسُ قالوا هوَ المجنونُ ماذا عسى
يبغي من الحبّ أو يرجو فيصطبرُ ؟
أفي هوى تلك يستدمي محاجره
وليس في تلك ما يحلو ويعتبرُ !
فقلْ همُ البهمُ ماتوا قبلما وُلدوا
أنّى دروا كنهَ من يحيي وما اختبروا !

ليس في الغابات عذلٌ   لا ولا فيها الرقيبْ
فاذا الغزلانُ جُنّتْ   اذ ترى وجه المغيبْ
لا يقولُ النسرُ واهاً   ان ذا شيءٌ عجيبْ
انما العاقل يدعى   عندنا الامر الغريبْ

اعطني النايَ وغنّ   فالغنا خيرُ الجنونْ
وأنين الناي ابقى   من حصيفٍ ورصينْ

*



وقل نسينا فخارَ الفـاتحين ومـا
ننسى المجـانين حتى يغمر الغمرُ

قد كان في قلب ذي القرنين مجزرةٌ
وفي حشاشةِ قيسٍ هيكلٌ وقرُ

ففي انتصارات هذا غلبةٌ خفيتْ
وفي انكساراتِ هذا الفوزُ والظفرُ

والحبُ في الروح لا في الجسم نعرفهُ
كالخمر للوحي لا للسكر ينعصرُ

ليس في الغابات ذكرٌ غير ذكر العاشقينْ
فالألى سادوا ومادوا وطغوا بالعـــالمينْ
اصبحوا مثل حروفٍ في اسامي المجرمينْ
فالهوى الفضّاح يدعى عندنا الفتح المبينْ

اعطني النايَ وغنّ وانس ظلم الأقوياء
إنمـا الزنبق كأسٌ للندى لا للدمـــاء

*

وما السعادة في الدنيا سوى شبحٍ
يُرجى فان صار جسماً ملّهُ البشرُ

كالنهر يركض نحو السهل مكتدحاً
حتى إذا جاءَه يبطي ويعتكرُ

لم يسعد الناسُ الاّ في تشوّقهم
الى المنيع فإن صاروا به فتروا

فإن لقيت سعيداً وهو منصرفٌ
عن المنيع فقل في خُلقه العبرُ

ليس في الغاب رجاءٌ　　لا ولا فيه المللْ
كيف يرجو الغاب جزءاً　　وعلى الكل حصلْ ؟
وبما السعي بغابٍ　　املاً وهو الأملْ ؟
إنما العيش رجاءٌ　　إحدى هاتيك العللْ

اعطني النايَ وغنّ　　فالغنا نارٌ ونورْ
وانينُ الناي شوقٌ　　لا يدانيه الفتورْ

*



وغايةُ الروح طيُّ الروح قد خفيتْ
فلا المظاهرُ تبديها ولا الصوَرُ

فذا يقول هي الارواح إن بلغتْ
حدَّ الكمال تلاشت وانقضى الخبرُ

كأنما هي اثمار إذا نضجتْ
ومرَّت الريح يوماً عافها الشجرُ

واذ يقول هي الاجسام إن هجعتْ
لم يبقَ في الروح تهويمٌ ولا سمَرُ

كأنما هي ظلٌّ في الغدير إذا
تعكر الماء ولَّت وامّحى الاثرُ

ظلَّ الجميع فلا الذرّاتُ في جسد
تثوى ولا هي في الارواح تحتضرُ

فما طوتْ شمأل أذيال عاقلة
إلاَّ ومرَّ بها الشرقي فتنتشر

لم أجدْ في الغاب فرقاً بين نفس وجسدْ
فالهوا ماءٌ تهادى والندى ماءٌ ركدْ
والشذا زهرٌ تمادى والثرى زهر جمدْ
وظلال الحور حورٌ ظنَّ ليلاً فرقدْ

أعطني النايَ وغنِّ فالغنا جسمٌ وروحْ
وأنينُ الناي ابقى من غبوق وصبوحْ

*

والجسمُ للروحِ رحمٌ تستكنُّ بهِ
حتى البلوغِ فتستعلي وينغمرُ

فهي الجنينُ وما يومُ الحمامِ سوى
عهدِ المخاضِ فلا سقطٌ ولا عسرُ

لكنَّ في الناسِ اشباحاً يلازمها
عقمُ القسيِّ التي ما شدَّها وترُ

فهي الدخيلةُ والأرواحُ ما وُلدتْ
من القفيلِ ولم يحبل بها المدرُ

وكم على الأرضِ من نبتٍ بلا أرجٍ
وكم علا الأفقَ غيمٌ ما بهِ مطرُ

ليس في الغابِ عقيمٌ لا ولا فيها الدخيلْ
إنَّ في التمرِ نواةٌ حفظت سر النخيلْ
وبقرص الشهدِ رمزٌ عن قفيرٍ وحقولْ
إنما العاقرُ لفظ صيغ من معنى الحمولْ

اعطني النايَ وغنِّ فالغنا جسمٌ يسيلْ
وانينُ الناي ابقى من مسوخ ونغولْ

*



والموتُ في الأرضِ لابن الأرض خاتمةٌ
وللأثيريِّ فهو البدءُ والظفرُ

فمن يعانق في احلامهِ سحراً
يبقى ومن نامَ كل الليل يندثرُ

ومن يلازم ترباً حال يقظته
يعانق التربَ حتى تخمد الزُهرُ

فالموتُ كالبحر ، مَنْ خفّت عناصره
يجتازه ، واخو الأثقال ينحدرُ

ليس في الغاباتِ موتٌ   لا ولا فيها القبورْ
فإذا نيسان ولّى   لم يمتْ معهُ السرورْ
إن هولَ الموت وهْمٌ   ينثني طيَّ الصدورْ
فالذي عاش ربيعاً   كالذي عاش الدهورْ

اعطني النايَ وغنِّ   فالغنا سرُّ الخلود
وانين الناي يبقى   بعد ان يفنى الوجود

*

اعطني النـاي وغـنِّ وانسَ ما قلتُ وقلتا
انمـا النطقُ هبـاءٌ فأفدني ما فعلتـا

هل تخذت الغاب مثلي منزلاً دون القصورْ
فتتبعـت السواقي وتـلقت الصخورْ ؟

هل تحممتَ بعطر وتنشفت بنورْ
وشربتَ الفجر خمراً في كؤوس من أثيرْ ؟

هل جلست العصر مثلي بين جفنات العنبْ
والعناقيـد تدلتْ كـثريات الذهبْ

فهي للصادي عيون ولمن جـاع الطعـامْ
وهي شهدٌ وهي عطرٌ ولمن شاءَ المدامْ

هل فرشتَ العشب ليلاً وتـلحفتَ الفضـا
زاهـداً في مـا سيأتي ناسياً ما قـد مضى ؟

وسكوت الليل بحرٌ موجـهُ في مسمعكْ
وبصدر الليـل قلبٌ خافق في مضجعكْ

اعطني النـاي وغـنِّ وانسَ داءً ودواء
انمـا الناسُ سطورٌ كتبت لكن بمـاء

ليت شعري أي نفعٍ في اجتماع وزحـام
وجـدالٍ وضجيجٍ واحتجاجٍ وخصامْ ؟

كلهـا أنفـاق خُلدٍ وخيوط العنكبوتْ
فـالذي يحيا بعجزٍ فهو في بطءٍ يموتْ

*


Gibran

العيشُ في الغـاب والأيام لو نُظمت
في قبضتي لغدت في الغـاب تنتثرُ

لكن هو الدهرُ في نفسي له أربٌ
فكلما رمتُ غـاباً قـامَ يعتذرُ

وللتقـادير سبلٌ لا تغيّرهـا
والناس في عجزهم عن قصدهم قصروا



الاجنحة المتكسرة

دمعة وابتسامة

المواكب

